



منشورات جامعة دمشق

كلية الشريعة



دراسات معاصرة في التفسير وعلوم القرآن

تأليف

د. زكريا هاشم حبيب الخولي

د. حازم زكريا محي الدين

١٤٤٤ - ١٤٤٥ هـ

٢٠٢٢ - ٢٠٢٣ م

جامعة دمشق

الحمد لله الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً، والصلاة والسلام على من أرسله الله شاهداً ومبشراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، وعلى آله وصحبه، وسلم تسليماً كثيراً.. أما بعد:

فإن خير ما يقدمه الإنسان من صالح الأعمال، وأفضل ما يسعى إليه، خدمة كتاب الله تعالى، الذي اتخذت العناية به أشكالاً مختلفة، فتارة ترجع إلى لفظه وأدائه، وأخرى إلى أسلوبه وإعجازه، وثالثة إلى كتابته ورسمه، ورابعة إلى تفسيره وشرحه إلى غير ذلك..، ولقد أفرد العلماء كل ناحية من هذه النواحي بالبحث والتأليف، ووضعوا من أجلها العلوم، ودونوا الكتب، حتى زخرت المكتبة الإسلامية بتراث مجيد من آثار سلفنا الصالح وعلمائنا الأعلام في علم التفسير والتجويد والقراءات والرسم العثماني والناسخ والمنسوخ وعلم إعجاز القرآن وما شاكل ذلك من العلوم الدينية والعربية، مما يُعَدُّ بحق أروع مظهر عرفه التاريخ لحراسة كتاب هو خاتم الكتب، ثم أنجبت تلك العلوم الأنفة وليداً جديداً هو مزيج منها جميعاً وسليل لها جميعاً فيه: ضوابطها وموازينها وتعريفها ومقاصدها وأغراضها وخصائصها، وأسرارها وأقسامها وأنواعها، واصطلح العلماء على تسمية هذا الوليد (علوم القرآن)، وهو: "المباحث الكلية التي تتعلق بالقرآن الكريم من ناحية نزوله وترتيبه وجمعه وكتابته وتفسيره وناسخه ومنسوخه وإعجازه ودفع الشبه عنه".

ولما نهضت العلوم في العصر الأخير كان لعلوم القرآن من هذه النهضة نصيبٌ ملحوظٌ ونشاطٌ ملموسٌ فبدأت الحياة تدبّ في علوم القرآن من جديد بمعناه الاصطلاحي واللغوي .. ومما ساعد على هذا النشاط ما أخذ به الأزهر الشريف في تطوره في القرن الأخير من إدخال الدراسات التخصصية في منهجه فحظي القرآن وعلومه ببعض التخصص.

ولم تقف مباحث علوم القرآن على الأنواع التي عني بها المؤلفون القدامى، بل أضيفت مباحث أخرى فرضها الواقع مثل (ترجمة القرآن الكريم إلى اللغات الأجنبية)، كما جدت بعض الشبه التي أوردها المستشرقون حول القرآن، فقام العلماء بالردّ العلمي مع العفة في القول والإصابة في النقد على هذه الشبه كالردّ على منكري الوحي والمشككين في القراءات، وقد جاءت المؤلفات في هذا العصر بعضها شامل لجميع أنواع علوم القرآن أو لجلّها، وبعضها في بعض أنواعه ومباحثه، ونودّ التنبيه إلى أنّ التصنيف في علوم القرآن بالمعنى الأول (اللغوي) لم ينقطع وخاصة في علم التفسير والإعجاز بأنواعه، وذلك تلبية لحاجة العصر التي اتجهت فيه الأنظار نحو القرآن: توجّه المنحرفون إلحاداً وتشكيكاً وتوجّه العلماء إظهاراً للحق وتفسيراً صحيحاً، وظهرت دراسات معاصرة في التفسير تنوّعت مناهجها (منهج التفسير البياني والتفسير العلمي والتفسير الاجتماعي والموضوعي).

ويسعدنا أن نضع بين يدي طلبتنا الأعزاء في السنة الرابعة في كلية الشريعة بجامعة دمشق مقرر (دراسات معاصرة في التفسير وعلوم القرآن) وفق الخطة الدراسية المعتمدة ليتعرفوا من خلاله على أهم الدراسات المعاصرة في علوم القرآن والتفسير.

أهداف البحث:

- الوقوف على النشاط والتطور والنهضة في علوم القرآن والتفسير سواء في المباحث التي فرضها الواقع، أو الردّ العلمي على الشبه التي أوردها المستشرقون حول القرآن.
- الوقوف على جهود العلماء المعاصرين، وبيان منهجهم في علوم القرآن والتفسير، إضافة إلى ذكر محاسن كتبهم وإبرازها، والتنبيه على المآخذ وبيان وجه الصواب فيها.
- توضيح أهم القضايا التي تعرّض لها المؤلفون في كتبهم في العصر الحديث من خلال المناقشة والمقارنة والنقد.
- تسليط الضوء على أعلام الأمة الإسلامية في العصر الحديث. ، ويُعرّف طلاب كلية الشريعة بمن كان لهم أثر في الدراسات القرآنية

أسباب اختيار البحث:

- لأنه يبحث في العلوم القرآنية، وحسبنا بهذا شرفاً، وخاصة علوم القرآن الكريم التي تعدّ المقدمة الضرورية لدى المشتغلين بتفسير القرآن الكريم الطالبين معرفة أفهام معانيه.
- واجبنا تجاه ديننا وتجاه علمائنا، بأن نحفظ جهودهم المشكورة، ونقوم بخدمتها قدر الاستطاعة، سواء كان ذلك بالاحتفاظ بها، أو تحقيقها ودراستها، أو تبيين مناهجها واستخلاص مزاياها وفرائدها.
- أهمية الكتب الذي جرت عليها الدراسة في البحث العلمي المتعلق بالقرآن الكريم.
- منهج البحث: تبعاً لطبيعة الموضوع، فقد اتبع المنهج الوصفي النقدي، وذلك بترجمة حياة المؤلفين، ووصف كتبهم، وبيان منهجهم في أهم المسائل الذي تعرّضوا لها، مع تحليلها ومناقشتها ونقدها، ومن ثم الوقوف على أهم المحاسن والمآخذ على كتبهم.

خطة البحث: اقتضت طبيعة البحث أن يُقسم على قسمين:

القسم الأول : دراسات معاصرة في علوم القرآن القسم الثاني : دراسات معاصرة في التفسير

القسم الأول :

دراسات معاصرة في علوم القرآن

يتضمن ثلاثة مباحث وخاتمة، وفق الخطة الآتية:

المبحث الأول: التعريف بعلوم القرآن: (تعريفه، نشأته وتطوره، وأهم المؤلفات حتى العصر الحديث)

المطلب الأول: تعريف علوم القرآن

لمطلب الثاني: نشأة علوم القرآن، وتطوره، وأهم المؤلفات حتى العصر الحديث.

المبحث الثاني: موارد علوم القرآن من مقدمات التفاسير في العصر الحديث، ويتضمن:

المطلب الأول: مقدمة تفسير: "محاسن التأويل في تفسير القرآن الكريم" للشيخ جمال الدين القاسمي (ت ١٣٣٢هـ - ١٩١٤م).

المطلب الثاني: مقدمة تفسير: "التحرير والتنوير" للشيخ الطاهر بن عاشور (ت ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م).

المطلب الثالث: مقدمة تفسير: "التفسير الحديث" للشيخ محمد عزة دروزة (ت ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م).

المبحث الثالث: موارد علوم القرآن من الكتب الأكاديمية، ويتضمن:

المطلب الأول: كتاب "مناهل العرفان في علوم القرآن" للشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني (ت ١٣٦٧هـ - ١٩٤٨).

المطلب الثاني: كتاب "مباحث في علوم القرآن" للشيخ صبحي الصالح (ت ١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م).

المطلب الثالث: كتاب "إتقان البرهان في علوم القرآن" للدكتور فضل عباس (ت ١٤٣٢هـ - ٢٠١١م).

الخاتمة

المبحث الأول: التعريف بعلوم القرآن: (تعريفه، نشأته وتطوره، وأهم المؤلفات حتى العصر الحديث)

المطلب الأول: تعريف علوم القرآن:

أولاً: تعريف (علوم القرآن) بمعناه الإضافي:

عرّفه الزرقاني بأنه: يُراد به شمول كل علم يخدم القرآن الكريم أو يستند إليه^١. فهو بهذا الشمول والإحاطة يندرج فيه علم التفسير، وغريب القرآن، وقراءاته، ورسمه، وإعجازه، وإعرابه، واللغة ... وغيرها.

وتلك أشتات من العلوم توسّع السيوطي - رحمه الله - فيها حتى اعتبر منها علم الهيئة والهندسة والطب ونحوها^٢. وقد توسع بعض العلماء في هذه العلوم كثيراً، فأدخلوا العلوم المستنبطة منه.

فالمعنى الإضافي لعلوم القرآن فيه توسع، إذ إضافة (علوم) إلى (القرآن) تشمل كل علم يستند إلى القرآن الكريم، أو يخدمه، أو يتعلق به، أي يشمل علوم القرآن المكتبة العربية بعلومها المختلفة اشتمالاً متفاوتاً^٣.

ثانياً: تعريف (علوم القرآن) بكونه علماً على ذلك الفنّ الخاص به:

لا يوجد للمتقدمين تعريفٌ له بهذا الاعتبار، أما المتأخرون فقد اختلفت تعريفاتهم إلا أنها جاءت متقاربة في المعنى مع بعض التفاوت في الألفاظ.

قال الزرقاني: "مباحث تتعلق بالقرآن الكريم من ناحية نزوله، وترتيبه، وجمعه، وكتابته، وقراءاته، وتفسيره، وإعجازه، وناسخه ومنسوخه، ودفع الشبه عنه، ونحو ذلك"^٤. ونحواً من هذا التعريف ذكر الدكتور محمد أبو شعبة^٥، والدكتور نور الدين عتر^٦، والدكتور مصطفى البغا^٧، إلا أنّ تعريف الدكتور نور الدين أضاف قيماً

^١ انظر: الزرقاني، محمد عبد العظيم، مناهل العرفان في علوم القرآن، ط: ٣ (مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه)، ١/٢٣.

^٢ انظر: جلال الدين السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، د. ط (مصر - الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م)، ٤/٣٣.

^٣ انظر: البوطي، محمد سعيد رمضان، من روائع القرآن: ٦٥

^٤ مناهل العرفان: ١/٢٧.

^٥ انظر: أبو شعبة، المدخل لدراسة القرآن الكريم، ط: ٢ (القاهرة - مكتبة السنة، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م)، ١٨.

^٦ انظر: نور الدين عتر، علوم القرآن الكريم، ط: ١ (دمشق - مطبعة الصباح، ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م)، ٨ (الحاشية). وقد نبه الشيخ نور الدين إلى الخطأ الواضح الذي وقع فيه من عرف علوم القرآن فقال: "هي جميع المعلومات والبحوث التي تتعلق بالقرآن ..."، فقد خلط بين المعنى اللغوي وهو يدل على علوم كثيرة، والمعنى الاصطلاحي وهو علم واحد.

مهماً، وهو (كلية)، لأنّ هذا المعنى الجديد يختصّ بأنه علم واحد يجمع ضوابط تلك العلوم المتصلة بالقرآن من ناحية كلية عامة، بخلاف المعنى اللغوي فإنّ كلّ علمٍ منها يدرس القرآن كله من زاوية اختصاصه آيةً آيةً دراسةً تفصيلاً.

وعرفه الشيخ مناع القطان مُظهراً المعنى الاصطلاحي كفنّ مستقلّ من خلال تصريحه أنه (علم)، إلا أنّ تعريفه لم يشمل على كلمة (كلية)، فقال: "العلم الذي يتناول الأبحاث المتعلقة بالقرآن من حيث معرفة أسباب النزول، وجمع القرآن وترتيبه، ومعرفة المكي والمدني، والناسخ والمنسوخ، والمحكم والمتشابه، إلى غير ذلك مما له صلة بالقرآن"^٢.

ويرى أن "علوم القرآن": يمكن أن تُسمّى بـ "أصول التفسير"، لأنه يتناول المباحث التي لا بد للمفسر من معرفتها للاستناد إليها في تفسير القرآن^٣.

ولاشك أن "أصول التفسير" تشارك "علوم القرآن" في استنادها للقرآن وخدمتها له، لكنهما يفترقان في كون "علوم القرآن" أعمّ؛ لكونها تضمّ مباحث لا دخل لها في التفسير، كرسم القرآن، وعدد آياته، أما "أصول التفسير": فعلم يقوم على ضبط التفسير، ووضع قواعد مهمة ضرورية؛ لسلامة السير في طريق التفسير^٤.

ومن الملاحظ أنّ التعاريف السابقة عدّت علم التفسير نوعاً من أنواع علوم القرآن بالمعنى الاصطلاحي، وهذا لا ينافي كون عامة العلوم المتعلقة بالقرآن، تدور حول تفسيره، أو تيسير السبيل إلى ذلك، وهذا هو السر في تصدير عدد من المفسرين كتبهم في التفسير بمقدمات تتعلق ببيان بعض العلوم القرآنية^٥.

^١ انظر: مصطفى ديب البغا/ محيي الدين مستو، الواضح في علوم القرآن، ط: ٢ (دمشق- دار الكلم الطيب/ دار العلوم الإنسانية، ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م)، ٨.

^٢ مناع القطان، مباحث في علوم القرآن، ط: ٣ (مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م)، ١٢.

^٣ انظر: المرجع السابق.

^٤ انظر: حازم سعيد حيدر، علوم القرآن بين البرهان والإتقان، د. ط (المدينة المنورة- دار الزمان للنشر، ١٤٢٠هـ)، ٢٧.

^٥ انظر: عدنان محمد زرزور، مدخل إلى تفسير القرآن وعلومه، ط: ٢ (دمشق- دار القلم، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م)، ١٢٤، ١٢٣.

ويمكن أن نتجاوز المآخذ على هذه التعريفات ونعرّف "علوم القرآن" بنحو مختصر وشامل، كما عرّفه لنا الدكتور حسن ضياء الدين عتر إذ قال: "علم يضم أبحاثاً كلية مهمة، تتصل بالقرآن العظيم من نواحٍ شتى، يمكن اعتبار كل واحد منها علماً متميزاً".

المطلب الثاني: نشأة علوم القرآن، وتطورها، وأهم المؤلفات حتى العصر الحديث.

"علوم القرآن" كغيرها من العلوم، قد مرّت بمراحل وأطوار حتى وصلت إلى المعنى المصطلح عليه كفنّ مدون ثم تطور هذا العلم وكثرت المؤلفات فيه، لاسيما في العصر الحديث.

وبالنظر في نشأة علوم القرآن نجدّها قد مرّت بالمراحل الآتية:

إن بداية ظهور علوم القرآن مرتبطة ببداية نزوله، فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه يعرفون عن القرآن وعلومه ما عرف العلماء وفوق ما عرف العلماء من بعد، ولم تكن علوم القرآن وغيرها من العلوم مدونة في العصر الأول في الكتب والصحف بل كانت مدونة على صفحات القلوب وكان المعول عليه في نقلها الرواية والمشافهة، ومع شروع الصحابة في جمع القرآن بدأ يتشكل علم خاص برسم القرآن الكريم، وقد تطوّر هذا العلم مع تطور الخط العربي ونقط المصحف، كما رافق ذلك الحديث عن إعراب القرآن^١، ولذا يعدّ سيدنا عثمان رضي الله عنه واضع الأساس لعلم الرسم القرآني، وأبو الأسود الدؤلي واضع الأساس لما يُسمى «علم النحو» في عهد سيدنا علي رضي الله عنه.

مع انتشار الإسلام، وتوسع الفتوحات ودخول الأعاجم في الإسلام، وكذلك توسع العلوم والمعارف، بدأت تظهر أنواع علوم القرآن المختلفة، فظهر مبكراً الحديث عن أسباب النزول، والمكي والمدني، والناسخ والمنسوخ، وعلم الغريب وغير ذلك، أي ساهم عدد من الصحابة والتابعين في العهد الأموي في وضع الأساس لما يُسمى «علم التفسير» و «علم أسباب النزول» و «علم الناسخ والمنسوخ» و «علم غريب القرآن»..

^١ انظر: الواضح في علوم القرآن : ٩ .

وفي عصر التدوين^١ ألفت الكتب في أنواع علوم القرآن، واتجهت الهمم أول الأمر إلى التفسير باعتباره أصل العلوم القرآنية، وعليه يتوقف استنباط الأحكام ومعرفة الحلال والحرام، ومن أوائل من كتب في التفسير مقاتل بن سليمان (ت ١٥٠هـ) وشعبة بن الحجاج (ت ١٦١هـ)، ووكيع بن الجراح (ت ١٩٧هـ) وسفيان بن عُيينة (ت ١٩٨هـ)، وتفاسيرهم جامعة لأقوال الصحابة والتابعين، ثم تلاهم يحيى بن سلام القيرواني (ت ٢٠٠هـ)، ثم جاء الإمام الطبري (ت ٣١٠هـ) الذي يعدّه العلماء والمؤرخون أبا للتفسير وأباً للتاريخ ليضع لنا تفسيره: (جامع البيان عن تأويل آي القرآن) الذي يعتبر موسوعة في هذا الباب.

أما في علوم القرآن الأخرى فبدأ يُؤلف في كل نوع من أنواعها على حدى، فقد ألف أبو عبيدة معمر بن المثنى (ت ٢٠٩هـ) في مجاز القرآن، وأبو عبيد القاسم بن سلام (ت ٢٢٤هـ) في الناسخ والمنسوخ وفي القراءات، وعلي بن المدني (ت ٢٣٤هـ) في أسباب النزول، وأبو بكر السجستاني (ت ٣٣٠هـ) في غريب القرآن، وهكذا ظهرت مؤلفات في كل نوع منها، سواء في ذلك أقسام القرآن وأمثال القرآن، وحجج القرآن، وبدائع القرآن وما أشبهها^٢. كما أن المفسرين الأوّل رحمهم الله ذكروا في مقدمات تفاسيرهم مباحث من لبّ هذا العلم (علوم القرآن)، فهذا الإمام الطبري لا تخلو مقدمة تفسيره من موضوعات تتصل بالقرآن، وابن بسطام (ت ٤٢٥هـ) في مقدمة تفسيره: (المباني لنظم المعاني)، والإمام أبو الحسن الماوردي (ت ٤٥٠هـ) في مقدمة تفسيره: (النكت والعيون) وغيرهم^٣.

أما أول من ألف في علوم القرآن بالمعنى الاصطلاحي، فقد اختلفت آراء العلماء في ذلك:

يقول الزرقاني: "ولقد كان المعروف لدى الكاتبين في تاريخ هذا الفن أن أول عهد ظهر فيه هذا الاصطلاح أي علوم القرآن هو القرن السابع، لكنني ظفرت في دار الكتب المصرية بكتاب لعلّي بن إبراهيم بن سعيد الشهير بالحويني (ت ٤٣٠هـ) اسمه (البرهان في علوم القرآن). وهو يقع في ثلاثين مجلداً والموجود منه الآن خمسة عشر

^١ ابتداءً في أول القرن الثاني الهجري، والذي يعدّ العصر الذهبي للتشريع الإسلامي، إذ نما فيه ونضج وأثّر ثروة تشريعية، أغنت الدولة الإسلامية بالقوانين والأحكام على سعة أرجائها واختلاف شؤونها وتعدد مصالحها.

^٢ انظر: صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن، ط: ٦ (بيروت- دار العلم للملايين، ١٩٦٩م)، ١٢٢، ١٢١. مباحث في علوم القرآن لمناع القطان: ٨، ٩، الواضح في علوم القرآن: ٩، ١٠.

^٣ انظر: فضل حسن عباس، إتقان البرهان في علوم القرآن، ط: ٢ (الأردن- دار النفائس، ١٤٣٠هـ- ٢٠١٠م)، ٣٥، ٣٦/١.

مجلداً غير مرتبة ولا متعاقبة من نسخة مخطوطة^١. فالشيخ الزرقاني يُرجع إليه بداية إطلاق علوم القرآن بالمعنى الاصطلاحي الشامل لها، وتبعه في هذا الرأي الشيخ مناع القطان^٢، وغيره.

ونقض قوله بعض العلماء بقولهم إنه كتاب تفسير، وليس كتاباً في "علوم القرآن"، ويرى الدكتور صبحي الصالح أن كتاب (الحاوي في علوم القرآن) لابن المرزبان (ت ٣٠٩هـ)، أسبق الكتب التي عالجت الدراسات القرآنية باسمها الصريح "علوم القرآن"^٣.

وكان ممن حقق في هذه المسألة الدكتور محمد يوسف الشربجي، وبَيَّن أن كتاب ابن المرزبان (الحاوي في علوم القرآن) هو كتاب تفسير وليس كتاباً في علوم القرآن بالمعنى الاصطلاحي المتعارف عليه، وأن ابن الجوزي (ت ٥٩٧هـ) لم يسبقه أحد إلى جمع الأبحاث القرآنية وتسميتها "علوم القرآن"، يعني في كتابه (فنون الأُفنان في عجائب علوم القرآن)^٤، وقد نقل هذه النتيجة إلى الدكتور فضل حسن عباس، فأخذ بهذا القول وركن إليه في كتابه (إتقان البرهان)^٥.

وقد بحث وحقّق أيضاً في هذه المسألة الدكتور حازم سعيد حيدر، في كتابه (علوم القرآن بين البرهان والإتقان) وجمع الأقوال وناقشها، ثم خلاص إلى أن الحارث المحاسبي (ت ٢٤٣هـ) أول من دَوَّن في علوم القرآن بصورة مستقلة، من حيث المحتوى والمضمون دون العنوان، في كتابه (فهم القرآن)، وأما ظهور مصطلح "علوم القرآن" في العنوان والمحتوى فقد بدأ في مؤلّف ابن حبيب النيسابوري (ت ٤٠٦هـ)، (التنبيه على فضل علوم القرآن)^٦.

والحقيقة: إن القول في مسألة (أول من ألف في علوم القرآن بالمعنى الاصطلاحي المتعارف عليه) غير متفق عليه حتى بين العلماء المعاصرين، ولا زال هناك من يبحث في المسألة ويخلص إلى نتائج مخالفة لغيره.

وفي القرن السابع ألف علم الدين السخاوي (ت ٦٤٣هـ) كتاباً سمّاه (جمال القراء وكمال الإقراء)، ثم أهلّ القرن الثامن، فكتب فيه الإمام بدر الدين الزركشي (ت ٧٩٤هـ) كتابه (البرهان في علوم القرآن).

^١ مناهل العرفان للزرقاني ١/ ٣٤، ٣٥.

^٢ انظر: مباحث في علوم القرآن للقطان، ٩، ١٠.

^٣ انظر: مباحث في علوم القرآن لصبحي الصالح: ١٢٤.

^٤ انظر: مجلة جامعة دمشق للعلوم الاقتصادية والقانونية، علوم القرآن الكريم وتاريخه وأول من ألف فيه، (المجلد ١٢، العدد الأول: ١٩٩٦م)، ١٥٩.

^٥ انظر: إتقان البرهان في علوم القرآن: ٣٦.

^٦ انظر: علوم القرآن بين البرهان والإتقان: ٨٣، ٩٥،

وألف بعده جلال الدين البلقيني (ت ٨٢٤هـ) كتاباً سماه (مواقع العلوم من مواقع النجوم)، كما ألف في هذا القرن محمد بن سليمان الكافيجي (ت ٨٧٩هـ) كتاباً سماه (التيسير في قواعد التفسير)، يقول السيوطي عنه: "إنه لم يسبق إليه، لكنه لم يشف له غليلاً، ولم يهده إلى المقصود سبيلاً".

ثم قام الإمام السيوطي (ت ٩١١هـ) بتأليف كتابه (الإتقان في علوم القرآن)، بنى أكثر كتابه على (البرهان للزركشي)، وزاد عليه فكان أكثر جمعاً من كتاب البرهان.

فترت حركة التأليف في علوم القرآن بعد عهد السيوطي، ثم عادت لتنتعش على يد مجموعة من العلماء المعاصرين، الذين أبدعوا في هذا العلم، وأجادوا في مؤلفاتهم، ومن هذه المؤلفات:

- مقدمة تفسير: "محاسن التأويل في تفسير القرآن الكريم" للشيخ جمال الدين القاسمي، (ت ١٣٣٢هـ - ١٩١٤م) ستم دراسته لاحقاً.

- "التبيان لبعض المباحث المتعلقة بالقرآن على طريق الإتقان": للشيخ طاهر الجزائري (ت ١٣٣٨هـ -

١٩٢٠م)، ولد في دمشق سنة (١٨٥٢م)، وكان أبوه فقيه المالكية بدمشق ومفتيها في الشام، هاجر مع الهجرة الأولى التي هاجرت من الجزائر إلى دمشق خلال فترة الاحتلال الفرنسي للجزائر، ويعد الشيخ طاهر الجزائري من أعيان النهضة العلمية في سوريا، فقد قال عنه تلميذه الأستاذ محمد كرد علي: "سعى الشيخ طول حياته لنشل المسلمين من سقطتهم، ونشر العلوم القديمة والحديثة بين أبنائهم، ولولا ما قام به من التذرع بجميع الذرائع لتأخرت نهضة المسلمين في الشام أكثر من نصف قرن".

وهو أول من افتتح التأليف في علوم القرآن في هذا العصر، وقد طبع الكتاب عام (١٣٣٤هـ - ١٩١٧م)، وقد جمع فيه بين التلخيص والتصنيف والزيادة، معتمداً التحقيق العلمي على وجه محرر وجيز، رغم أنه اعتمد على عدد كبير من المصادر والمراجع التي زادت عن مئة وعشرين، وقد ذكر عدة أنواع قيمة في علوم القرآن، وبين بعض الفصول التي تحتاج إلى بيان، وضبط أبوابه وتقسيماته وتفرعاته، ووضع العناوين المناسبة لها وأضاف إليه مسائل وفوائد جديدة يستخرجها من خلال دراسته الفصول، لم يسبقه إليها غيره، وكان له

١ انظر: مقدمة الإتقان في علوم القرآن: ١٦، ١٧/١.

اختيارات، وقد بين الأستاذ محمد كرد علي أهمية هذا الكتاب وغيره من كتبه بأنّ "فيها لباب علم وأثر من آثار قريجنه، تجلى فيها روح بحثه وغوصه على مسائل دقيقة قلّ أن تتسنى لغيره ممن عاصره الوصول إليها"^١. وقد ذكر الشيخ عبد الفتاح أبو غدة أن كتاب: (التبيان لبعض المباحث المتعلقة بالقرآن) قد وضعه الشيخ طاهر كمقدمة لتفسيره (تفسير القرآن الحكيم)، إذ كتب له مقدمتان: كبرى وصغرى، والصغرى هي كتاب التبيان.

- **منهج الفرقان في علوم القرآن:** للشيخ محمد علي سلامة (ت ١٣٦١هـ) :

ولد في قرية زرقان مركز تلا بمحافظة المنوفية عام (١٣٠٧هـ - ١٨٩٠م)، وتخرج في الأزهر الشريف وعمل بالمحاكم الشرعية، ثم درس في الجامع الأزهر ثم في كلية أصول الدين منذ إنشائها حتى وفاته سنة (١٣٦١هـ - ١٩٤٢م). وكتابه: (منهج الفرقان في علوم القرآن) من المؤلفات التي لم تأخذ حظها من الذبوع والدراسة مع أنه متقدم على كتاب (مناهل العرفان) من حيث تاريخ التأليف والنشر، وقد قام الدكتور محمد سيد المسير بتحقيق الكتاب في جزأين يتضمنان خمسة عشر مبحثاً من أهم مباحث علوم القرآن، والمنهج العام للكتاب يتميز بالوضوح مع دقة التعبير والإيجاز غير المخل وللمؤلف فيه ترجيحات بين الآراء مع حسن العرض وعزو الأقوال لمصادرها والكتاب بحاجة إلى تحقيق علمي ودراسة فاحصة لمنهج مؤلفه وترجيحاته.

- **مناهل العرفان في علوم القرآن:** للشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني، سيتم الحديث عنه لاحقاً.
- **المدخل إلى دراسة القرآن الكريم:** للدكتور محمد محمد أبو شُهبة (١٩١٤ - ١٩٨٣م): الشيخ العلامة أبو السادات محمد بن محمد أبو شُهبة، ولد في قرية "منية جناح" بمحافظة كفر الشيخ بمصر، ومن أشهر شيوخه بالجامع الأزهر فضيلة الشيخ العلامة محمد الخضر حسين، وفضيلة الشيخ محمد الشربيني وغيرهم، أستاذ لتفسير والحديث بكلية أصول الدين بجامعة الأزهر بالقاهرة، وكلية الشريعة بمكة، وكلية الشريعة في جامعة بغداد، وفي جامعة أم درمان الإسلامية بالسودان، وهو عالم موسوعي وعلم من أعلام الحديث في هذا العصر، مفسر جليل صاحب غيرة على الكتاب والسنة، وقضى حياته على خدمتهما، وله مؤلفات قيمة نافعة، منها: (الوسيط في علوم ومصطلح الحديث - « السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة - الوضع في الحديث ورد شبه المستشرقين وغيرهم من الباحثين - دفاع عن السنة ورد شبه المستشرقين

^١ كنوز الأجداد

والكتاب المعاصرين- الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير - أعلام المحدثين - ومن أشهرها :
المدخل لدراسة القرآن الكريم، وقد لُحظ في عنوانه الغاية من علوم القرآن في كونه مدخلاً لدراسة القرآن
الكريم ومقدمة صغرى لتفسيره فسماه بهذا الاسم، وقد جمع الشيخ فيه بين الأصالة والمعاصرة مع عمق في
المعرفة ودقة في التحقيق وسلاسة في الأسلوب؛ فقد كتب فيه على نهج المتقدمين وفند شبهات
المستشرقين والكتاب المعاصرين، بأدب عالٍ في النقد والحوار، وغيره شديدة على الإسلام وكتابه وعقيدته.
وقد جاء الكتاب في عشرة مباحث، ذكر فيها أهم المواضيع في علوم القرآن، تليها مسائل متفرقة في أدب تلاوة
القرآن وحفظه، ومما يدل على الفكر النقدي للشيخ في كتابه أنه ألحق به في الطبعة الثانية زيادات وتنقيحات
وتحقيقات؛ عرض فيها للشبه التي أثّرت على الوحيوردها، كما زاد فيه عدداً من البحوث، كنبوت النص القرآني
بالتواتر المفيد للقطع، وسلامة النص من التحريف والتبديل.

- البيان في مباحث من علوم القرآن للدكتور عبد الوهاب عبد المجيد غزلان:

العلامة المفسر أستاذ التفسير والحديث في كلية أصول الدين في الأزهر الشريف، بل رئيس قسم التفسير،
ولما ذكره أستاذنا الدكتور نور الدين عتر قال "فضيلة أستاذنا الدكتور العلامة الشيخ"
وكتابه: (البيان في مباحث من علوم القرآن): "كتاب دقيق فيما عرض له من مسائل، محكم العبارة"
هكذا قال عنه الدكتور فضل عباس، وذكر أنه استفاد منه في كتابه (إتقان البرهان)، ونظراً لكون الكتاب
كان مؤلفاً لطلاب كلية أصول الدين لم يكن شاملاً لكل موضوعات علوم القرآن، وجاء أسلوبه سهلاً
راعى فيه المؤلف حال الطلاب، وتحرى فيه إعطاء المعنى حقه في الشرح حتى يحقق الكتاب غرضه
المقصود، وما يتميز به الكتاب أنه بدأه بمقدمة تحدث فيها عن القرآن وعلاقته بالعقيدة ونظم الحياة
المختلفة وتحرير العقول وتوجيهها إلى ما فيه نجاحها ونجاحها.

- مقدمة تفسير (التحرير والتنوير): للطاهر بن عاشور (ت ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م)، سيتم الحديث عنه لاحقاً.

- مقدمة تفسير (التفسير الحديث): للشيخ محمد عزة دروزة (ت ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م)، سيتم الحديث عنه لاحقاً.

- مباحث في علوم القرآن: للدكتور صبحي الصالح (ت ١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م)، سيتم الحديث عنه لاحقاً.

- مباحث في علوم القرآن: للأستاذ مناع القطان (ت ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م)

- ولد عام (١٩٢٥م) في قرية شنشور بمصر، وبدأ حياته العلمية بحفظ القرآن الكريم، نال الشهادة العالمية بتفوق بكلية أصول الدين مع إجازة التدريس عام (١٩٥١م)، انتقل للتدريس في كلية الشريعة بالرياض، ثم في كلية اللغة العربية، وحين افتتح المعهد العالي للقضاء عام (١٣٨٧هـ) أصبح عضواً في مجلس المعهد ثم أميناً لسر المجلس ثم مديراً له، إلى عضوية هيئة التدريس بدرجة أستاذ، ثم مديراً للدراسات العليا بجامعة الإمام محمد بن سعود، ومن كتبه المتميزة تفسير آيات الأحكام، وكتابه: (مباحث في علوم القرآن) وهو قيم جداً، ومن أفضل الكتب المعاصرة في هذا الباب، وقد طُبع عشرات المرات، تميز بالشمول، وعدم الاستطراد، وجودة التنظيم، وحسن ترتيب المعلومات مع جمال الأسلوب وسهولة في العبارة، وقد اعتمد في كتابه هذا على النقل عن سبقة، وبخاصة الزركشي والسيوطي.

- إتقان البرهان في علوم القرآن: للدكتور فضل حسن عباس (ت ١٤٣٢هـ - ٢٠١١م): سيتم الحديث عنه لاحقاً.

- من روائع القرآن- تأملات علمية وأدبية في كتاب الله عز وجل: للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي (ت ١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م)

العلامة المفسر الأديب الأصولي الفقيه، أحد أهم أعلام النهضة في العالم الإسلامي، شخصية جمعت تحقيق العلماء وشهرة الأعلام، وفكراً موسوعياً، ناهزت كتبه خمسين مؤلفاً، ولد (١٩٢٩م) في قرية جيلكا في جزيرة بوطان، هاجر مع والده العلامة ملا رمضان البوطي إلى دمشق الشام، وتلقى العلم على علمائها ومن أبرزهم الشيخ حسن حبنكة الميداني، عُين رئيساً لقسم العقائد والأديان في كلية الشريعة بجامعة دمشق، مات شهيداً في مسجد الإيمان وهو يفسر كتاب الله تعالى عام (٢٠١٣م).

وكتابه: تأملات علمية أدبية استمدتها من كتاب الله أراد أن يعطي فكرة عن القرآن ابتداءً بتاريخه وعلومه مروراً بمنهجه وأسلوبه، وركز فيه على الجانب البلاغي للإعجاز، ليختتم كتابه بشرح أدبي لنصوص قرآنية حتى تكون مثال للدراسات التطبيقية الأدبية في القرآن الكريم، وهذا مما يميز كتابه رحمه الله في عصرٍ ضعف فيه الاهتمام بالجانب البلاغي، إضافة إلى تميزه بالرد على الشبهات التي أثارها المستشرقون وأتباعهم حول القرآن الكريم، وذلك كله بأسلوب أدبي آخاذ.

- علوم القرآن الكريم: للدكتور نور الدين عتر (ت ١٤٤٢هـ - ٢٠٢٠م):

العلامة المفسر، المحدث الحافظ الفقيه، الحسني نسبة، الحنفي مذهباً، الحلبي مولداً، نزيل دمشق، ذو السبق في علوم الحديث النبوي الشريف روايةً ودرايةً في مجالات التدريس والتحقيق والتأليف، وهو أحد أقطاب مدرسة

الشام في علوم الحديث، سليل أسرة عريقة في العلم والتقى والصلاح، ولد عام (١٣٥٦هـ)، رئيس قسم علوم القرآن والسنة في كلية الشريعة بجامعة دمشق، وأستاذ الحديث وعلومه في عدد من الجامعات والكليات، وصاحب المؤلفات القيمة في علوم الحديث والقرآن.

وكتابه: (علوم القرآن الكريم) : من أفضل ما ألف لما يتمتع به من شمولية المواضيع وسهولة العرض، مع حسن تنظيم وترتيب المعلومات، ووضوح العبارة، واقتصر في كل مبحث من مباحثه على المسائل المهمة والأقوال الرئيسة وتجنب الأقوال الضعيفة والمرجوحة، وينقل الأقوال المعتبرة ويناقشها، ويبين الراجح مع الدليل، مما جعله كتاباً أساسياً في كليات الشريعة، كما تضمن رداً على الشبهات التي أثّرت على بعض علوم القرآن الكريم.

ومنهم من ألف في علم واحد من علوم القرآن أو قضية من قضايا تأريخ القرآن، مثل:

- النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن الكريم للدكتور محمد عبد الله الدراز (ت: ١٣٧٧هـ): الأستاذ الدكتور محمد بن عبد الله دراز العالم الأزهرى الفقيه، الأديب من هيئة كبار العلماء بالأزهر، ورجل من كبار أهل العلم والفكر والإصلاح والدعوة، وُلد في قرية محلة دياى، بمحافظة كفر الشيخ سنة ١٨٩٤ م لأسرة علمية أزهرية كانت تعرف بأسرة المشايخ فوبعد حصوبه شهادة العالمية اختير مبعوثاً من الجامعة الأزهرية إلى فرنسا للالتحاق بجامعة السوربون، فحصل على الدكتوراه بمرتبة الشرف العليا في تحضير (دستور الأخلاق في القرآن) باللغة الفرنسية ثم ترجم، كان جريئاً قائماً بالحق، فعندما عُرض عليه منصب شيخ الأزهر سنة ١٩٥٣م، رفض بسبب القيود التي تضمنها العرض.

وكتابه (النبأ العظيم) يعد بحق من أفضل ما كتب في الدراسات القرآنية وبيان جانب من جوانب إعجاز هذا الكتاب الخالد، يقول رحمه الله مبيناً هدفه من تأليف الكتاب: "أن أنعت كتاب الله بحليته وخصائصه، وأن أرفع النقاب عن جانب من الحقائق المتصلة به، وأن أرسم الخطة التي ينبغى سلوكها في دراسته"

- المعجزة الكبرى للشيخ محمد أبو زهرة سيتم بحثه لاحقاً
- "التفسير والمفسرون" للدكتور محمد السيد حسين الذهبي (١٣٩٧ هـ - ١٩٧٧ م) سيتم بحثه لاحقاً
- "النسخ في القرآن الكريم" دراسة تشريعية تاريخية نقدية للدكتور مصطفى زيد (1425 هـ 2004 م) سيتم بحثه لاحقاً

وكان للمستشرقين دور في الدراسات الحديثة عن القرآن وعلومه، لكن أكثر تلك الدراسات كانت تنطلق من نظرة يشوبها التعصب^١، وأشهر ما كتبه كتاب «تاريخ القرآن» للمستشرق الألماني تيودور نولدكه ١٩٣٠م، الذي صدرت طبعته الأولى سنة ١٨٦٠ م، والذي قال عنه المستشرق آرثر جفري: «وهو الآن أساس كل بحث في علوم القرآن في أوروبا»، وكتاب «مذاهب التفسير الإسلامي» للمستشرق المجري الأصل جولد تسهير (ت ١٩٢٠ م)، وكتاب «القرآن: نزوله، تدوينه، ترجمته وتأثيره» للمستشرق الفرنسي ريجيس بلاشير ١٩٥٧.

المبحث الثاني: موارد علوم القرآن من مقدمات التفاسير في العصر الحديث ، ويتضمن :

المطلب الأول: مقدمة تفسير: "محاسن التأويل في تفسير القرآن الكريم" للشيخ جمال الدين

القاسمي ١٣٣٢هـ - ١٩١٤م



أولاً: التعريف بالشيخ جمال الدين القاسمي: جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم القاسمي، "إمام الشام في عصره، علماً بالدين، وتضلعا من فنون الأدب"^٢، ولد في دمشق، ونشأ في بيت عُرف بالعلم والتقوى أثر كبير في توجيهه الوجهة التي تولاهما، واختاره الله لها، فقد كان جده الشيخ قاسم فقيه الشام وصالحها، وكان أبوه فقيها أديبا، واشتغل بإلقاء الدروس العامة في المدن والقرى السورية

لمدة أربع سنوات (١٣٠٨ - ١٣١٢ هـ)، ثم رحل إلى مصر، وزار المدينة المنورة، ولما عاد شنع عليه خصومه بأنه يذهب في الدين مذهبا جديداً سموه "المذهب الجمالي"، فقبض عليه (سنة ١٣١٣ هـ) وحقق معه، فرد التهمة، فأخلي سبيله، واعتذر إليه والي دمشق، فعكف في بيته على التصنيف وإلقاء الدروس الخاصة والعامة، في التفسير والعقيدة والحديث والأخلاق والتاريخ والأدب وغير ذلك من علوم الشريعة الإسلامية، ورغم ما أصابه "كان عف

^١ ينظر: مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية ص ٥٦.

^٢ الأعلام للزركلي

اللسان والقلم، لم يتعرض بالأذى لأحدٍ من خصومه، سواء أكان ذلك في دروسه الخاصة أو العامة، أو في مجالسه وندواته، وكانت له طريقته في مناقشة خصومه، لم يعرف أهدأ منها، ولا أجمل من صبره" ^١، وقد أثنى العلماء عليه، من ذلك ما قاله الشيخ رشيد رضا: "هو علامة الشام، ونادرة الأيام، والمجدد لعلوم الإسلام، محيي السنة بالعلم والعمل، والتعليم والتهديب والتأليف، وأحد حلقات الاتصال بين هدي السلف، والارتقاء المدني الذي يقتضيه الزمن، الفقيه الأصولي، المفسر المحدث، الأديب المتفنن، التقى الأبواب، الحليم الأواه، العفيف النزيه، صاحب التصانيف الممتعة، والأبحاث المقتنعة" ^٢. وقد جاوزت مؤلفاته المئة ما بين مخطوط ومطبوع، ومن أشهرها كتابه "محاسن التأويل في تفسير القرآن الكريم" الذي وصفه الدكتور فضل عباس بقوله: "وكتابه دائرة معارف" وأنه: "حافلٌ بعظيم الفوائد، وكل قارئٍ ربما يجد فيه بغيته، وجزى الله الرجل خيراً، فلقد وصلنا بأمانة علمية بما كتبنا لعلماء الأعلام"، وقد بين القاسمي في مقدمته ملامح منهجه فقال: "أودعه ما صفا من التحقيقات، وأوشحه بمباحث هي المهمات. وأوضح فيه خزائن الأسرار، وأنقد فيه نتائج الأفكار، وأسوق إليه فوائد التقطتها من تفاسير السلف الغابر وفرائد عثرت عليها في غصون الدفاتر وزوائد استنبطتها بفكري القاصر مما قادني الدليل إليه وقوي اعتمادي عليه... ولم أطل ذيول الأبحاث بغرائب التدقيقات، بل اخترت حسن الإيجاز في حل المشكلات، اللهم إلا إذا قابلت فرسان مضمار الحق جولة الباطلات، فهنالك تصوّب أسنة البراهين نحو نحر الشبهات"

ثانياً- التعريف بمقدمة "محاسن التأويل في تفسير القرآن الكريم":

استفتح القاسمي تفسيره بمقدمة في علوم القرآن، تحدث فيها عن مكانة العلم وشرف علم التفسير، وأهمية كتاب الله، وقصور البشر عن الوقوف على كل معاني وأسرار الكتاب العزيز، واسم تفسيره وأهميته والأسباب الداعية إليه، وملامح منهجه فيه.

ثم ذكر تمهيداً اختار له اسماً يبرز هدفه وأهميته، وهو (تمهيد خطير في قواعد التفسير) اشتمل على إحدى عشرة قاعدة من قواعد التفسير، ثم بيّن هدفها وأهميتها بكلام موجز جميل، فقال: "هذا وقد حليت طليعته بتمهيدٍ خطير، في مصطلح التفسير، وهي قواعد فائقة، وفوائد شائقة، جعلتها مفتاحاً لمغلق بابيه، ومسلكاً لتسهيل خوض عبابه، تعين المفسر على حقائقه، وتطلعه على بعض أسرار ودقائقه" إذن أهميتها في أنها مقدمة ضرورية لتفسير

^١ "جمال الدين القاسمي وعصره"، للأستاذ ظافر القاسمي.

^٢ مجلة المنار

كتاب الله تعالى، ومفتاح يلج به المفسر باب النص القرآني، وبغيره تنحرف الأفهام وتنتثر العقول فتخرج عن مرادات الله ومطلوباته وهديه، **وهدفها هو:** مساعدة المفسر على تفسير كلام الله والوقوف على حقائق القرآن وأسراره ودقائقه.

ثم شرع في شرح هذه القواعد فيما يزيد عن مئتي صفحة وفق الترتيب الآتي:

في أمهات مآخذه- ٢ - قاعدة في معرفة صحيح التفسير، وأصح التفاسير عند الاختلاف - ٣ - قاعدة في أن غالب ما صحَّح عن السلف من الخلاف يرجع إلى اختلاف تنوع، لا اختلاف تضاد - ٤ - قاعدة في معرفة النزول - ٥ - قاعدة في الناسخ والمنسوخ - ٦ - قاعدة في القراءة الشاذة والمدرج - ٧ - قاعدة في قصص الأنبياء والاستشهاد بالإسرائيليات - ٨ - قاعدة في أن كل معنى مستنبط من القرآن غير جار على اللسان العربي فليس من علوم القرآن في شيء - ٩ - قاعدة في أن الشريعة أمية، وأنه لا بد في فهمها من اتباع معهود الأميين، وهم العرب الذين نزل القرآن بلسانهم - ١٠ - قاعدة الترغيب والترهيب في التنزيل الكريم - ١١ - قاعدة في أنه هل في القرآن مجاز أم لا؟

ثالثاً: نماذج تطبيقية تتعلق بـ (قاعدة في معرفة النزول) :

١ - نماذج من تأصيله في مقدمته : ذكر القاسمي فوائد معرفة سبب النزول: (فهم المعنى المراد، وإزالة الإشكال الذي قد يسببه ظاهر الآيات، وتعيين المبهم، ورفع توهم الحصر)، وانها لازمة لمن أراد علم القرآن، فقال: " وقال المحقق أبو إسحاق الشاطبي في الموافقات: معرفة أسباب التنزيل لازمة لمن أراد علم القرآن. والدليل على ذلك أمران: أحدهما: أن علم المعاني والبيان الذي يعرف به إعجاز نظم القرآن، فضلاً عن معرفة مقاصد كلام العرب، إنما مداره على معرفة مقتضيات الأحوال حال الخطاب من جهة نفس الخطاب أو المخاطب أو المخاطب أو الجميع. إذ الكلام الواحد يختلف فهمه بحسب حالين، وبحسب مخاطبين، وبحسب غير ذلك. كالاستفهام لفظه واحد، ويدخله معانٍ أخرى، من تقرير وتوبيخ وغير ذلك. وكالأمر يدخله معنى الإباحة والتهديد والتعجيز وأشباهها. ولا يدل على معناها المراد إلا الأمور الخارجة، وعمدتها مقتضيات الأحوال. وليس كل حال ينقل، ولا كل قرينة تقتزن بنفس الكلام المنقول. وإذا فات نقل بعض القرائن الدالة، فات فهم الكلام جملة، أو فهم شيء منه. ومعرفة الأسباب رافعة لكل مشكل في هذا النمط، فهي من المهمات في فهم الكتاب بلا بد. ومعنى معرفة السبب هو معنى معرفة مقتضى الحال. وينشأ عن هذا الوجه.

الوجه الثاني: وهو أن الجهل بأسباب التنزيل **موقع في الشبه والإشكالات**، مورد للنصوص الظاهرة مورد الإجمال، حتى يقع الاختلاف، وذلك مظنة وقوع النزاع. ويوضح هذا المعنى ما روى أبو عبيد عن إبراهيم التيمي، قال: خلا عمر ذات يوم، فجعل يحدث نفسه: كيف تختلف هذه الأمة ونبينا واحداً؟! فأرسل إلى ابن عباس فقال: كيف تختلف هذه الأمة ونبينا واحداً، وقبلتها واحدة؟! فقال ابن عباس: يا أمير المؤمنين! إننا أنزل القرآن علينا فقرأناه، وعلمنا فيم نزل. وإنه سيكون بعدنا أقوام يقرءون القرآن ولا يدرون فيم نزل، فيكون لهم فيه رأي، فإذا كان لهم فيه رأي اختلفوا، اختلفوا. قال فزجره عمر وانتهره! فانصرف ابن عباس. ونظر عمر فيما قال، ففرغه، فأرسل إليه فقال: أعد علي ما قلت. فأعاده عليه، فعرف عمر قوله وأعجبه. وما قاله صحيح في الاعتبار، ويتبين بما هو أقرب. فقد روى ابن وهب عن بكير أنه سأل نافعاً: كيف كان رأي ابن عمر في الحرورية؟ قال: يراهم شرار خلق الله، إنهم انطلقوا إلى آيات أنزلت في الكفار، فجعلوها على المؤمنين. فهذا معنى الرأي الذي نبه ابن عباس عليه، وهو الناشئ عن الجهل بالمعنى الذي نزل فيه القرآن.^١

ولكنه ركّز على التحقيق في صيغة النزول التي ترد عن الصحابة والتابعين، وهي: (نزلت الآية في كذا) وأنها صيغة محتملة **قد يراد بها سبب نزول** ومن ذلك أن يُسمى الراوي بعدها شخصاً أو قوماً أو حادثة وقعت لمن لقي النبي صلى الله عليه وسلم قال: "قد يجيء كثير من هذا الباب قولهم: هذه الآية نزلت في كذا، لا سيما إن كان المذكور شخصاً، كقولهم، إن آية الظهار، نزلت في امرأة ثابت ابن قيس وإن آية الكلاله نزلت في جابر بن عبد الله، وإن قوله: وَأَنْ احْكُم بَيْنَهُم [المائدة: ٤٩] نزلت في بني قريظة والنضير، ونظائر ذلك مما يذكرون أنه نزل في قوم من المشركين بمكة أو في قوم من اليهود والنصارى، أو في قوم من المؤمنين، فالذين قالوا ذلك لم يقصدوا أنّ حكم الآية يختص بأولئك الأعيان دون غيرهم، فإن هذا لا يقوله مسلم ولا عاقل على الإطلاق، والناس وإن تنازعوا في اللفظ العام الوارد على سبب هل يختص بسببه، فلم يقل أحد إن عموميات الكتاب والسنة تختص بالشخص المعين، وإنما غاية ما يقال إنها تختص بنوع ذلك الشخص، فتعم ما يشبهه"^٢

وقد لا يراد بها سبب نزول، أي أنّ ذلك داخل في الآية، وإن لم يكن السبب، كما نقول عن هذه الآية كذا، ونقل في ذلك قول ولي الله الدهلوي إذ قال: "قال ولي الدين الدهلوي في الفوز الكبير: ومن المواضع الصعبة معرفة أسباب النزول، ووجه الصعوبة فيها خلاف المتقدمين والمتأخرين، والذي يظهر من استقراء كلام الصحابة

١ محاسن التأويل: ٢٣/١

٢ محاسن التأويل: ٢١/١ نلاحظ من خلال ذلك أنه يبين قاعدة من قواعده وهي (أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب).

والتابعين، أنهم لا يستعملون «نزلت في كذا» لمحض قصة كانت في زمنه صلى الله عليه وسلم، وهي سبب نزول الآية، بل ربما يذكرون بعض ما صدقت عليه الآية مما كان في زمنه صلى الله عليه وسلم، أو بعده صلى الله عليه وسلم. ويقولون: «نزلت في كذا» ولا يلزم هناك انطباق جميع القيود، بل يكفي انطباق أصل الحكم فقط، وقد يقررون حادثة تحققت في تلك الأيام المباركة، واستنبط صلى الله عليه وسلم حكمها من آية، وتلاها في ذلك الباب، ويقولون: «نزلت في كذا» وربما يقولون: في هذه الصورة، فأنزل الله قوله كذا، فكأنه إشارة إلى أنه استنبطه صلى الله عليه وسلم، وإلّاؤها في تلك الساعة بخاطره المبارك أيضا، نوع من الوحي والنفث في الروح. فلذلك يمكن أن يقال: فأنزلت، ويمكن أن يعبر في هذه الصورة بتكرار النزول، ويذكر المحدثون في ذيل آيات القرآن كثيرا من الأشياء ليست من قسم سبب النزول في الحقيقة. مثل استشهاد الصحابة في مناظراتهم بآية، أو تمثيلهم بآية، أو تلاوته صلى الله عليه وسلم آية للاستشهاد في كلامه الشريف، أو رواية حديث وافق الآية في أصل الغرض، أو تعيين موضع النزول، أو تعيين أسماء المذكورين بطريق الإبهام، أو بطريق التلفظ بكلمة قرآنية، أو فضل سور وآيات من القرآن، أو صورة امتثاله صلى الله عليه وسلم بأمر من أوامر القرآن ونحو ذلك. وليس شيء من هذا في الحقيقة من أسباب النزول... وليعلم أنّ الصحابة والتابعين ربما كانوا يذكرون قصصا جزئية لمذاهب المشركين واليهود وعاداتهم من الجهالات لتتضح تلك العقائد والعادات، ويقولون: نزلت الآية في كذا، ويريدون بذلك أنها نزلت في هذا القبيل، سواء كان هذا وما أشبهه، أو ما قاربه. ويقصدون إظهار تلك الصورة، لا بخصوصها، بل لأجل أن التصوير صالح لتلك الأمور الكلية. ولهذا تختلف أقوالهم في كثير من المواضع، وكلّ يجزّ الكلام إلى جانب. وفي الحقيقة، المطالب متحدة، وإلى هذه النكتة أشار أبو الدرداء حيث قال: لا يكون أحد فقيها حتى يحمل الآية على محامل متعددة. انتهى".

ثم يختم هذه القاعدة بقوله "... وقد تحقق عند الفقير أنّ الصحابة والتابعين كثيرا ما كانوا يقولون: نزلت الآية في كذا وكذا، وكان غرضهم تصوير ما صدقت عليه الآية، وذكر بعض الحوادث التي تشملها الآية بعمومها، سواء تقدمت القصة أو تأخرت، إسرائيليّا كان ذلك أو جاهليّا أو إسلاميّا، استوعبت جميع قيود الآية أو بعضها والله أعلم... فعلم من هذا التحقيق أن للاجتهاد في هذا القسم مدخلا، وللقصص المتعددة هنالك سعة. فمن استحضر هذه النكتة يتمكن من حل ما اختلف من سبب النزول بأدنى عناية، انتهى كلامه".

٢- نماذج لمنهجه التطبيقي في تفسيره :

- نموذج لإبراده روايات أسباب واعتماده عليها في تفسير الآية وفق كل رواية:

تفسير قوله تعالى: (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَنْ يَسْطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ) [المائدة: ١١] إذ ذكر روایتين ؛ الأولى: «أن رجلا من محارب يقال له غورث بن الحارث قال لقومه: أقتل لكم محمدا. فأقبل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو جالس وسيفه في حجره فقال: يا محمد! أنظر إلى سيفك هذا؟ قال: نعم. فأخذه فاستله وجعل يهزه ويهم به فيكبته الله تعالى. فقال يا محمد! أما تخافني؟ قال: لا. قال: أما تخافني والسيف في يدي؟ قال: لا. يمنعني الله منك. ثم غمد السيف ورده إلى رسول الله». . فأنزل الله الآية، والثانية: ما أخرجه الطبري: "عن عكرمة ويزيد بن أبي زيادة واللفظ له: أن النبي صلى الله عليه وسلم خرج ومعه أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة وعبد الرحمن بن عوف حتى دخلوا على كعب بن الأشرف ويهود بني النضير، يستعينهم في عقل أصابه. فقالوا: نعم، اجلس حتى نطعمك أو نعطيك الذي تسألنا، فجلس، فقال حيي بن أخطب لأصحابه: لا ترونه أقرب منه الآن. اطرحوا عليه حجارة فاقتلوه. ولا ترون شرا أبدا، فجاءوا إلى رحي عظيمة ليطرحوها عليه، فأمسك الله عنها أيديهم. حتى جاء جبريل فأقامه من ثمت. فأنزل الله الآية. وروى نحوه ابن أبي حاتم. قال ابن كثير: ثم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يغدو إليهم، فحاصرهم حتى أنزلهم فأجلاهم انتهى.... وعلى هذه الروايات، فالمراد من قوله تعالى اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ تذكير نعمة الله عليهم بدفع الشر والمكروه عن نبيهم، فإنه لو حصل ذلك لكان من أعظم الخن"١

• نموذج لرد تعارض الروايات بنفي السببية عن الرواية من خلال تحقيقه في صيغة النزول :

عند تفسيره لقوله تعالى (وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) [الأعراف: ٢٠٤]؛ إذ ذكر ثلاثة أقوال متعارضة في سبب نزولها وبين أنها بالتحقيق ليس أسباباً للنزول وإنما تدخل في عموم الآية ويصدق عليها حكمها ، فقال: "روي عن كثير من السلف أن الآية نزلت في الصلاة. وفيها وفي الخطبة يوم الجمعة. وعن بعضهم: فيها وفي خطبة الأضحى والفطر، وقد قدمنا في مقدمة الكتاب مصطلح السلف في قولهم (نزلت هذه الآية في كذا) وبينا أنه قد يراد بذلك، أن الآية تشمل ذلك الشيء لدخوله في عمومها، لا أنه سبب لنزولها، وذلك في بعض المقامات، وما هنا منه. وبتحقيق هذا يسقط ما للرازي هنا من أنه إذا قيل بنزولها في منع المأموم

من الجهر بالقراءة، يذهب تناسب الآية مع ما قبلها من إفحام المشركين، بأن يستمعوا لقراءته، ليقفوا على إعجازه. وما للخازن، بأن الآية مكية، وخطبة الجمعة والعيدين شرعنا بالمدينة- فافهمه^١.

• نموذج للجمع بين الروايات المتعارضة بتعدد السبب والنازل وحده : عند تفسيره لقوله تعالى : (لَا تَحْسَبَنَّ

الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُجِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) [آل عمران: ١٨٨]؛ إذ ذكر روايتين متعارضتين في سبب نزولها ؛ الأولى: كتمان أهل الكتاب شيئا سألهم عنه رسول الله والثانية تخلف المنافقين عن الغزو مع رسول الله ، فجمع بينهما بتعدد السبب والنازل واحد روى الإمام أحمد عن حميد بن عبد الرحمن بن عوف، أن مروان قال : اذهب يا رافع إلى ابن عباس فقل: لئن كان كل امرئ منا فرح بما أوتي، وأحب أن يحمد بما لم يفعل، لنعذبن أجمعون، فقال ابن عباس ما لكم وهذه، إنما نزلت هذه في أهل الكتاب، ثم تلا ابن عباس: (وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ - إلى قوله: وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)، وقال ابن عباس: سألهم النبي صلى الله عليه وسلم عن شيء فكتموه إياه وأخبروه بغيره، فخرجوا قد أروه أن قد أخبروه بما سألهم عنه واستحمدوا بذلك إليه وفرحوا بما أتوا من كتمانهم إياه ما سألهم عنه. وهكذا رواه البخاري في التفسير، ومسلم والترمذي والنسائي في تفسيريهما، وابن أبي حاتم وابن خزيمة والحاكم في مستدركه، وابن مردويه بنحوه. ورواه البخاري أيضا عن علقمة بن وقاص، أن مروان قال لبوابه: اذهب يا رافع إلى ابن عباس - فذكره، وروى البخاري عن أبي سعيد الخدري أن رجلا من المنافقين كانوا إذا خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الغزو وتحلفوا عنه، وفرحوا بمقعدهم خلاف رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإذا قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم من الغزو اعتذروا إليه وحلفوا وأحبوا أن يحمدوا بما لم يفعلوا، فنزلت (لَا تَحْسَبَنَّ ... الآية) - وكذا رواه مسلم بنحوه، ولا منافاة بين الروايتين لأن الآية عامة في جميع ما ذكر، ومعنى نزول الآية في ذلك وقوعها بعد ذلك، لا أن أحد الأمرين كان سببا لنزولها. كما حققناه غير مرة^٢.

• نموذج لترجيحه أحد الروايات المتعارضة لاتفاقها مع سياق الآيات في السورة: وذلك عند تفسيره لقوله

تعالى : (وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ

١ محاسن التأويل : ٢٤٦/٥ - ٢٤٧

٢ محاسن التأويل : ٤٧٨/٢

وَرَسُولُهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا) [الأحزاب: ٣٦]؛ إذا أورد ثلاث روايات متعارضة ثم رجح أحدها وفق ما سبق، وإليك نص كلامه: " وقد ذكر أن هذه الآية نزلت في زينب بنت جحش، حين خطبها رسول الله صلى الله عليه وسلم لزيد بن حارثة. فأبت لكونه مولى لا يماثلها في الشرف. فنزلت الآية فرضيت وتزوجها.... وذكر أيضا أنها نزلت في أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط. وكانت أول من هاجر من النساء - بعد صلح الحديبية - فوهبت نفسها للنبي صلى الله عليه وسلم، فزوجها زيدا - أي بعد فراقه زينب - فسخطت، فنزلت الآية، فرضيت. وروى الإمام أحمد عن أنس قال: خطب النبي صلى الله عليه وسلم على جليبيب رضي الله عنه، امرأة من الأنصار إلى أبيها، فقال: حتى أستأمر أمها. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: نعم إذا. قال: فانطلق الرجل إلى امرأته، فذكر ذلك لها، فأبت أشد الإباء. فقالت الجارية: أتريدون أن تردوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم أمره؟ إن كان قد رضيكم لكم، فأنكحوه. قال: فكأنها جلست عن أبيها وقالت: صدقت، فذهب أبوها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: إن كنت رضيته فقد رضيناه. قال صلى الله عليه وسلم: فإني قد رضيته. قال: فزوجها. ثم ذهب مع النبي صلى الله عليه وسلم في غزاة، فقتل، ورؤي حوله ناس من المشركين قد قتلهم. قال أنس: فلقد رأيتها وإنها لمن أنفق بيت في المدينة (وفي رواية: فما كان في الأنصار أيم أنفق منها. وذكر الحافظ ابن عبد البر في الاستيعاب) أن الجارية لما قالت في خدرها: أتردّون على رسول الله صلى الله عليه وسلم أمره، نزلت هذه الآية وما كان لمؤمن ولا مؤمنة، ولا يخفى شمول الآية لما ذكر ولغيره، إلا أن تأثر هذه الآية بقصة زيد وزوجه، الآتية، يؤيد أنها نزلت في زوجه زينب، لتناسق نظام الآيات حينئذ وظهور هذه الآية كالطليعة لهذه القصة الجليلة، وقد قدمنا مرارا أن معنى قولهم (نزلت الآية في كذا) أنها مما تشمله لعموم مساقها. ولذا سأل طاوس ابن عباس عن ركعتين بعد العصر فنهاه. وقرأ له هذه الآية. ^١ .

^١ محاسن التأويل: ٧٧/٨

المطلب الثاني: مقدمة تفسير: "التحرير والتنوير" للشيخ الطاهر ابن عاشور

(ت ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م).



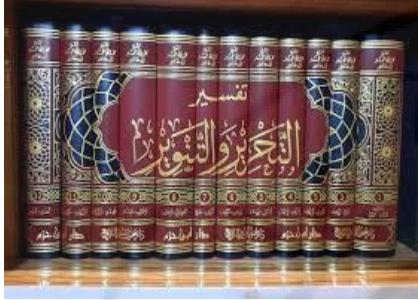
أولاً: التعريف بالشيخ الطاهر ابن عاشور وبتفسيره:

العلامة المفسر المجدد محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور، ولد في تونس سنة (١٢٩٦) هـ، الموافق (١٨٧٩) م من أسرة علمية عريقة، تمتد أصولها إلى بلاد الأندلس في عصر يُموج بالدعوات الإصلاحية والتي كان صداها مدوياً في تونس، حتى قال الشيخ محمد عبده: "إن مسلمي الزيتونة سبقونا إلى إصلاح التعليم، حتى كان ما يجرون عليه في جامع الزيتونة خيراً مما عليه أهل الأزهر".

برز محمد الطاهر في عددٍ من العلوم ونَبَغَ فيها، كعلم الشريعة واللغة والأدب، وكان متقناً للغة الفرنسية، أصبح عضواً مراسلاً في مجمع اللغة العربية في دمشق والقاهرة، وتولى مناصب علمية وإدارية بارزة كالقضاء، والإفتاء، ومشيخة الجامع الزيتونة، وقد أحدثت آراؤه نهضةً في علوم الشريعة والتفسير والتربية والتعليم والإصلاح، وكان لها أثرها البالغ في استمرار "الزيتونة" في العطاء والريادة.

وصفه العلامة الشيخ محمد البشير الإبراهيمي قائلاً: "عَلَّمَ من الأعلام الذين يعدّهم التاريخ الحاضر من ذخائره، فهو إمامٌ متبحّر في العلوم الإسلامية، مستقلٌّ في الاستدلال، واسعُ الثراء من كنوزها، فسيحُ الذرع بتحملها، نافذُ البصيرة في معقولاتها، وافِرُ الاطلاع على المنقول منها، أَفْرَأُ، وأفاد، وتخرّجت عليه طبقات ممتازة في التحقيق العلمي". وقد أكرمه الله بقدرة لا تفتقر عن التدوين والنشر، وملكات نقدية يتضح أثرها في طريقة الجمع بين الأصول والتفريعات، وقد كثرت مؤلفاته وتنوعت؛ فخلّف أربعين كتاباً تأليفاً وتحقيقاً في التفسير، والحديث، والأصول، واللغة، وغيرها من العلوم، ومن أشهرها تفسيره "التحرير والتنوير"، واسمه الكامل: "تحرير المعنى السديد، وتنوير العقل الجديد، في تفسير الكتاب المجيد"، وقد اشتمل على كثير من الفوائد واللطائف والتحريات، وقد بين منهجه فيه في مقدمته فقال: "وَقَدْ اهْتَمَمْتُ فِي تَفْسِيرِي هَذَا بَيَانِ وُجُوهِ الإعجاز، وَنُكْتِ الْبَلَاغَةِ الْعَرَبِيَّةِ، وَأَسَالِبِ الْإِسْتِعْمَالِ، وَاهْتَمَمْتُ أَيْضاً بَيَانِ تَنَاسُبِ اتِّصَالِ الْأَيِّ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ ... وَلَمْ أَغَادِرْ سُورَةً إِلَّا بَيَّنْتُ مَا أُحِيطُ بِهِ مِنْ أَغْرَاضِهَا؛ لِأَنَّ الْيَكُونَ النَّاطِرَ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ مَقْصُورًا عَلَى بَيَانِ مُفْرَدَاتِهِ وَمَعَانِي جُمْلَةٍ كَأَنَّهَا فَقَرَّ مُتَفَرِّقَةً تَصْرِفُهُ عَنْ رُوعَةِ انْسِجَامِهِ وَتَحْجُبُ عَنْهُ رَوَائِعَ جَمَالِهِ، وَاهْتَمَمْتُ بِتَبْيِينِ مَعَانِي

المُفْرَدَاتِ فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ ، بِضَبِّ وَتَحْقِيقٍ مِمَّا حُلَّتْ عَنْ ضَبِّ كَثِيرٍ مِنْهُ قَوَامِيْسُ اللُّغَةِ". ومما يدل على أهمية هذا التفسير والجهد المبذول فيه أن نعلم أنّ مدة تأليفه تسعٌ وثلاثون سنة وستة أشهر؛ حيث ابتدأ تفسيره سنة (١٣٤١هـ) وفرغ منه سنة (١٣٨٠هـ)، وقد بلغ ٣٠ جزءاً في خمسة عشر مجلداً.



توفي في تونس سنة (١٣٩٤) هـ ، الموافق (١٩٧٣) م، عن عمر يناهز الـ (٩٨) عاماً.

ثانياً: التعريف بمقدمة تفسير التحرير والتنوير :

استفتح الشيخ تفسيره بعشر مقدمات، اهتم فيها بإبراز مسائل من علوم القرآن الكريم، جعلها تبياناً لمنهج في التفسير، إضافة لما تحويه من فوائد وآراء حافلة؛ إذ قال: "وها أنا أبتدئ بتقديم مقدمات تكن عوناً للباحث في التفسير، وتغنيه عن معاد كثير"، وهي :

المقدمة الأولى في التفسير والتأويل وكون التفسير علماً.

المقدمة الثانية في استمداد علم التفسير من علوم أخرى، يكون بدونها ضرباً من المجازفة والعبث وربما التنطع والافتئات، وعلى رأسها العربية، والمراد منها معرفة لسان العرب ومعهودهم في التخاطب "فإن الشريعة عربية ولن يستكمل المرء خلال الاستقلال بالنظر في الشرع ما لم يكن رتياناً من النحو واللغة"، وركز كذلك على علمي البيان والمعاني فقال: "ولعلمي البيان والمعاني مزيدٌ اختصاصٍ بعلم التفسير، لأتقنهما وسيلةً لإظهار خصائص البلاغة القرآنية، وما تشتمل عليه الآيات من تفاصيل المعاني وإظهار وجه الإعجاز، ولذلك كان هذان العلمان يُسميان في القديم (علم دلائل الإعجاز)" ثم يذكر بقية العلوم وهي علم الآثار، وأخبار العرب، وأصول الفقه وعلم الكلام وعلم القراءات.

المقدمة الثالثة في صحة التفسير بغير المأثور ومعنى التفسير بالرأي ونحوه، وقد أكد فيها على:

- عدم الاقتصار على التفسير بالمأثور وعلى صحة التفسير بالرأي المحمود؛ إذ نافع عن التفسير بالرأي رادا على المنكرين له بقوله: "أما الذين جمدوا على القول بأنّ تفسير القرآن يجب أن لا يعدوا ما هو مأثورٌ، فهم رَمَوْا هذه

١ التحرير والتنوير:

الكلمة على عواهنها ولم يضبطوا مرادهم من المأثور عمن يؤثر، فإن أرادوا به ما روي عن النبي من تفسير بعض آيات إن كان مروياً بسند مقبول من صحيح أو حسن، فإذا التزموا هذا الظن بهم فقد ضيقوا سعة معاني القرآن وبنابيع ما يستنبط من علومه، وناقضوا أنفسهم فيما دونوه من التفاسير، وغلطوا سلفهم فيما تأولوه، إذ لا ملجأ لهم من الاعتراف بأن أئمة المسلمين من الصحابة فمن بعدهم لم يقصروا أنفسهم على أن يرووا ما بلغهم من تفسير عن النبي صلى الله عليه وسلم".^١

- مراعاة التكامل بين ظاهر النص وباطنه، "وشرطه أن لا يخرج عما يصلح له اللفظ العربية، ولا يبعد عن الظاهر إلا بدليل، ولا يكون تكلفاً بيّناً ولا خروجاً عن المعنى الأصلي حتى لا يكون في ذلك كتفاسير الباطنية"^٢

المقدمة الرابعة فيما يحق أن يكون غرض المفسر: أكد فيها على أنّ معرفة مقاصد القرآن شرطاً على المجتهد في فهم واستنطاق النص القرآني واستكناه أحكامه وحكمه، وأنه يجب على المفسر أن يبرزها في تفسيره، وأنه بما تستبين غاية المفسرين من التفسير على اختلاف طرائقهم، وبما يُعلم عند مطالعة التفاسير مقادير اتصال ما تشتمل عليه بالغاية التي يرمي إليها المفسر، ويكون ذلك ميزاناً لمعرفة مقدار ما أوفى به من المقصد ومقدار ما تجاوزه، ثم ذكر المقاصد الثمانية التي جاء القرآن لتحقيقها وهي: (إصلاح الاعتقاد - تهذيب الأخلاق - التشريع - سياسة الأمة - القصص - التعليم بما يناسب حال المخاطبين - المواعظ والإنذار والتبشير - الإعجاز بالقرآن)

المقدمة الخامسة في أسباب النزول: وقد عاب فيها على أساطين المفسرين بإثبات روايات ضعيفة في كتبهم دون التنبيه على مراتبها قوة وضعفاً، حتى أوهموا أنّ القرآن لا ينزل إلا لأجل حوادث، ولذلك لم يكتف بمجرد سرد أسباب النزول كـ بعض المفسرين عند التعارض، بل وإنما كانت له نظرة تحليلية نقدية في التعامل معها عند التعارض، جمعاً أو ترجيحاً، أسهمت في تجلية أسباب النزول الحقيقية للآيات.

المقدمة السادسة في القراءات: إذ ذكر جملاً تتعلق بعلم القراءات، الغرض منها معرفة مقدار تعلق اختلاف القراءات بالتفسير؛ إذ إنّ هناك قراءات لا تعلق لها بالتفسير وأخرى لها تعلق به من جهات متفاوتة، ومعرفة مراتب القراءات قوة وضعفاً، جاعلاً ذلك مبرراً للإعراض عن كثير من القراءات في أثناء التفسير.

١ التحرير والتنوير:

٢ التحرير والتنوير:

المقدمة السابعة في قصص القرآن: بين أنه ليس من غرض القرآن في ذكر القصص هو التفكه، بل إنه أسمى من ذلك وأجل، ثم ذكر عشر فوائد للقصص القرآنية وفوائد تكرارها.

المقدمة الثامنة في رسم القرآن وآياته وسوره وترتيبها وأسمائها، وعدد الآي ووقوف القرآن، وركز فيها على علم التناسب في القرآن.

المقدمة التاسعة في أن المعاني التي تتحملها جمل القرآن تعتبر مُراداً بها، وإن كثرت "فالقرآن من جانب إعجازه يكون أكثر معانٍ من المعاني المعتادة التي يودعها البلغاء في كلامهم، وهو لكونه كتاب تشريع وتأديب وتعليم كان حقيقاً بأن يُودع فيه من المعاني والمقاصد أكثر ما تحتمله الألفاظ، في أقل ما يمكن من المقدار"

المقدمة العاشرة: في إعجاز القرآن، ووجوه الإعجاز، وأقوال العلماء فيه ومبتكرات القرآن، وعاداته، وإليك نماذج تطبيقية تتعلق بهذه المقدمة.

ثالثاً- نماذج تطبيقية تتعلق بـ (مبتكرات القرآن وعادات القرآن) :

١- مبتكرات القرآن:

يقول ابن عاشور: "وللقرآن مبتكراتٌ تميز بها نظمُه عن بقية كلام العرب؛ فمنها أنه جاء على أسلوب يخالف الشعر لا محالة، وقد تَبَّه عليه العلماء المتقدمون، وأنا أضُم إلى ذلك أن أسلوبه يخالف أسلوب الخطابة بعض المخالفة، بل جاء بطريقة كتاب يقصد حفظه وتلاوته، وذلك من وجوه إعجازه إذ كان نظمُه على طريقة مبتكرة ليس فيها اتباع لطرائقها القديمة في الكلام، وأعد من ذلك:

- أنه جاء بالجمل الدالّة على معان مفيدة محررة، شأن الجمل العلمية والقواعد التشريعية، فلم يأت بعمومات شأنها التخصيص غير مخصوصة، ولا بمطلقات تستحق التقييد غير مقيدة، كما كان يفعل العرب لقلة اكتراثهم بالأحوال القليلة والأفراد النادرة، مثاله قوله تعالى: (لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون) [النساء: ٩٥] وقوله: (ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله) [القصص: 50] فبين أنّ الهوى قد يكون محموداً إذا كان هوى المرء عن هدى..

- ومنها أن جاء على أسلوب التقسيم والتسوير وهي سنة جديدة في الكلام العربي أدخل بها عليه طريقة التبويب والتصنيف وقد أوماً إليها في «الكشاف» إيماءً.

- ومنها الأسلوب القصصي في حكاية أحوال النعيم والعذاب في الآخرة، وفي تمثيل الأحوال، وقد كان لذلك تأثيرٌ عظيمٌ على نفوس العرب إذ كان فن القصص مفقوداً من أدب العربية إلا نادراً، كان في بعض الشعر كآيات النابغة في الحية التي قتلت الرجل وعاهدت أخاه وغدر بها، فلما جاء القرآن بالأوصاف بهت به العرب كما في سورة الأعراف [٤٤] من وصف أهل الجنة وأهل النار وأهل الأعراف: (ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار.. إلخ وفي سورة الحديد [١٣] : (فضرب بينهم بسور له باب..) الآيات.

- ومما يتبع هذا أنّ القرآن يتصرف في حكاية أقوال المحكي عنهم فيصوغها على ما يقتضيه أسلوب إعجازه لا على الصيغة التي صدرت فيها، فهو إذا حكى أقوالاً غير عربية صاغ مدلولها في صيغة تبلغ حد الإعجاز بالعربية، وإذا حكى أقوالاً عربية تصرف فيها تصرفاً يناسب أسلوب المعبر مثل ما يحكيه عن العرب فإنه لا يلتزم حكاية ألفاظهم بل يحكي حاصل كلامهم، وللعرب في حكاية الأقوال اتساعٌ مداره على الإحاطة بالمعنى دون التزام الألفاظ، فالإعجاز الثابت للأقوال المحكية في القرآن هو إعجاز للقرآن لا للأقوال المحكية.

ومن هذا القبيل حكاية الأسماء الواقعة في القصص فإن القرآن يغيرها إلى ما يناسب حسن مواقعها في الكلام من الفصاحة مثل تغيير شاول إلى (طالوت)، وتغيير اسم تارح أبي إبراهيم إلى (آزر).

وكذلك التمثيل فقد كان في أدب العرب الأمثال، وهي حكاية أحوال مرموز لها بتلك الجمل البليغة التي قيلت فيها أو قيلت لها المسماة بالأمثال، فكانت تلك الجمل مشيرة إلى تلك الأحوال، إلا أنها لما تداولتها الألسن في الاستعمال وطال عليها الأمد نسيت الأحوال التي وردت فيها ولم يبق للأذهان عند النطق بها إلا الشعور بمغازيها التي تقال لأجلها.

أما القرآن فقد أوضح الأمثال وأبدع تركيبها كقوله تعالى: (مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف) [إبراهيم: ١٨] ..

- لم يلتزم القرآن أسلوباً واحداً، واختلفت سوره وتفننت، فتكاد تكون لكل سورة لهجة خاصة، فإن بعضها بني على فواصل وبعضها ليس كذلك. وكذلك فواتحها منها ما افتتح بالاحتفال كالحمد، و(يا أيها الذين آمنوا)، و(الم

ذلك الكتاب) [البقرة: ١، ٢] ، وهي قريب مما نعبر عنه في صناعة الإنشاء بالمقدمات، ومنها ما افتتح بالهجوم على الغرض من أول الأمر نحو: (الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم) [محمد: ١] و(براءة من الله ورسوله) [التوبة: ١]

-ومن أبدع الأساليب في كلام العرب الإيجاز وهو متنافسهم وغاية تنبارى إليها فصحاؤهم، وقد جاء القرآن بأبدعه؛ إذ كان- مع ما فيه من الإيجاز المبين في علم المعاني- فيه إيجاز عظيم آخر وهو صلوحية معظم آياته لأن تؤخذ منها معان متعددة كلها تصلح لها العبارة باحتمالات لا ينفياها اللفظ، فبعض تلك الاحتمالات مما يمكن اجتماعه، وبعضها إن كان فرض واحد منه يمنع من فرض آخر فتحريك الأذهان إليه وإخطاره بما يكفي في حصول المقصد من التذكير به للامتنال أو الانتهاء. وقد أشرنا إلى هذا في المقدمة التاسعة، ولولا إيجاز القرآن لكان ما يتضمنه من المعاني في أضعاف مقدار القرآن، وأسرار التنزيل ورموزه في كل باب بالغة من اللطف والخفاء حدا يدق عن تفتن العالم ويزيد عن تبصره، ولا ينبئك مثل خبير.

إنك تجد في كثير من تراكيب القرآن حذفاً ولكنك لا تعثر على حذف يخلو الكلام من دليل عليه من لفظ أو سياق، زيادة على جمعه المعاني الكثيرة في الكلام القليل، قال في «الكشاف» في سورة المدثر: «الحذف والاختصار هو نهج التنزيل» قال بعض بطارقة الروم لعمر بن الخطاب لما سمع قوله تعالى: (ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فأولئك هم الفائزون) [النور: ٥٢] «قد جمع الله في هذه الآية ما أنزل على عيسى من أحوال الدنيا والآخرة» ومن ذلك قوله تعالى: (وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه) [القصص: ٧] الآية، جمع بين أمرين ونهيين وبشارتين....

وأعد من أنواع إيجازه إيجاز الحذف مع عدم الالتباس، وكثر ذلك في حذف القول، ومن أبدع الحذف قوله تعالى: (في جنات يتساءلون عن المجرمين ما سلككم في سقر) [المدثر: ٤٠ - ٤٣] أي يتذكرون شأن المجرمين فيقول من علموا شأنهم سألناهم فقلنا ما سلككم في سقر. قال في «الكشاف» قوله: ما سلككم في سقر ليس ببيان للتساؤل عنهم وإنما هو حكاية قول المسؤولين، أي أن المسؤولين يقولون للسائلين قلنا لهم ما سلككم في سقر قالوا لم نك من المصلين اه، ومنه حذف المضاف كثيراً كقوله تعالى: (ولكن البر من آمن بالله). [البقرة: ١٧٧] وحذف الجمل التي يدل الكلام على تقديرها نحو قوله تعالى: (فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق) [الشعراء: ٦٣] إذ التقدير فاضرب فانفلق.

ومن ذلك الإخبار عن أمر خاص بخبر يعمله وغيره لتحصل فوائد: فائدة الحكم العام، وفائدة الحكم الخاص، وفائدة أن هذا المحكوم عليه بالحكم الخاص هو من جنس ذلك المحكوم عليه بالحكم العام، وقد تتبع أساليب من أساليب نظم الكلام في القرآن فوجدتها مما لا عهد بمثلها في كلام العرب، مثال ذلك قوله تعالى: (قد أنزل الله إليكم ذكرا رسولا يتلوا عليكم آيات الله مبينات) [الطلاق: ١٠] فإبدال (رسولا) من (ذكرا) يفيد أن هذا الذكر ذكر هذا الرسول، وأن مجيء الرسول هو ذكر لهم، وأن وصفه بقوله يتلوا عليكم آيات الله يفيد أن الآيات ذكر..

ومن بديع الإيجاز في القرآن وأكثره ما يسمى بالتضمنين، وهو يرجع إلى إيجاز الحذف، والتضمنين أن يضمن الفعل أو الوصف معنى فعل أو وصف آخر ويشار إلى المعنى المضمن بذكر ما هو من متعلقاته من حرف أو معمول فيحصل في الجملة معنيان.

ومن هذا الباب ما اشتمل عليه من الجمل الجارية مجرى الأمثال، وهذا باب من أبواب البلاغة نادر في كلام بلغاء العرب، وهو الذي لأجله عدت قصيدة زهير في «المعلقات» فجاء في القرآن ما يفوق ذلك كقوله تعالى: (قل كل يعمل على شاكلته) [الإسراء: ٨٤] وقوله: (طاعة معروفة) [النور: ٥٣]..

-وسلك القرآن مسلك الإطناب لأغراض من البلاغة ومن أهم مقامات الإطناب مقام توصيف الأحوال التي يراد بتفصيل وصفها إدخال الزوع في قلب السامع وهذه طريقة عربية في مثل هذا كقول ابن زبابة^١... فمن آيات القرآن في مثله قوله تعالى: (كلا إذا بلغت التراقي وقيل من راق وظن أنه الفراق والتفت الساق بالساق) [القيامة: ٢٦ - ٢٩]...

- ومن أساليب القرآن المنفرد بها التي أغفل المفسرون اعتبارها أنه يرد في استعمال اللفظ المشترك في معنيين أو معان إذا صلح المقام بحسب اللغة العربية لإرادة ما يصلح منها، واستعمال اللفظ في معناه الحقيقي والمجازي إذا صلح المقام لإرادتهما، وبذلك تكثر معاني الكلام مع الإيجاز، وهذا من آثار كونه معجزة خارقة لعادة كلام البشر..

^١ هو سلمة بن ذهل التيمي، والبيت هو: نُيْتُتُ عمراً غارزاً رأسه في سِنَةٍ يوعَدُ أحوالُهُ ، جعل غرز الرأس كناية عن الجهل ، والسنة هي الغفلة

- واعلم أن مما يندرج تحت جهة الأسلوب ما سماه أئمة نقد الأدب بالجزالة، وما سموه بالرفقة وبينوا لكل منهما مقاماته وهما راجعتان إلى معاني الكلام، ولا تخلو سورة من القرآن من تكرار هذين الأسلوبين، وكل منهما بالغ غايته في موقعه، فبينما تسمعه يقول: (قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم) [الزمر: ٥٣] .. إذ تسمعه يقول: (فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود) [فصلت: ١٣] قال عياض في «الشفاء»: إن عتبة بن ربيعة لما سمع هذه الآية أمسك بيده على فم النبي صلى الله عليه وسلم وقال له: ناشدتك الله والرحم إلا ما كفت. ^١.

٢- عادات القرآن: " يحق على المفسر أن يتعرف عادات القرآن من نظمه وكلمه، وقد تعرّض بعض السلف لشيء منها، فعن ابن عباس رضي الله عنهما: كل كاس في القرآن فالمراد بها الخمر، وذكر ذلك الطبري عن الضحاك أيضا. وفي «صحيح البخاري» في تفسير سورة الأنفال قال ابن عيينة: "ما سمى الله مطرا في القرآن إلا عذابا، وتسميه العرب الغيث كما قال تعالى: (وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا) [الشورى: ٢٨]، وعن ابن عباس أن كل ما جاء من (يا أيها الناس) فالمقصود به أهل مكة المشركون.

وقال الجاحظ في «البيان»: «وفي القرآن معان لا تكاد تفترق، مثل الصلاة والزكاة، والجوع والخوف، والجنة والنار، والرغبة والرغبة، والمهاجرين والأنصار، والجن والإنس» قلت: والنفع والضرر، والسماء والأرض. وذكر صاحب «الكشاف» وفخر الدين الرازي أن من عادة القرآن أنه ما جاء بوعيد إلا أعقبه بوعد، وما جاء بنذارة إلا أعقبها ببشارة، ويكون ذلك بأسلوب الاستطراد والاعتراض لمناسبة التضاد، ورأيت منه قليلا في شعر العرب ... وفي الكشاف في تفسير تعالى: (فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون قال قائل منهم إني كان لي قرين) [الصفات: ٥٠، ٥١] الآية: «جاء به ماضيا على عادة الله في أخباره». وقال فخر الدين في تفسير قوله تعالى: (يوم يجمع الله الرسل) من سورة العقود أي المائة [١٠٩]: «عادة هذا الكتاب الكريم أنه إذا ذكر أنواعا كثيرة من الشرائع والتكاليف أتبعها إما بالإلهيات وإما بشرح أحوال الأنبياء وأحوال القيامة ليصير ذلك مؤكدا لما تقدم ذكره من التكاليف والشرائع».

وقد استقرت مجهدي عادات كثيرة في اصطلاح القرآن سأذكرها في مواضعها، ومنها أن كلمة (هؤلاء) إذا لم يرد بعدها عطف بيان يبين المشار إليهم فإنها يراد بها المشركون من أهل مكة كقوله تعالى: (بل متعت هؤلاء

١ التحرير والتنوير: ١/٢١١

وآباءهم حتى جاءهم الحق ورسول مبين) [الزخرف: ٢٩] وقوله: (فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين) [الأنعام: ٨٩] وقد استوعب أبو البقاء الكفوي في كتاب «الكليات» في أوائل أبوابه كليات مما ورد في القرآن من معاني الكلمات، وفي «الإتقان» للسيوطي شيء من ذلك.

وقد استقرت أنا من أساليب القرآن أنه إذا حكى المحاورات والمجاوبات حكاها بلفظ قال دون حروف عطف، إلا إذا انتقل من محاورة إلى أخرى، انظر قوله تعالى: (وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها.. إلى قوله: أنبئهم بأسمائهم [البقرة: ٣٠ - ٣٣]".



الخطوة المثلى لفهم القرآن وتفسيره، وجعل الفصل الرابع بعنوان نظريات وتعليقات على كتب المفسرين ومناهجهم. لم يستوعب دروزة جميع أنواع علوم القرآن، ولكنه أفاض في الحديث عن الخطوة المثلى لفهم القرآن وتفسيره، حيث عرض فيه ما سماه بأفضل الطرائق لفهم القرآن وتفسيره، وهي أن يلاحظ الناظر في القرآن الأمور الآتية مجتمعة، وهي:

١- القرآن والسيرة النبوية ٢- القرآن والبيئة النبوية ٣- اللغة القرآنية ٤- القرآن أسس ووسائل ٥- القصص القرآنية ٦- الملائكة والجن في القرآن ٧- مشاهدات الكون ونواميسه ٨- الحياة الأخروية في القرآن ٩- ذات الله في القرآن ١٠- تسلسل الفصول القرآنية وفصولها ١١- فهم القرآن من القرآن.

ثالثاً: نماذج تطبيقية من مقدمته:

أبرز ما ركز عليه دروزة في تفسيره من بين الأمور السابقة.

● السيرة النبوية والبيئة النبوية:

حيث يرى دروزة أنّ من الأمور الأساسية التي على المفسر ملاحظتها عند تفسير القرآن الكريم الصلة بين عصر النزول والقرآن الكريم، لفهم مواضيع القرآن وتقريراته وروحه ومداه، ولمعرفة الحكمة من التبديل والتعديل والنسخ والتنويع والشدة واللين في الخطاب، ولجعل الناظر يندمج في الوقائع ومقتضياتها ولا يتعد عن حقيقة الواقع، فالجدل وتحميل العبارات القرآنية ما لا تحتمله لا طائل من ورائه، لأن التطور والتنوع في الأحداث والظروف متسقان مع طبائع الأمور ونواميسها التي فطر الله الكون عليها.

ويوضح دروزة: صلة الوحي القرآني بالبيئة النبوية من جهة أن الدعوة القرآنية بوجه عام اقتضتها حكمة الله بسبب ما كان عليه الناس من ضلال في أمور العقيدة وانحراف عن طريق الخير وكون ذلك ناشئاً عن ما كان من تقاليد وعادات وأفكار ومعارف وأهواء وتأويلات ومفاهيم أشار القرآن أيضاً إلى كثير من صورها المتنوعة.

وأنّ علاقة القرآن الكريم بالبيئة النبوية لا تقتصر على الصور والأحداث والعادات والأفكار والمعارف، وإنما تتعداها إلى لغة القرآن في مفرداتها وتركيبها واصطلاحاتها وأساليبها وأمثالها وتشبيهاتها واستعاراتها ومجازاتها، فهي لغة البيئة النبوية المألوفة، والمفهومة من قبل أهلها، فملاحظة المفسر ذلك يساعده على فهم اللغة القرآنية، هذا

الذي يؤدي إلى انتفاء انطواء بعض حروف القرآن وكلماته ونظمه على أسرار وألغاز أو علوه عن إفهام سامعيه مطلقاً أو احتوائه على لهجات العرب ولغاتهم جميعها مع لغات الأمم الأخرى .

أراد دروزة بدعوته إلى ملاحظة الصلة بين القرآن وعصر النزول الوصول إلى حقيقة الأمور والمعاني التي جاء بها القرآن الكريم، وعدم تحميل آياته مالا تحتل وإدماج الناظر في الوقائع ومقتضياتها، دون أن تعني هذه الصلة قصر القرآن على عصر النزول وإلغاء عموميه وأبديته وإنما الفهم على ضوء عصر النزول، فهو لا يفتأ الإشارة إلى المدى المستمر لآيات القرآن وعمومها أي صلاحية القرآن الكريم لكل زمان ومكان^١.

يقول دروزة مبيناً أهمية الرجوع إلى السيرة النبوية والبيئة النبوية في فهم القرآن الكريم:

"إنَّ القرآنَ سلسلةٌ تامةٌ للسيرة النبوية وتطورها منذ البدء إلى النهاية، متصلٌ بعضها ببعض، ومفسرٌ بعضها لبعض، ففي كل سورة من سوره ومجموعة من مجموعاته، أو فصل من فصوله صورةٌ لموقفٍ من مواقفِ النبي من سكان بيئته من العرب وغير العرب ومن المشركين والكتائبين، أو صورة لموقف من مواقفهم منه ومن دعوته، أو صورة من صور مواقف النبي من الذين استجابوا للدعوة أو من مواقفهم منه، أو من مواقف الكفار منهم أو مواقفهم من الكفار أو صورة لتطورات جميع هذه المواقف، دعوة وتبليغا وبرهنة وتديلا وعظة وتنبئها وتبشيرا وإنذارا، ووضعها وتشبيها وقصصا وأمثالا وترغيبا وترهيبا ووعدا ووعيدا، وجدالا وتحديا وعنادا ومكابرة واستكبارا وأذى، وتنديدا وتنويعا وتسليفا وتثبيتا وتطمينا وتعبيرا، وسؤالا وجوابا وجهادا وتشريعا إلخ وكل صورة معطوفة على صورة سابقة أو مرتبطة بصور لاحقة، في اتساق وانسجام تامين وضمن نطاق واحد مما يتضح لكل من ينعم النظر في القرآن ويقرأ سورة خاصة وفق تتابع النزول بقدر الإمكان.

وملاحظة ذلك مهمة جداً في فهم مواضيع القرآن وتقريراته ومداه وروحه، وفي جعل الناظر فيه لا يبتعد عن حقيقة الواقع والباعث، ويعصمه من التورط، ولا يتورط في التخمينات والتزييدات والجدليات وتحميل العبارات القرآنية ما لا تتحمله.....

إنَّ الصلة قائمة ووثيقة بين ما كانت عليه بيئة النبي وعصره من تقاليد وعادات وعقائد وأفكار ومعارف وبين البعثة النبوية والسيرة النبوية، وبالتالي بين الوحي القرآني وبين ما كانت عليه هذه البيئة.

^١ ينظر: إصلاح علم التفسير في التفسير الحديث، د. علي أسعد.

وهذه الصلة واضحة أولاً من جهة أنّ الدعوة النبوية والوحي القرآني بوجه عام إنما اقتضتتهما حكمة الله بسبب ما كان عليه الناس - وأهل بيته النبي في مقدمتهم وهم المخاطبون الأولون - قبل البعثة من ضلال في فهم وإدراك وجوب وجود الله وكمال صفاته ونزاهته عن الشريك والولد واستغنائه عن الولي والمساعد ومطلق تصرفه في كونه، واستحقاقه وحده للعبودية والخضوع والاتجاه، ووجوب نبذ ما سواه، ومن انحراف عن طريق الخير والحق والعدل والفضيلة ومن اختلاف عظيم في المذاهب والعقائد والطقوس، سواء في ذلك كله العرب وغيرهم، والكتايبون والمشركون، ثم بسبب أنّ ذلك [أي الضلال والانحراف] ناشىء عن ما كان من تقاليد وعادات وأفكار ومعارف وأهواء وتأويلات ومفاهيم مما احتواه القرآن من فصول الجدل والتنديد والتفريع .. وربط بينها وبين مواقف العرب والدعوة النبوية.

يضاف إلى هذا المظهر القرآني العام نصوص قرآنية خاصة في هذا المعنى وردت في مواضع عديدة وبأساليب متنوعة إذا تمعن القارئ فيها ظهرت له هذه الصلة ظهوراً جلياً. وتزيد في إيضاح ذلك بالأمثلة التالية:....

إنّ آيات القرآن الواردة في طقوس الحج تفيد صراحة حيناً وضمناً حيناً آخر أنّها كلها أو جلّها قد كانت ممارسة قبل البعثة النبوية فأقرت في الإسلام بعد تنقيتها من شوائب الشرك والوثنية، مع أنّ فيها ما لا يمكن فهم حكمة إقراره الآن مثل الطواف حول الكعبة والسعي بين الصفا والمروة ورمي الجمار واستلام الحجر الأسود وتقبيله إلخ فهذه الآيات متصلة بتقاليد الحج العربية قبل الإسلام ورسوخها وأهدافها، وفيها مظهر ما لوحدة العرب على اختلاف منازلهم ونحلهم حيث كانوا جميعهم يشتركون في الحج ومواسمه وتقاليده. وحرماته وأشهره الحرم، وحكمة إقرارها في الإسلام منطوية في ذلك الرسوخ من جهة وما كان له من فائدة وأثر في الوحدة المذكورة التي كان القرآن يدعو إليها من جهة ثانية ولعل قصد تأنيس العرب بالدعوة الإسلامية مما ينطوي في تلك الحكمة أيضاً..... فملاحظة هذه الصلة مهمة جداً كسابقتها في فهم مواضيع القرآن وتقريراته وروحه ومداه، وفي جعل الناظر فيه يندمج في الوقائع ومقتضياتها، ولا يبتعد عن حقيقة الواقع والباعث ويعصمه عن أن يتورط في الجدل والتزويد وتحميل العبارات القرآنية ما لا تتحملة وما لا طائل من ورائه^١.

^١ مقدمة التفسير الحديث، محمد عزة دروزة ١٤٢/١ - ١٤٦.

• القرآن أسس ووسائل:

يرى دروزة أنّ محتويات القرآن تنقسم إلى نوعين هما الأسس والوسائل، وإنّ الجوهرى في القرآن من هذين القسمين هو الأسس، لأنها تنطوي على "أهداف التنزيل القرآني والرسالة النبوية من مبادئ وقواعد وشرائع وأحكام وتلقينات أما عدا ذلك مما احتواه القرآن من مواضيع مثل القصص والأمثال والوعد والوعيد والترهيب والترغيب.... فهي وسائل تدعيمية وتأيدية إلى تلك الأسس والأهداف، وجل هذه الوسائل لها صلة بعصر نزول القرآن، كما أنّ منها ما هو متصل بالأسس والمبادئ من بعض النواحي كنتائج لها مثل الحياة الأخروية ومشاهدها وما يدخل في الغيبات الإيمانية.

إن هدف دروزة من إبراز هذه الملاحظة هو أن يقف الناظر في القرآن عند الأهداف والمبادئ، فيجليها ويبرزها، ولا يحمل الوسائل ما لا ضرورة لتحميلها إياه، ولا يستغرق فيها كاستغراقه في الأسس، وأن لا يغفل عن هدفها الرامي إلى تدعيم الأسس والأهداف مما يؤدي به إلى إهمال التدبر بالجوهري والوقوع فيما لا طائل من ورائه^١.

يقول دروزة مبيناً تقسيم محتويات القرآن إلى أسس ووسائل:

"إن محتويات القرآن نوعان متميزان وهما الأسس والوسائل، وإن الجوهرى فيه هو الأسس لأنها هي التي انطوت فيها أهداف التنزيل القرآني والرسالة النبوية من مبادئ وقواعد وشرائع وأحكام وتلقينات مثل وجوب وجود الله تعالى ووحدته وتنزهه عن كل شائبة وشريك وولد واتصافه بجميع صفات الكمال ومطلق التصرف في الكون واستحقاقه وحده العبادة والخضوع ونبد كل ما سواه والقيام بالواجبات التعبدية له، ومثل المبادئ والأمر والنواهي والتشريعات والأحكام والتلقينات الكفيلة بصلاح الإنسانية وطمأنينتها والتعاون الأخوي التام بينها أفرادا وجماعات وسلبية وإيجابية وأخلاقية واجتماعية وسياسية وحقوقية وسلوكية واقتصادية والنهي عن كل ما يناقض ذلك.

أما عدا ذلك مما احتواه القرآن من مواضيع مثل القصص والأمثال والوعد والوعيد والترهيب والترغيب والتنديد والجدل والحجاج والأخذ والرد والتذكير والبرهنة والإلزام ولفت النظر إلى نواميس الكون ومشاهد عظمة الله وقدرته ومخلوقاته الخفية والعلنية مثل الجن والإنس وإبليس والشيطان ومشاهد الرؤية فهي وسائل تدعيمية وتأيدية إلى تلك الأسس والأهداف وبسبيلها.

^١ ينظر: إصلاح علم التفسير في التفسير الحديث، د. علي أسعد.

ومع أن جل هذه الوسائل مّا له صلة ببيئة النبي وعصره من جهة والسيرة النبوية من جهة وبفهمها، وأن منها ما يتصل بالأسس والمبادئ من بعض النواحي كنتائج لها مثل الحياة الأخروية ومشاهدها وأحوالها ونعيمها وعذابها والملائكة والجن ومعجزات الأنبياء مما يدخل في الغيبات الإيمانية من جهة، ومع أنها قد شغلت حيزا كبيرا أو بالأحرى الحيز الأكبر من القرآن فإن من فائدة هذه الملاحظة أن تجعل الناظر في القرآن يقف عند الأهداف والمبادئ ويعتني العناية الكبرى بتجليتها وإبرازها، ولا يحمل الوسائل والتدعيمات ما لا ضرورة لتحميلها إياه ولا يترك لها المجال لتغطي على تلك، وتكون له شغلا شاغلا مستقلا بحيث يستغرق فيها مثل استغراقه في الأسس فضلا عن استغراقه فيها أكثر من استغراقه في هذه مما هو واقع ومشاهد كالانشغال مثلا في ماهية القصص القرآنية والنواميس الكونية، أو ماهية الملائكة والجن أو ماهية مشاهد الحياة الأخروية، وبحيث يغفل عن هدفها الرامي إلى تدعيم الأسس والأهداف مما يؤدي به إلى إهمال التدبر بالجوهر والتورط فيما لا طائل من ورائه والوقوع في الحيرة والبلبلّة دون ما ضرورة.

وننبه على أن هذا التقسيم بالمعنى الذي نقرره مستلهم بوجه عام من روح القرآن وأسلوبه وآياته، مما يستطيع أن يلمسه كل من أنعم النظر فيها، حيث يجد أنه لم ترد قصة أو مثل أو موعظة أو حملة تنديد وإنذار أو إشارة تنويه بملكوت الله وعظمته والدعوة إلى التفكير في آلائه أو ذكره للملائكة والجنّ أو تذكير بما كان من دعوة سابقة ومعجزات نبوية خارقة، أو تنبيه إلى الحياة الأخروية ومشاهدها ونتائجها المبهجة أو المزعجة إلا بعد تقرير تلك الأسس والأهداف أو شيء منها والدعوة إليها، أو بيان الحق والخير والصالح والسعادة فيها، أو حكاية مواقف الكفار منها أو تثبيت النبي والمسلمين فيها وتصبيرهم عليها.

وهذا من مميزات الأسلوب القرآني وخصوصياته بالنسبة لسائر الكتب المنزلة، وحيث يجد أن هذه الأسس والأهداف تظل محكمة ثابتة مع ما هو طبيعي من اختلاف مواقف النبي وتنوعها بالنسبة لفئات الناس والعقول والظروف في حين أن ما هو من باب الوسائل والتدعيمات يتنوع ويختلف أسلوبا ومدى وتعبيرا مع اختلاف تلك المواقف وتنوعها وهذا خاصة من شأنه أن يكون مقياسا وضابطا للتفريق بين القسمين القرآنيين، بل ومن شأنه أن يحل ما يتوهمه الناظر في القرآن من إشكالات قرآنية في الأسلوب والمدى والتعبير أيضا.

وهو مستلهم بوجه خاص من بعض نصوص صريحة في القرآن - مع ملاحظة ما قد يكون لها من خصوصيات زمنية يأتي في مقدمتها وقد يكون أقواها مدى وأوضحها دلالة آية آل عمران السابعة هذه: هُوَ الَّذِي

أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا

وهذه الآية نزلت في سياق الردّ على وفد نصراني تناظر مع النبي عليه السلام في أمر المسيح فسأله الوفد ألا يقول القرآن إن المسيح كلمة الله وروح منه قال بلى قال فهذا حسبنا. فنزلت الآية تندد بالوفد الذي ترك الأصل القرآني المحكم وهو أن الله واحد لا يصح أن يكون له ولد ولا شريك وجنح إلى التأويل الفاسد لبعض النصوص التي أنزلت بقصد التقريب والتمثيل.

وعلى خصوصية الآية من حيث المناسبة فإنها جاءت بأسلوب تقريرى عام لتكون شاملة الحكم والمدى، بحيث يصح أن يستلهم منها بقوة أن القرآن قسمان متميزان أحدهما محكم أساسي ثابت لا يحتمل تأويلا ولا تنوعا ولا وجوها افتراضية وتقريبية، وثانيهما متشابهة بسبيل التقريب والتمثيل والإلزام والبرهنة ويحتمل التأويل والتنوع والوجوه الافتراضية.

ولسنا منفردين في هذا التخريج فقد سبق إليه كثير من أعلام العلماء والمفسرين على تنوع أقوالهم واختلاف مدى السعة والضيق فيها وقد روي عن ابن عباس في صدد الآية أن المحكم هو ناسخ القرآن وحلاله وحرامه وحدوده وفرائضه وما يؤمن به ويعمل به وأن المتشابه هو منسوخ القرآن ومؤخره وأمثاله وأقسامه وما يؤمن به ولا يعمل به. وقد نوّه للأول بآيات الأنعام: ١٥١-١٥٣ والإسراء: ٢٣-٣٨ التي هي مجموعات رائعة من المبادئ والأهداف التوحيدية والأخلاقية والاجتماعية والسلوكية.

وفي سورة محمد آية يصح أن تكون دليلا قرآنيا وهي هذه: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأُولَئِكَ هُمُ﴾ (٢٠)، حيث يلهم نصّها أن معنى «محكمة» هو الفرض الأساسي الحاسم من فروض القرآن وتكاليفه.

وفي القرآن آيات كثيرة جدا يبرز فيها تأييد هذا المعنى كآيات البقرة: [١٢-٢٦] والأعراف: [٥٧-٥٨] والكهف: [٥٤-٥٩] وطه: [١١٣] والعنكبوت: [٤٠-٤٩] والروم: [٢٠-٢٨] والزمر: [٩-٢٩] والحاقة: [٤-٥٢] والمعارج: [١١-٤٤] والمدثر: [٣٠-٤٧] إلخ.

وهو متسق مع حكمة بعثة الرسل وهي هداية البشر وإخراجهم من الظلمات إلى النور والدعوة التي دعوا إليها وهي الدعوة إلى الله وحده وإلى مكارم الأخلاق والمبادئ التي يقوم عليها صلاح الإنسانية وسعادة الناس في الدارين. أما ما ظهر على أيدي الرسل من معجزات وما صدر عنهم الوحي الرباني من نذر وبشائر ووعد ووعيد وتذكير وتمثيل وقصص ومواعظ فإنه بسبيل تلك الحكمة وإعلائها وتجليتها والإقناع بها والتوجيه إليها كما يبدو واضحا وبديها عند ذوي الألباب والرؤية".^١



^١ مقدمة التفسير الحديث: ١٥٧/١-١٦٢.

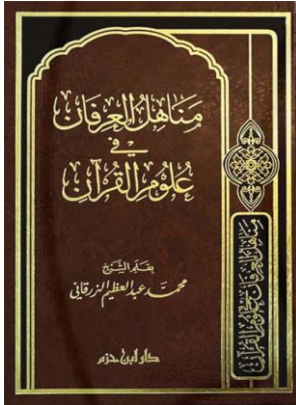
المبحث الثالث: موارد علوم القرآن من الكتب الأكاديمية، ويتضمن:

المطلب الأول: كتاب "مناهل العرفان في علوم القرآن" للشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني (ت ١٣٦٧هـ -

١٩٤٨)

أولاً: التعريف بالشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني (ت ١٣٦٧هـ - ١٩٤٨):

محمد عبد العظيم الزرقاني، ونسبته إلى زرقان وهي بلدة تابعة لمحافظة المنوفية في مصر، ولد في مطلع القرن الرابع عشر الهجري، وهو من علماء الأزهر الشريف، عمل بها مدرسا لعلوم القرآن والحديث بكلية أصول الدين وتوفي بالقاهرة سنة ١٣٦٧هـ - ١٩٤٨، ومن أشهر كتبه (مناهل العرفان في علوم القرآن)



ثانياً: التعريف بكتاب مناهل العرفان في علوم القرآن:

جعل لكتابه مقدمة ذكر فيها هدفه من التأليف، وهو :

- ١- أن تكون الكتاب من النسق الأزهري الجديد في تفكيره وفي تعبيره بحيث يتيسر فهمه وهضمه للقراء من أبناء هذا الجيل.
- ٢- معالجة شبهات عصرنا الراهن علاجاً ينحي الأذى عن طريق عشاق الحق وطلاب الحقيقة ورواد البحث ومريدي الإسلام
- ٣- إظهار التآخي بين الإسلام والعلم وإبطال الدسيسة بأن بين الدين والعلم خصومة قائمة وحرباً طاحنة وعداوة متأصلة .
- ٤- إظهار أسرار التشريع وحكمه كلما دعا المقام .
- ٥- إيقاظ الهمة وروح الدعوة في طلاب العلم، هذه الروح التي لا توجد إلا في القرآن

وقد أقام كتابه على سبعة عشر مبحثاً، وهي: المبحث الأول: في معنى علوم القرآن الكريم- المبحث الثاني: في تاريخ القرآن الكريم -المبحث الثالث: في نزول القرآن الكريم -المبحث الرابع: في أول ما نزل وآخر ما نزل من القرآن الكريم - المبحث الخامس: في أسباب النزول. - المبحث السادس: في نزول القرآن الكريم على سبعة أحرف. - المبحث السابع: في المكّي والمدني من القرآن الكريم -المبحث الثامن: في جمع القرآن الكريم وما يتعلق به- المبحث التاسع: في ترتيب آيات القرآن الكريم وسوره - المبحث العاشر: كتابة القرآن الكريم ورسمه ومصاحفه- المبحث الحادي عشر: في القراءات والقراء والشبهات فيها- المبحث الثاني عشر: في التفسير والمفسرين وما يتعلق بهما. - المبحث الثالث عشر: في ترجمة القرآن الكريم وحكمها تفصيلاً. - المبحث الرابع

عشر: في النسخ - المبحث الخامس عشر: في المحكم والمتشابه من القرآن الكريم - المبحث السادس عشر: في أسلوب القرآن الكريم - المبحث السابع عشر: في إعجاز القرآن الكريم وما يتعلق به "

وهذا العدد ضئيل إذا ما قورن بعدد الأنواع التي تعرض لها السيوطي في الإتيان، والتي بلغت ثمانين نوعاً، والسبب أنه ركز على الأهم الذي يحتاجه العلماء في عصره، وبسبب الظروف العصيبة التي أخرج فيها المؤلف هذا الكتاب، والتي تتمثل في نقص الورق وعدم توافر مواد الطباعة وقصر ذات اليد، لم تساعد على مواصلة الكتابة في موضوعات أخرى، وعلل ذلك بقوله: (إن الضرورات تبيح المحظورات)^١.

وقد أضاف المؤلف بعض الإضافات على ما كتبه الزركشي والسيوطي بغض النظر عن وجود بعض الجزئيات المندرجة تحتها في الإتيان أو البرهان وهذه الإضافات جاءت في أربعة مباحث وهي: (الأول والثاني والثالث عشر والسادس عشر)

ثالثاً: نماذج تطبيقية:

النموذج التطبيقي الأول: : (حكم ترجمة القرآن تفصيلاً)

يتم التعريف بمنهجه في الترجمة بشكل مختصر من كتاب (خالد السبت) ص ٦٧٦ - ٦٨١:

ذكر أنّ للترجمة أربعة معانٍ رئيسية وبين حكمها؛ وهي: ١- ترجمة القرآن بمعنى تبليغ ألفاظه ، وحكمها الجواز، والمراد بالجواز هنا ما يقابل الحظر فيصدق بالوجوب وبالندب واستدل عليها بكونه صلى الله عليه وسلم، كان يقرأ القرآن ويسمعه أوليائه وأعداءه ويدعو إلى الله به في مولده ومهاجره وفي سفره وحضره والأمة من ورائه نهجت نهجه فبلغت ألفاظ القرآن، ويقول **صلى الله عليه وسلم**: (بلغوا عني ولو آية وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج ومن كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار) ويقول: (خيركم من تعلم القرآن وعلمه) ٢- ترجمة القرآن بمعنى تفسيره بلغته العربية: وحكمها الجواز قال تعالى (وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم) ولقد قام الرسول صلوات الله وسلامه عليه ببيانه العربي خير قيام حتى اعتبرت السنة النبوية كلها شارحة له، ٣- ترجمة القرآن بمعنى تفسيره بلغة أجنبية: وحكم هو حكم تفسيره بلسان عربي لمن يحسن العربية، أي الجواز.

وهنا أنقل نصاً من كلامه حول أمور تتعلق بهذه الترجمة: فقال : " ونستعي نظرك إلى أمور مهمة أولها أن علماءنا حظروا كتابه القرآن بحروف غير عربية وعلى هذا يجب عند ترجمة القرآن بهذا المعنى إلى أية لغة أن تكتب الآيات القرآنية إذ كتبت بالحروف العربية كيلا يقع إخلال وتحريف في لفظه فيتبعهما تغير وفساد في معناه....
الأمر الثاني:.. لا نريد هنا في تفسير القرآن بلغة أجنبية أن تذكر مفردات القرآن وجمله مكتوبة بتلك اللغة الأجنبية أو مترجمة بهذه اللغة ثم تشفع بتفسيرها المذكور.. الأمر الثالث أن ترجمة القرآن بهذا المعنى مساوية لترجمة

^١ مناهل العرفان الزرقاني دراسة وتقويم - خالد بن عثمان السبت ج ١ / ٦٢ دار ابن عفان للنشر والتوزيع

تفسيره العربي لأن الترجمة هنا لم تتناول في الحقيقة إلا رأي هذا المفسر وفهمه لمراد الله على قدر طاقته خطأ كان فهمه أو صوابا ولم تتناول كل مراد الله من كلامه قطعا فكأن هذا المفسر وضع أولا تفسيراً عربياً ثم ترجم هذا التفسير الذي وضعه وإن شئت فقل إنه ترجم تفسيراً للقرآن قام هو به غير أنه لم يدونه وأنت خير بأن التفسير هو التفسير سواء أدونه صاحبه أم لم يدونه

الأمر الرابع ذهب بعضهم إلى تسمية هذا النوع وما يشبهه ترجمة تفسيرية للقرآن بالمعنى العرفي ونحن مع علمنا بأن الخلاف في التسمية تافه لا نستطيع أن نرى رأيهم لشهادة العرف التي أقمنها ثم اعتمدنا عليها في رسم الفوارق الأربعة بين أي ترجمة وأي تفسير فترجمة القرآن على فرض إمكانها تصوير لكل ما أراد منزله من معانيه ومقاصده وترجمة التفسير تصوير لكل ما أراد المفسر من معانيه ومقاصده والقرآن لا يمكن أن يكون في معانيه المرادة لله خطأ أبداً فإذا صحت ترجمته على فرض إمكانها وجب ألا تحمل ولا تصور خطأ أما التفسير فيمكن أن يكون في معانيه المرادة للمفسر خطأ أي خطأ وعلى هذا فترجمة هذا التفسير ترجمة صحيحة لا بد أن تحمل هذا الخطأ وتصوره وإلا لما صح أن تكون ترجمة له لأن الترجمة صورة مطابقة للأصل ومرآة حاكية له على ما هو عليه من صواب أو خطأ إيمان أو كفر حق أو باطل "

فوائد الترجمة بهذا المعنى

"الترجمة القرآن بهذا المعنى فوائد منها :.. الفائدة الأولى رفع النقاب عن جمال القرآن ومحاسنه لمن لم يستطع أن يراها بمنظار اللغة العربية من المسلمين الأعاجم وتيسير فهمه عليهم بهذا النوع من الترجمة ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم ويعظم تقديرهم للقرآن.. الفائدة الثانية دفع الشبهات التي لفقها أعداء الإسلام وألصقوها بالقرآن وتفسيره كذبا وافتراء ثم ضللوا بها هؤلاء المسلمين الذين لا يحذقون اللسان العربي في شكل ترجمات مزعومة للقرآن.. الفائدة الثالثة تنوير غير المسلمين من الأجانب في حقائق الإسلام وتعاليمه خصوصا في هذا العصر القائم على الدعايات وبين نيران هذه الحروب.. الفائدة الرابعة إزالة الحواجز والعوائق التي أقامها الخبثاء الماكرون للحيلولة بين الإسلام وعشاق الحق من الأمم الأجنبية وهذه الحواجز والعوائق تتركز في الغالب على أكاذيب افتروها تارة على الإسلام وتارة أخرى على نبي الإسلام وكثيرا ما ينسبون هذه الأكاذيب إلى القرآن وتفسيره وإلى تاريخ الرسول وسيرته ثم يدسونها فيما يزعمونه ترجمات للقرآن.. الفائدة الخامسة براءة ذمتنا من واجب تبليغ القرآن بلفظه ومعناه فإن هذه الترجمة جمعت بين النص الكريم بلفظه ورسمه العربيين وبين معاني القرآن على ما فهمه المفسر وشرحه باللغة الأجنبية "

النموذج التطبيقي الثاني: عن النسخ

يتم التعريف بمنهجه في النسخ بشل مختصر من كتاب (خالد السبت) ٦٨٢

موقف العلماء من الناسخ والمنسوخ

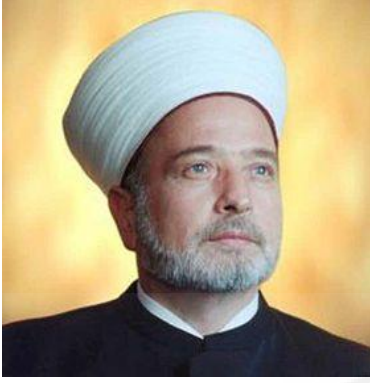
العلماء في موقفهم من الناسخ والمنسوخ يختلفون بين مقصر ومقتصد وغال فالمقصرون هم الذين حاولوا التخلص من النسخ إطلاقاً سالكين به مسلك التأويل بالتخصيص ونحوه كأبي مسلم ومن وافقه وقد بينا الرأي في هؤلاء سابقاً

والمقتصدون هم الذين يقولون بالنسخ في حدوده المعقولة فلم ينفوه إطلاقاً كما نفاه أبو مسلم وأضرابه ولم يتوسعوا فيه جزافاً كالغالين بل يقفون به موقف الضرورة التي يقتضيها وجود التعارض الحقيقي بين الأدلة مع معرفة التقدم منها والمتأخر

والغالون هم الذين تزيدوا فأدخلوا في النسخ ما ليس منه بناء على شبه ساقطة ومن هؤلاء أبو جعفر النحاس في كتابه الناسخ والمنسوخ وهبة الله بن سلامة وأبو عبد الله محمد بن حزم وغيرهم فإنهم ألفوا كتباً في النسخ أكثرها فيها من ذكر الناسخ والمنسوخ اشتباهاً منهم وغلطاً ومنشأً تزيدهم هذا أنهم انخدعوا بكل ما نقل عن السلف أنه منسوخ وقاتم أن السلف لم يكونوا يقصدون بالنسخ هذا المعنى الاصطلاحي بل كانوا يقصدون به ما هو أعم منه مما يشمل بيان المجمل وتقييد المطلق ونحوها

منشأ غلط المتزيدين تفصيلاً

ونستطيع أن نرد أسباب هذا الغلط إلى أمور خمسة أولها ظنهم أن ما شرع لسبب ثم زال سببه من المنسوخ وعلى هذا عدوا الآيات التي وردت في الحث على الصبر وتحمل أذى الكفار أيام ضعف المسلمين وقتلهم منسوخة بآيات القتال مع أنها ليست منسوخة بل هي من الآيات التي دارت أحكامها على أسباب فالله أمر المسلمين بالصبر وعدم القتال في أيام ضعفهم وقلة عددهم لعدة الضعف والقلة ثم أمرهم بالجهاد في أيام قوتهم وكثرتهم لعدة القوة والكثرة وأنت خبير بأن الحكم يدور مع علته وجوداً وعدمها وأن انتفاء الحكم لانتفاء علته لا يعد نسخاً بدليل أن وجوب التحمل عند الضعف والقلة لا يزال قائماً إلى اليوم وأن وجوب الجهاد والدفاع عند القوة والكثرة لا يزال قائماً كذلك إلى اليوم



المطلب الثاني: كتاب "مباحث في علوم القرآن" للشيخ صبحي الصالح.

أولاً: التعريف بالشيخ صبحي الصالح (ت ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٦ م):

العالم الفقيه، الأديب اللغوي، الشهيد، أحد أهم علماء الدين اللبنانيين البارزين

والمحدثين، بل أهم المرجعيات في العالم الإسلامي، التي أعطت توازناً ورؤية حضارية واسعة، وآفاقاً إيمانية مؤثرة.

ولد صبحي بن إبراهيم الصالح عام (١٣٤٥ هـ - ١٩٢٦ م) في لبنان، فهو طرابلسي المولد من عائلة تركية الأصل^١، وأما عن تكوينه العلمي ومصادر ثقافته فقد كان كثير القراءة والمطالعة، ومجالسة العلماء، فنال الشهادة العالمية في كلية أصول الدين عام (١٩٤٩ م)، وفي الوقت نفسه حصل على الليسانس في الآداب العربية في كلية الآداب بجامعة القاهرة بدرجة امتياز عام (١٩٥٠ م)، فجمع بين الثقافتين الشرعية والمدنية، ثم سافر إلى فرنسا، وأتقن لغتها في وقت قصير، ونال من جامعة السوربون أطروحة الدكتوراه في الآداب عام (١٩٥٤ م) باللغة الفرنسية التي كان قد بلغ فيها مستوى كبار كتابها وأدبائها^٢، فقد دارس المستشرقين، واطّلع على مناهج وركائز الحضارة الغربية، وراقب مسيرة الحداثة التي غيّرت كثيراً من القيم والمفاهيم والنظم، ولكنه لم يفقد ذاتيته الإسلامية، بعد ذلك توجه إلى التعليم الجامعي، فدرّس بجامعة بغداد وجامعة دمشق والجامعة الأردنية، والجامعة اللبنانية، وجامعة بيروت العربية منذ تأسيسها وحتى وفاته، وفي الجامعة اللبنانية انتخب رئيساً لقسم اللغة العربية وآدابها منذ عام (١٩٥٧ م)، ثم عُيّن عميداً لكلية الآداب فيها عام (١٩٧٧ م)، وقد حاضر في كثير من الجامعات العربية، منها: جامعة محمد بن سعود، والكلية الزيتونية، وجامعة محمد الخامس، وأشرف على الرسائل الجامعية اللغوية الحضارية في جامعة ليون الثالثة بفرنسا، وفي جامعة باريس الثانية، وتمثل نتاجه العلمي بالكثير من الإسهامات والمؤلفات، من أشهرها (مباحث في علوم القرآن)، وله كذلك: (الإسلام والمجتمع العصري - علوم الحديث ومصطلحاته - دراسات في فقه اللغة - الإسلام ومستقبل الحضارة - فلسفة الفكر الديني بين الإسلام والمسيحية لـ (لويس غردية - جورج قنواي) ترجمه بالاشتراك مع فريد جبر - ترجمة معاني القرآن الكريم إلى الفرنسية بالاشتراك مع دانيسمانسون)... وأما نشاطه الثقافي والاجتماعي والوطني فمنذ أن كان طالباً في باريس شارك بتأسيس

^١ انظر: محمد خير رمضان يوسف، تنمية الإعلام للزركلي، ط: ٢ (بيروت - دار ابن حزم، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠٢ م)، ٢٤١/١.

^٢ انظر: تنمية الإعلام للزركلي، ٢٤٢/١، ذيل الإعلام: ١٠٣، معجم أعلام المورد: ٢٦٨.

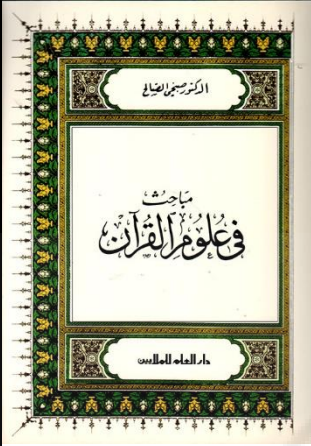
أول مركز ثقافي بفرنسا، وقام أيضاً بتعليم اللغة العربية وإلقاء المحاضرات في الأندية الثقافية الفرنسية، وبعد عودته من باريس انتخب عضواً في المجتمع العلمي العراقي، وعضواً في مجمع اللغة العربية في القاهرة، وفي أكاديمية المملكة المغربية، وفي لجنة الإشراف العليا على الموسوعة العربية الكبرى في سورية، وفي لبنان نائباً لرئيس المجلس الإسلامي الشرعي الأعلى، فنائباً لرئيس المجلس الاستشاري لدار الفتوى، ثم أميناً عاماً لرابطة علماء لبنان، ورئيساً للجمعية الخيرية لرعاية أطفال المسلمين في لبنان، وقد منحته المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم جائزة (التفكير الاجتهادي في الإسلام) قبل استشهاده بعدة أشهر^١، وعلى الصعيد الوطني التزم الدفاع عن القضية الفلسطينية منذ نشأتها بأبحاثه ومحاضراته، بالإضافة إلى حملاته التي شنتها على الطائفية والمذهبية في لبنان، داعياً إلى وحدته وعرويته، وإقامة العدالة بين أبنائه وطوائفه ومناطقه، رافضاً التقسيم والتهويد والإدارات المحلية التي أفرزتها الميليشيات المحلية المدعومة خارجياً^٢، كل هذه المواقف القوية أدت إلى اغتياله وسط بيروت، في طريقه إلى المسجد، في ٧ من تشرين الأول عام (١٩٨٦م).

ومن آرائه الاجتهادية وأفكاره النهضة: **دعوته إلى إطلاق الاجتهاد من جديد قائلاً:** "إن حاجة الأمة إلى الاجتهاد بديهية، لم تكن في نظر القدامى تقبل الجدل حتى تحتل التأجيل عند المعاصرين، وإن المحققين من علمائنا شاركوا في مقاومة التقليد، وفي دعوة الناس إلى الاجتهاد، وإن كانوا لم يفتحوا بابه على مصراعيه إلا القادرين عليه". **ودعوته إلى تنمية الفكر الاجتهادي وتوسيع مجالاته، والتنسيق بين روح الشريعة ومقاصدها العامة، وبين إيجاد الحلول المناسبة لمعضلات الحياة العصرية في كل الميادين وقال:** "لن نكون بحاجة إلى أشخاص المجتهدين وألقابهم ومراتبهم بقدر حاجتنا إلى توعية تفكيرهم واختصاصهم، تمهيداً إلى يوم نُوفق فيه إلى إنشاء المجتمع الاجتهادي الجماعي على مستوى العالم الإسلامي".

^١ انظر: تنمة الأعلام للزركلي: ٢٤٢/١، ذيل الأعلام: ١٠٣، معجم أعلام المورد: ٢٦٨.

^٢ نشبت الحرب الأهلية في لبنان (١٩٧٥م) واستمرت ١٠ أعوام، وكانت حافلة بصراعات دموية بين أطراف فلسطينية ولبنانية، سنية ومسيحية وشيعية، وفي (١٩٨٥م) عقد "الاتفاق الثلاثي" بين الميليشيات لتسليم الأمن في بيروت، وكان الدكتور صبحي الصالح واحداً من الوجوه البارزة في حركة شعبية رافضة لهذا الاتفاق الطائفي، وخلال هذه الفترة اجتياح إسرائيل لبنان في ١٩٨٢م، واحتلت بيروت، وخلال هذا الاجتياح قامت بمذبحة (صبرا وشاتيلا).

ثانياً: التعريف بكتاب "مباحث في علوم القرآن":



ظهر هذا الكتاب - بطبعته الأولى - عام (١٩٥٨م)، وكان عبارة عن سلسلة من المحاضرات الجامعية، التي ألقاها الدكتور صبحي الصالح خلال عامين على طلاب شهادة علوم اللغة العربية في كلية الآداب في جامعة دمشق، وقد صرح المؤلف في مقدمته بأنه توخى في عرض هذه المباحث السهولة والإيجاز، ولم يقصد إلى الاستقصاء والاستيعاب، بل حاول تبسيط العلوم الكثيرة المتعلقة بالقرآن، وتقريبها إلى أذهان الباحثين من طلاب الثقافة العربية الإسلامية.

والكتاب في طبعته الجديدة: عبارة عن جزء واحد، عدد صفحاته (٣٨٢ صفحة)، الناشر: دار العلم للملايين - بيروت، وقد نهج في تبويب مباحثه - وفقاً لما ذكره في مقدمته - نهجاً طريفاً مبتكراً، إذ جعلها على أربعة أبواب مترادف هي وفصولها مترادفاً منطقياً، فقسّم كتابه إلى مقدمة، وأربعة أبواب، وخاتمة، وطريقته في عرض فصوله من خلال التقديم لها بتمهيد أو مقدمات، والتسلسل في عرض الأفكار ومناقشتها، وإنهاءها بخاتمة، تُظهر خلاصة ما وصل إليه.

أما المقدمة: فقد اشتملت على الهدف من تأليف الكتاب، وعناية القدامى في هذا العلم، وفضلهم على من أتى بعدهم، ثم عرض لبعض المآخذ التي تُؤخذ على القدامى في بعض أنواع القرآن كالناسخ والمنسوخ، وأسباب النزول. وأتبع المقدمة بأربعة أبواب، وضمّن كل باب عدة فصول، فالباب الأول: أفرد به فصوله الثلاثة للقرآن والوحي، ففي الفصل الأول: تحدّث عن أسماء القرآن وموارد اشتقاقها، وفي الفصل الثاني: أسهب في تفسير ظاهرة الوحي، وفي الفصل الثالث: تحدّث عن تنجيم القرآن وأسراره .

وانتقل في الباب الثاني إلى تاريخ القرآن، وقسّمه إلى ثلاثة فصول أيضاً، ففي الفصل الأول: تحدّث عن جمع القرآن وكتابه، وردّ على كثير من شبهات المستشرقين، وفي الفصل الثاني: تحدّث عن المصاحف العثمانية في طور التجديد والتحسين، ثم ناقش في الفصل الثالث: موضوع الأحرف السبعة، وأضاف بعض التحقيقات الجديدة في نشأة الرسم القرآني وتطوره.

وفي الباب الثالث: وهو أكبر الأبواب وأهمّها فقد أفردته لعلوم القرآن، وكان لازماً - كما يذكر الدكتور الصالح - أن يستغرق أكثر من نصف الكتاب، لأن له صلة باسم الكتاب، وقسمه إلى ثمانية فصول تحدّث فيها عن علوم القرآن ونشأته وبعض أنواع علوم القرآن، كما يلي: (الفصل الأول: لمحة تاريخية عن علوم القرآن - الفصل الثاني: علم أسباب النزول - الفصل الثالث: علم المكي والمدني - الفصل الثالث: لمحة خاطفة عن فواتح السور - الفصل الخامس: علم القراءات ولمحة عن القراء - الفصل السادس: علم الناسخ والمنسوخ، وهذا الفصل لم يتعرّض له في طبعته الأولى. - الفصل السابع: علم الرسم القرآني - الفصل الثامن: علم المحكم والمتشابه)، وقد أفرد الباب الرابع للحديث عن التفسير، اعتناءً به وإعظاماً لشأنه، وضمّ إليه أقرب البحوث شبهاً به وهو (الإعجاز)، وضمن هذا الباب أربعة فصول تحدّث في الفصل الأول عن التفسير: نشأته وتطوره، الفصل الثاني: القرآن يفسر بعضه بعضاً، أما الفصل الثالث: خصّصه لإعجاز القرآن، وتحدّث في الفصل الرابع: عن الإعجاز في نغم القرآن. أما الخاتمة: فقد اشتملت على تلخيص الأنواع والأفكار المهمة التي عُرضت خلال فصول الكتاب.

و يمكننا أن نلخص بعض ملامح منهجه المهمة في النقاط الآتية:

- أفاد من مؤلفات الأقدمين، وضمّ إليها عصارة جهود المعاصرين، وأضاف عليها من بحور علمه، وإشراقات فكره، وقد ذكر هذه المصادر آخر كتابه مرتبة على حروف المعجم، بعضها باللغة العربية، وبعضها الآخر باللغة الأجنبية.

- صاغ المؤلف كتابه بأسلوب أدبي مشرق، وعبارات سهلة، يتخللها في أحيان كثيرة صور بيانية، وتحسينات بديعية، ومشاهد تصويرية، ومن الطبيعي أن يكتب المؤلف بهذا الأسلوب الأدبي الرفيع، وقد درس اللغة مع علوم الشريعة، ونال دكتوراه الدولة في الآداب، فهو عالم لغويات فذّ، وأديب مبدع، وأكثر المواضع التي يظهر فيها ذلك (الإعجاز في نغم القرآن)، منها: ".... والدعاء - بطبيعته - ضرب من النشيد الصاعد إلى الله، ولا يحلو وقعه في نفس الضارع المبتهل إلا أن تكون ألفاظه منتقاة، فلا غرو إذا بدا النبي الكريم ' في دعائه المأثور كالحريص على شيء من التقطيع المقصود، من سجع لطيف، أو طباق رشيق، أو رنة شافية"^١

^١ مباحث في علوم القرآن: ٣٣٧.

-لم يستوعب جميع الأنواع والمباحث المتعلقة بالقرآن مقارنة بما جاء في كتابي البرهان والإتقان من أنواع، وإنما ختار المؤلف أكثرها أهمية، وهذا ما ذكره في مقدمة كتابه في طبعته الجديدة بقوله: " وما أبرح، في هذه الطبعة الرابعة- رغم الزيادات الكثيرة التي أضفتها- أقرّ بأني تناولت أمهات المسائل، ولم أفصل في شيء منها تفصيلاً... " وبقوله في آخر مقدمته: "وبعد، فتلک مباحث في علوم القرآن لا ننمي إليها السعة والشمول، ولا ندعي لها التفصيل والاستيعاب، إنما هي طائفة من المسائل المهمة التي نرجو ألا يجهلها أو يتجاهلها عربي ينطق بالضاد أو مسلم يهتف بهذا الدين الحنيف"^١.

-يُورد المؤلف خلاف أهل العلم في المسألة التي هو بصددھا - غالباً- مع عرض أدلتهم ومناقشتها، ثم يذكر القول الراجح والاستدلال عليه، ومن أمثلة ذلك: مسألة (هل ترتب الآيات والصور توقيفي أم اجتهادي؟)
- يسوق المؤلف جملة من شبه المستشرقين المتعلقة بموضوعه، ثم يحاول الإجابة عنها والرد عليها، في معظم فصول كتابه.

ثالثاً : نماذج تطبيقية لقضية مهمة في كتابه من الفصل الرابع وهي (الإعجاز في نغم القرآن) :

• النموذج الأول من الفصل الثالث (إعجاز القرآن) - الباب الرابع:

"بذل أولئك العلماء [الجاحظ "ت٢٥٥" والواسطي "ت٦٠٣" والرماني "ت٣٨٤" والباقلاني "ت٤٠٣ والجرجاني] جهوداً مشكورة، وقاموا بمحاولات مضيئة، لإبراز البلاغة القرآنية في صورة موحية ذات ظلال، ولكنهم وقفوا غالباً عند النص الواحد، فاقتطعوه اقتطاعاً من الوحدة القرآنية الكبرى، ودرسوه على حدة دراسةً تحليليةً جزئيةً ذهب بمعالم جمالها خلافهم الذي لا يتناهى حول مشكلة اللفظ والمعنى، فكانت النزعة الكلامية تفسد عليهم تذوقهم للنصوص، وإدراكهم مواطن البلاغة والإعجاز... قد شغلوا أنفسهم بمسائل كثيرة هي أبعد ما تكون عن الجو الفني المحض، فلم يتح لهم شغفهم بالتبويب والتقسيم فرصة لإدراك الخصائص العامة المشتركة التي يصدر عنها كتاب الله في تصويره وتعبيره، فيهب النفوس، ويحرك المشاعر، ويفيض الدموع.

على أن النهضة الأدبية العربية في القرن الأخير قد وجهت أنظار الباحثين إلى مقالات جديدة في عناصر الجمال الفني في القرآن، فللسيد رشيد رضا صاحب المنار لمحات موفقة في فهم القرآن، ومثل ذلك لأستاذة الشيخ محمد عبده، والسيد رشيد يذكرها له في تفسيره، ولمصطفى صادق الرافعي كلمات رائعة في هذا المجال في الجزء الثاني من

^١ المرجع السابق: ١٢.

كتابه "تاريخ آداب العرب" وقد خصه بالقرآن والبلاغة النبوية"، لقد عني مصطفى صادق الرافعي عناية خاصة بالنظم الموسيقي في القرآن"

ثم يدل على ما ذكر من خلال موضوع: (تشبيه القرآن واستعارته): وأكتفي بما قاله في الاستعارة فيقول:

" ويذكر السيوطي بعد ذلك في الباب نفسه ما يتعلق بالاستعارة، ويقسمها باعتبار أركانها إلى خمسة أقسام، ويستشهد بوفرة من الأمثلة على كل قسم منها، فإذا مر بقوله تعالى: {وَالصُّبْحُ إِذَا تَنَفَّسُ} ١ جعل ذلك من باب استعارة محسوس لمحسوس بوجه محسوس، وأوضح ذلك بقوله: "استعير خروج النفس شيئاً فشيئاً لخروج النور من المشرق عند انشقاق الفجر قليلاً قليلاً، يجامع التتابع على طريق التدرج، وكل ذلك محسوس" ٢. وقد فاته أن ينبه هنا على ظاهرة التشخيص، وسمتها في القرآن واضحة كل الوضوح، فالحياة تلح في هذه الآية على الصبح، حتى لقد صار كأننا حيا يتنفس، بل إنسانا ذا عواطف وخلجات نفسية تشرق الحياة بإشراقه من ثغره المنفرج عن ابتسامة ودیعة وهو يتنفس بهدوء، وإذا تلا قوله تعالى: {بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ} ٣ لم ير في ذلك إلا ضرباً من استعارة محسوس لمعقول بوجه عقلي "فالقذف والدمغ مستعاران وهما محسوسان، والحق والباطل مستعار لهما وهما معقولان" ٤: فما في التعبير بالقذف من إيجاء، وبالدمغ من إشعاع، يظل غامضاً بهذا التفسير، ولكن جمال النص يكاد ينطق بالإفصاح عن نفسه حين نتخيل في الآية الحق -وهو معنى مجرد- أشبه بالجسم القوي العنيف الذي ينفذ في جسم الباطل الضعيف الخفيف، فيزج الباطل تحت وطأة الحق الشديدة التي تدمغه وتكاد تلصقه بالتراب، وتزهق روحه. وهكذا يجتمع في هذا المثل التجسيم والتشخيص والتخييل، وأما التجسيم ففي تصوير الحق بالقذيفة الثقيلة، وأما التشخيص ففي دمج الحق الباطل وإزهاقه إياه، وأما التخييل ففي تصور نوع الثقل الذي تحدته حركة القذف ثم الدمغ ثم الإزهاق، فإنها أصوات شداد توشك أن تكون صدی لعظام الباطل، وهي تتحطم وتقعقع ١.

وإذا قرأ السيوطي قوله تعالى في وصف جهنم: {إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورٌ، تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ} ٢ لم يجد في هذا المشهد المروع إلا استعارة معقول لمحسوس والجامع عقلي، مع أن تشخيص جهنم في هذه الآية هو الذي يجعل المشهد حافلاً بالحياة والحركة، فهي مغيظة مخنقة تحاول أن تكظم غيظها حين ألقى إليها المجرمون، ولكأن منظرهم البشع كان أشد من أن تتحمله وتصبر عليه، فتلقتهم بالأسنة لهبها وهي تنز وتشهق، وبمهلها وقطرانها وهي تغلي وتفور، حتى كاد صدرها ينفجر حقدا عليهم، ومقتا لوجوههم السود. فليس في الصورة استعارة معقول لمحسوس فقط، وإنما استعيرت لجهنم شخصية آدمية، لها انفعالات وجدانية، وخلجات عاطفية، فهي تشهق شهيق الباكين، وهي تغضب وتثور، وهي ذات نفس حادة الشعور ٣.

لسنا ندعي أن تحليلات الأقدمين لمشاهد القرآن الفنية لم تكن تتيح لهم أن يستشعروا جمال هذا الكتاب الكريم، وإنما نريد أن نقول: إن استشعارهم ذلك الجمال كان بطبيعة الحال متأثراً بمنهجهم الذي يجعل

للقاعدة البلاغية المكان الأول، ولكن للتقعيد مساوئ كثيرة أهمها أن جفاف العاطفة يفقد المشهد المرسوم قيمته التصويرية الفنية....

والخلاصة أننا لا نريد أن نستبدل التجسيم والتشخيص والتخييل بعبارات البلاغيين القدامى "التشبيه والاستعارة وما شابه ذلك" لأن هذه التسميات المختلفة شكلية لا تمس جوهر الموضوع في شيء، وإنما نريد ألا نغفل عن الحياة والحركة والتناسق الفني في المشاهد القرآنية، فإنها أوضح من أن تكتم، وأقوى من أن تحمل، وبعد ذلك فلنعبر عن الصورة المحسنة أو المتخيلة بالتعبير الذي نؤثره، فإما يكون من الاصطلاحات القديمة التي تبث فيها الحياة وتنفخ فيها الروح، وإما أن يكون بألفاظنا الحديثة السهلة التي تنفر من التعقيد وتأبى كلفة التقعيد، وتصور الحياة بريشة الحياة نفسها وبأصباغها الزاهية وألوانها البديعة"

النموذج الثاني من الفصل الرابع (الإعجاز في نغم القرآن) – الباب الرابع:

يقول: "إنّ هذا القرآن - في كل سورة منه وآية، وفي كل مقطع منه وفقرة، وفي كل مشهد منه وقصة، وفي كل مطلع منه وختام- يمتاز بأسلوب إيقاعي غني بالموسيقى مملوء نغما، حتى ليكون من الخطأ الشديد في هذا الباب أن نفاضل فيه بين سورة وأخرى أو نوازن بين مقطع ومقطع، لكننا حين نومي إلى تفرد سورة منه بنسق خاص، إنما نقرر ظاهرة أسلوبية بارزة تؤيدها بالدليل، وندعمها بالشاهد، مؤكداً أن القرآن نسيج واحد في بلاغته وسحر بيانه، إلا أنه متنوع تنوع موسيقى الوجود في أنغامه وألحانه....

وإن هذه الموسيقى الداخلية لتنبعث في القرآن حتى من اللفظة المفردة في كل آية من آياته، فتكاد تستقل -

بجرسها ونغمها- بتصوير لوحة كاملة فيها اللون زاهيا أو شاحبا، وفيها الظل شفيفا أو كثيفا....

وحين نسمع همس السين المكررة تكاد تستشف نعومة ظلها مثلما تستريح إلى خفة وقعها في قوله: {فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنُفِ، الْجَوَارِ الْكُنُفِ، وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ، وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ} ٢. بينما تقع الرهبة في صدرك وأنت تسمع لاهثا مكروبا صوت الدال المنذرة المتوعدة مسبوقة بالياء المشبعة المديدة في لفظة "تحيد" بدلا من "تنحرف" أو "تبتعد" في قوله: {وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ}... وليستولين عليك القلق وأنت تكرر هاء السكت في أكثر فواصل سور الحاقة، فتنسى وأنت تتلو قوله تعالى: {مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَّةٌ، هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَّةٌ} ٦ أن الذي هلك سطرانه من أوتي كتابه بشماله لا أنت ولا سلطانك، فتظل من الآيات في قلق شديد... ولا أحسبك إلا مستشعرا عنف لفظة الككبكة في قوله: {فَكَبَّكُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ} ٢ حتى لتكاد تتصور أولئك المجرمين يكبون على وجوههم أو على مناخرهم، ويلقون إلقاء المهملين، فلا يقيم أحد لهم وزنا!

إن يك هذا كله في اللفظة المفردة، تعبر مستقلة عن لوحة كاملة، فكيف بالآية التي تتناسق في جوها

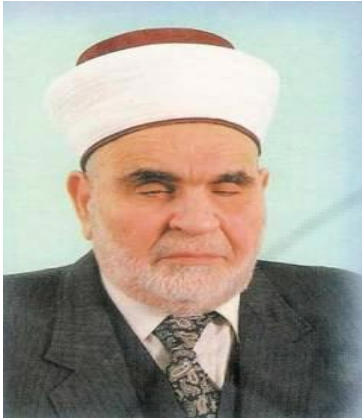
الكلمات، أو في السورة التي تنسجم حول فكرتها جميع الآيات!....

إن المرء ليحار إذا قرأ مثلاً سورة "الرحمن"، فيتساءل: هل انبعث إيقاعها الرخي المناسب من مطلعها أم من ختامها أم من خلال آياتها؟ وإذا هو يقطع بأن النغم يسري فيها كلها: في فواصلها ومقاطعها، وفي ألفاظها وحروفها، وفي انسياقها وانسيابها، حتى لو انتقي على حدة مقطع واحد من مقاطعها، أو موضوع واحد من موضوعاتها الجزئية، والتمس في أجزائه النغم والإيقاع، لكان في كل جزء منه نغمة، وفي كل حرف منه لحن من ألحان السماء!....

ومن سحر القرآن أن النغم الصاعد فيه خلال الدعاء يثير بكل لفظة صورة، وينشئ في كل لحن مرتعا للخيال فسيحا: فنتصور مثلاً -ونحن نرتل دعاء زكريا- شيخاً جليلاً مهيباً على كل لفظة ينطق بها مسحة من رهبة وشعاع من نور، ونتمثل هذا الشيخ الجليل -على وقاره- متأجج العاطفة، متهدج الصوت، طويل النفس، ما تبحر أصداء كلماته تتجاوب في أعماق قلوبنا شديدة التأثير. بل إن زكريا في دعائه ليحرك القلوب المتحجرة بتعبيره الصادق عن حزنه وأساه خوفاً من انقطاع عقبه، وهو قائم يصلي في المحراب لا يني ينادي اسم "ربه" نداء خفياً، ويكرر اسم "ربه" بكراً وعشياً، ويقول في لوعة الإنسان المحروم وفي إيمان الصديق الصفي: {رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا، وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا، يَرِنُّنِي وَيَرِثُ مِنْ آلٍ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا} ١. وإن البيان لا يرقى هنا إلى وصف العذوبة التي تنتهي في فاصلة كل آية بيائها المشددة وتنوينها المحول عند الوقف ألفاً لينة كأنها في الشعر ألف الإطلاق: فهذه الألف اللينة الرخية المناسبة تناسقت بها "شقياً-ولياً-رضياً" مع عبد الله زكريا، ينادي ربه نداء خفياً!!

المطلب الثالث: كتاب "إتقان البرهان في علوم القرآن" للدكتور فضل عباس (ت ١٤٣٢هـ - ٢٠١١م).

أولاً: التعريف بالدكتور فضل عباس (ت ١٤٣٢هـ - ٢٠١١م).



هو أحد أبرز علماء التفسير وعلوم اللغة والبلاغة، ولد في بلدة صفورية في فلسطين عام ١٩٣٢، في بيت صلاح وعلم، ورغم كونه كفيفاً أتم حفظ القرآن الكريم قبل أن يتم العاشرة من عمره، ثم حفظ من المتون العلمية، ثم انتقل بعد ذلك للدراسة في عكا، ودرس في المدرسة الأحمدية بجامع الجزائر بين عامي ١٩٤٦ و ١٩٤٧، ثم توجه بعدها إلى مصر عام ١٩٤٨ ليدرس في كلية أصول الدين في الأزهر ويتخرج منها عام ١٩٥٢ وعمره آنذاك عشرون عاماً، ويكون

أصغر طالب يتخرج من الكلية، ثم حصل على درجة الدكتوراه من الأزهر عام ١٩٧٢، وكانت رسالته بعنوان "اتجاهات التفسير في مصر والشام"، ومن أشهر شيوخه الأستاذ الدكتور محمد عبد الله دراز والشيخ عبد الحليم محمود شيخ جامع الأزهر، ثم بعد سنوات قضاها متنقلاً بين مصر ولبنان، استقر الشيخ داعية ومدرسا في كلية الشريعة بالأردن عام ١٩٦٦، حيث دَرَس علوم التفسير والحديث والتوحيد واللغة العربية وتلاوة القرآن الكريم، وسجلت له الإذاعة الأردنية أربعمئة حلقة إذاعية في تلاوة القرآن الكريم وتفسيره، كانت باكورة مسيرته العلمية التي أثمرت فيما بعد نتاجا كبيرا وهاما من المؤلفات والنظرات الجديدة في تفسير القرآن الكريم، وله ما يزيد عن ٣٧ مؤلفاً، من أشهرها في علوم القرآن:

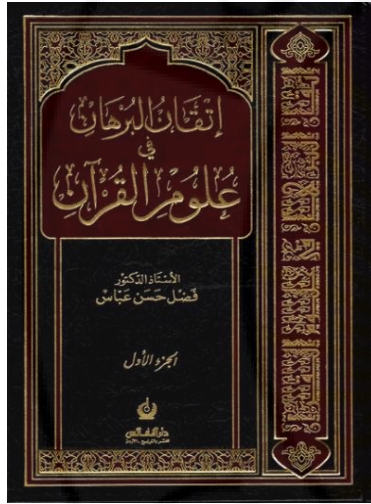
(إتقان البرهان في علوم القرآن - إعجاز القرآن الكريم - القصص القرآني، إيجاهه ونفحاته - قضايا قرآنية في الموسوعة البريطانية، نقض مطاعن ورد شبهات - اتجاهات التفسير ومناهج المفسرين في العصر الحديث - الدكتور بنت الشاطيء والبيان القرآني - الكلمة القرآنية وأثرها في الدراسات اللغوية - شبهات حول نشأة التفسير - شبهات حول القراءات القرآنية...)

كان رحمه الله سريع البديهة صاحب فراسة عجيبة عزيز النفس كريم الخلق، رجلاً قرآنياً، محباً للعلم وأهله، بينه مفتوحاً للجميع، لا يحب الشهرة والحديث عن نفسه، عف اللسان، حلو الكلام، صادقاً في نصحه، قوي الموقف، جريئاً في الحق، مع شرف الباعث وسلامة العبارة، وحسن البيان، يقول جمال أبو حسان: " وقد يخالف بعض أساتذته في المذهب أو بعض الآراء فلا والله ما رأيته قط عرّض بصاحب رأي من أصحاب الفضل عليه.. لا يذكر يوماً أستاذاً من أساتذته إلا وأثنى عليه".

يقول فيه الأستاذ الدكتور نور الدين عتر : " أخي العلامة المحقق المدقق فضل حسن عباس جمعني بفضيلته رحم العلم، لم أحظ بلقيه ، لكن كتبه التي كانت ترد كتابا بعد كتاب يُتلج كل واحد منها صدري، ثم المكالمات الهاتفية المطولة بيننا زادت شعوري بفضله .. والمؤلفات الثرة العدد الثرية بالعلم المتنوعة بالاتجاهات التي أثرى الدكتور فضل المكتبة الإسلامية والعربية .. فضلا عن رحم العلم ووحدة المنهج التي شعرت بها في في مطالعاتي كتبه الثرية.. ولا نظن الشخ إلا واحدا من الذين خدموا القرآن الكريم بإخلاص وجمعوا بين العلم الوفير والسلوك القويم"^١

شغلت المؤامرة على الإسلام وأهله مساحة واسعة من تفكيره، حيث كان شهد ضياع فلسطين والمقدسات الإسلامية وهيمنة الاستعمار على وثقافته الاستشراقية على ميادين الفكر والثقافة في الدول العربية.

ثانياً: التعريف بكتاب إتقان البرهان في علوم القرآن



كتاب قيم، يُعد من أهم مؤلفات الدكتور فضل ، ويعده الدكتور يوسف الشرجي في دراسته " جهود الأمة في علوم القرآن في العصر الحديث "من أحسن الكتب في علوم القرآن في العصر الحاضر"، أخذ عنوانه من مجموع كتابين سابقين شهيرين في علوم القرآن؛ هما البرهان في علوم القرآن للزركشي، والإتقان في علوم القرآن للسيوطي، والكتاب يقع في مجلدين، وعدد صفحاته ٩٨٠ صفحة. وعدد فصوله ثمانية وعشرون فصلاً.

وقد تميّز الكتاب بالآتي:

- اعتمد فيه المؤلف على ما كتبه السابقون مع النقد والموازنة والترجيح، و لا يقبل قولاً إلا بدليل واضح وحجة قوية ، وهو يناقش كثيراً من الأقوال المبتوثة في كتب علوم القرآن بهذا المنهج فلا يرتضي كثيراً منها .

^١ دراسات إسلامية وعربية: ٤٧.

- تميّز الكتاب بما أورده من شبهات المستشرقين وتفنيدها في كثير من أبواب الكتاب وخاصة باب الوحي، ونزول القرآن، وجمع القرآن، وترجمة القرآن وغيرها^١.

- من الجديد في الكتاب حديثه في آخره عن شبهات المستشرقين المشهورين دي بور، ودوزي، وفنسك، كما كتب عن ثلاثة من دعاة الحداثة ورموز العلمانية من العرب وهم محمد أركون ونصر حامد أبو زيد، ومحمد شحرور.. وقل أن تجد من كتب في علوم القرآن مناقشة شبهات هؤلاء وخاصة الثلاثة المتأخرين وأمثالهم فما أكثرها وأخبثها!

- تميّز بكثرة الآراء التي تفرّد بها المؤلّف رحمه الله تعالى، والتي تحتاج للتحليل والمناقشة.

- خرج الكتاب عن المألوف في التصنيف في علوم القرآن الكريم، فهو كما وصفه مؤلفه يتسم بالجِدَّة والجِدِّيَّة.

ثالثاً : نماذج تطبيقية من كتاب إتقان البرهان: (الفصل السابع والعشرون : شبهات المحدثين):

يقول رحمه الله " شبهات المستشرقين : .. شبهات المستشرقين غدت بينة الأهداف واضحة النتائج عند كثير من الناس، فلاستشراق والتبشير جناحان وركيزتان للاستعمار، وليس غريباً أن يكون للمستشرقين شبهات على القرآن الكريم فهذا دأبهم ... ، ولقد كانت شبهات المستشرقين التي أثاروها حول القرآن الكريم تنتظم مجالات متعددة، منها ما أثاروه حول لغة القرآن، ومنها ما أثير حول أحكامه، ومنها ما أثير حول عقائده، وسأذكر لكم في هذا النمط بعض الشبهات لتلتمسوا بأنفسكم الوبون الشاسع بين ما يُدعى للمستشرقين من موضوعية في البحث ونزاه في الحكم ودقة في النتائج وبين الحقيقة والواقع .

أولاً : يقول/ده بور/ في كتابه "تاريخ الفلسفة في الإسلام" : (جاء القرآن للمسلمين بدين ولم يأتم بنظريات، وتلقوا فيه أحكاماً ولم يتلقوا فيه عقائد).

خلاصة ردّ الدكتور فضل:

^١ وللمؤلف كتاب آخر جيد في بابه هو كتاب (قضايا قرآنية في الموسوعة البريطانية) ناقش فيها أباطيل كثيرة وردت في مادة (قرآن) في الموسوعة البريطانية، أوردها المستشرقون وتلاميذهم.

وليت شعري إن لم تكن العقائد في القرآن فأين توجد؟! إنّ التراث الإسلامي الذي ملأ المكتبات كان القرآن أساسه ومبدأه، فقد أمدَّ القرآن الأفكار والأقلام فأبدعت القواعد في أصول الفقه والنظريات في البلاغة والتشريع، كل الأحكام الفقهية التي تتصل بالإنسان والحياة والكون - وهي ما يعبر عنه اليوم بالقوانين - ترجع في أصولها وتستند إلى القرآن، قال تعالى : (ونزلنا عليك القرآن تبياناً لكل شيء) [النحل: ٨٩].

"ثانياً ليس في القرآن تناقض: زعم (ده بور - جريم - كولد زيهير) أن في القرآن تناقضاً، وأن الرعيل الأول قبلوا هذا التناقض وسكتوا عنه"

خلاصة ردّ الدكتور فضل:

- هذه الدعوى تذكرنا بما ردد كفار مكة (وإذا بدلنا آية مكان آية قالوا أن ما أنت مفتر...) - القرآن الكريم يرد هذه الفرية، قال تعالى : (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كبيراً) (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه)
- المستشرقون بعيدون عن تذوق الأسلوب العربي؛ فعندما وقفوا أما أبات يوهم ظاهرها الجبر وأخرى يومه ظاهرها حرية الاختيار، وآيات أخرى يوهم ظاهرها التشبيه وأخرى التنزيه ، فظنوا ذلك تناقضاً .
- بل " ذهبوا في مغالطتهم إلى أنّ الآيات تحدثت في العهد المكي عن حرية الإنسان حتى لا يحتد العرب بأنهم مجبرون على ما يعملون ، اما الآيات في العهد المدني فكانت على غير هذا المنوال.. والذي يتدبر الآيات مكيها ومدنيها، يحكم على هذه الأقوال بالفساد والبطلان، فمن هذه الحيشة ليس هناك فرق بين القرآن المكي والمدني فقلوه سبحانه (وماتشاؤون إلا أن يشاء الله) الإنسان: ٣٠، وهذه الآية كما نرى تُرجع المشيئة إلى الله وحده هي آية مكية وكذلك قوله (وما يذكرون إلا أن يشاء الله) المذثر: ٥٦ وكذلك قوله (من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلاً) الفرقان: ٥٧.... وقوله: (وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء..) النحل: ٣٥، وما يشبهها من آيات كلها آيات مكية، لا يماري في ذلك عاقل أفيجوز بعد ذلك أن يُقال إن الآيات المكية تتحدث عن حرية الاختيار حتى لا يتعلل العرب بأنهم مجبورون، وقد رأينا أن الآيات التي تتعلل بها العرب بالجبر ذُكرت في أكثر من سورة في القرآن المكي : في سورة النحل (وقال الذين أشركوا لو شاء الله ..) النحل ٣٥، وفي سورة الأنعام (سيقول الذين أشركوا..) الأنعام: ١٤٨، والحق أنّ معاني هذه الآيات ليس له صلة من قريبٍ أو

بعيد بالمكان وكونه مكياً أو مديناً، كما أنه ليس فيها أي شيء من التناقض؛ بل هي تتحدث عن دائرتين، إحداهما تتحدث عن حرية الإنسان؛ لأنه هو المخلوق الذي يختلف عن غيره من حيث العقل الذي وهبه الله له، والأخرى تتحدث عن قضية أعم وهي هيمنة الله تعالى على كل شيء، وحل هذه القضية ليس هذا الكتاب، كذلك يقال عن الآيات التي تتصل بذات الله تعالى مثل قوله (ليس كمثله شيء) الشورى: ١١ ، وقوله (يد الله فوق أيديهم) الفتح: ١٠ فإنه ليس في ذلك تناقض كذلك، والأسلوب العربي يتسع لأكثر من هذا عند ذوي الذوق، فمن ذاق عرف، ولبعض الأفاضل كتب تحدثوا فيها عما يؤهم التناقض أو التعارض في كتاب الله ومن ذلك كتاب الشيخ الشنقيطي ومسائل الرازي وغيرهما....

٤- ادعى /فنسك/: أن رسالة النبي صلى الله عليه وسلم كانت للعرب وحدهم، واستدل ببعض الآيات التي تصف القرآن بأنه عربي، وبعض الآيات التي تحض على إنذار العشيرة والبلدة، وقال أنما في القرآن من آيات تشير إلى عموم الرسالة تُردُّ إلى الآيات التي تبين خصوصية الدعوة، وزعم أن أرسال الكتب إلى كسرى وقيصر ليس صحيحاً بل هو من وضع الخلفاء ليسوغوا فتوحاتهم لتلك البلاد وغيرها

خلاصة رد الدكتور فضل :

الآيات التي كان الإنذار فيها خاصاً كانت في بداية الدعوى وهذا أمر طبيعي، والآيات التي تصف القرآن بأنه عربي لا تدل على أنه كان للعرب وحدهم قال تعالى: (لأنذرکم به ومن بلغ) الأنعام: ١٩، ولقد جاء فقي السنة المطهرة كثير من الأحاديث التي تدل على عموم رسالته (أعطيت خمساً .. وبعثت إلى كل أحر وأسود) صحيح مسلم، ونقول له: إذا كنت تقرر برسالة النبي صلى الله عليه وسلم ونبوته فإن ذلك يوجب تصديقه؛ لأنه إذا كان نبياً فيجب أن يكون صدقاً لأن النبوة والكذب لا يجتمعان.

الحمد لله رب العالمين

القسم الثاني

"دراسات معاصرة في التفسير"

المبحث الأول: الاتجاه الأدبي الاجتماعي

مدرسة الشيخ محمد عبده

المبحث الثاني : الاتجاه العلمي في التفسير

الشيخ طنطاوي جوهري أنموذجاً

المبحث الثالث: الاتجاه الأدبي في تفسير القرآن الكريم - أمين

الخولي و بنت الشاطي أنموذجاً

المبحث الرابع : الاتجاه الموضوعي في التفسير في العصر الحديث

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسوله الأمين محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن تبعهم بإيمان وإحسان واجتهاد إلى يوم الدين.

تمهيد : التفسير بين ماضيه وحاضره:

لم يترك الأوائل للأواخر كبير جهد في تفسير كتاب الله تعالى، والكشف عن معانيه ومراميها؛ إذ إنهم نظروا إلى القرآن الكريم باعتباره دستورهم الذي جمع لهم بين سعادة الدنيا والآخرة، فتناولوه من أول نزوله بدراساتهم التفسيرية التحليلية، دراسة سارت مع الزمن على تدرج ملحوظ، وتلون بألوان متعددة حسب الظروف التاريخية والبيئات والحاجات العلمية المختلفة، وشخصية كل مفسر ومرجعياته ومقاصده واللون العلمي الغالب عليه.

والذي يقرأ كتب التفسير على اختلاف ألوانها، لا يدخله شك في أن كل ما يتعلّق بالتفسير من الدراسات المختلفة قد وفاه هؤلاء المفسّرون الأقدمون حقّه من البحث والتحقيق، فالناحية اللغوية، والناحية البلاغية، والناحية الأدبية، والناحية النحوية، والناحية الفقهية، والناحية المذهبية، والناحية الكونية الفلسفية. كلّ هذه النواحي وغيرها تناولها المفسّرون الأول بتوسّع ظاهر ملموس، لم يترك لمن جاء بعدهم - إلى ما قبل عصرنا بقليل - من عمل جديد، أو أثر مبتكر يقومون به في تفاسيرهم التي ألفوها، اللهم إلا عملاً ضئيلاً لا يعدو أن يكون جمعاً لأقوال المتقدمين، أو شرحاً لغامضها، أو نقداً وتفنيداً لما يعتوره الضعف منها، أو ترجيحاً لرأي على رأي، ممّا جعل التفسير يقف وقفة طويلة مليئة بالركود، خالية من التجديد والابتكار.

— سمات التفسير في العصر الحديث:

ولقد ظلّ الأمر على هذا المنوال، وبقي التفسير واقفاً عند هذه المرحلة - مرحلة الركود والجمود - لا يتعدّاها، ولا يحاول التخلص منها، حتّى جاء عصر النهضة العلمية الحديثة، فابّجّحت أنظار العلماء الذين لهم عناية بدراسة التفسير إلى أن يتحرّروا من قيد هذا الركود، ويتخلّصوا من نطاق هذا الجمود، فنظروا في كتاب الله نظرة - وإن كان لها اعتماد كبير على ما دونه الأوائل في التفسير - أثّرت في الاتجاه التفسيري للقرآن تأثيراً لا يسعنا إنكاره، ذلك هو العمل على التخلص من كلّ هذه الاستطرادات العلمية، التي حشّرت في التفسير حشراً، ومزجت به على غير ضرورة لازمة، والعمل على تنقية التفسير من القصص الإسرائيلي الذي كاد يذهب بجمال القرآن وجلاله، وتمحيص ما جاء فيه من الأحاديث الضعيفة أو الموضوعية على رسول الله صلى الله عليه وسلم، أو على

أصحابه عليهم رضوان الله تعالى، وإلباس التفسير ثوباً أدبياً اجتماعياً، يُظهر روعة القرآن الكريم، ويكشف عن مراميهِ الدقيقة وأهدافه السامية، والتوفيق يجد بالغ وجهه ظاهر بين القرآن الكريم وما جَدَّ من نظريات علمية صحيحة، وكان ذلك من أجل أن يعرف المسلمون وغير المسلمين أنَّ القرآن هو الكتاب الخالد، الذي يتمشى مع الزمن في جميع أطواره ومراحله...

وهناك غير هذه الآثار آثار أخرى ظهرت في حركة التفسير في هذا العصر الحديث، نشأت عن عوامل مختلفة، أهمها: تغير السياق التاريخي للعالم الإسلامي منذ نهاية القرن التاسع عشر، الذي تمثّل بضعف الدولة العثمانية ومن ثم سقوطها، والفرغ السياسي والديني والعلمي الذي خلفه هذا السقوط؛ والتطور العلمي في الغرب، وظهور الحركة الاستعمارية الغربية واكتساحها العالم الإسلامي ونهب ثرواته؛ والصدام الثقافي والحضاري مع الغرب الغازي، وظهور المشاريع السياسية والتيارات الفكرية الجديدة في العالم الإسلامي منذ نهاية القرن التاسع عشر الميلادي. في ضوء التفاعل مع هذه العوامل ظهرت عدة اتجاهات تفسيرية، أبرزها الاتجاهات الأربعة الآتية: أولاً: الاتجاه الأدبي الاجتماعي. ثانياً: الاتجاه العلمي. ثالثاً: الاتجاه الأدبي والبياني. رابعاً: الاتجاه الموضوعي.

المبحث الأول: الاتجاه الأدبي الاجتماعي: مدرسة الشيخ محمد عبده

يمتاز التفسير في هذا الاتجاه بأنه يتلوّن باللون الأدبي الاجتماعي، ونعني بذلك: أنَّ التفسير لم يعد يظهر عليه في هذا الاتجاه ذلك الطابع الجاف. الذي يصرف الناس عن هداية القرآن الكريم، وإنّما ظهر عليه طابع آخر، وتلوّن بلون يكاد يكون جديداً وطارئاً على التفسير، ذلك هو معالجة النصوص القرآنية معالجة تقوم أولاً وقبل كلّ شيء على إظهار مواضع الدقّة في التعبير القرآني، ثمّ بعد ذلك تُصاغ المعاني التي يهدف القرآن إليها في أسلوب شيق أخّاذ، ثمّ يطبّق النصّ القرآني على ما في الكون من سنن الاجتماع، ونُظّم العمران.

وإذا كان هذا الاتجاه الأدبي الاجتماعي يعتبر في نظرنا عملاً جديداً في التفسير، وابتكاراً يرجع فضله إلى مُفسّري هذا الاتجاه الحديث، فإنّنا نستطيع أن نقول بحق: إنّ الفضل في هذا الاتجاه التفسيري يرجع إلى مدرسة الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده في التفسير. هذه المدرسة التي قام زعيمها - ورجالها من بعده - بمجهود كبير في تفسير كتاب الله تعالى، وهداية الناس إلى ما فيه من خير الدنيا وخير الآخرة.

نعم .. قامت هذه المدرسة بمجهود كبير في تفسير كتاب الله تعالى، مجهود نحمد لها الكثير منه، ولا نوافقها على بعض منه قليل.

__ مزايا هذه المدرسة:

فالذي نحمده لهذه المدرسة:

__ أُنْهَتْ نظرت للقرآن نظرة بعيدة عن التأثير بمذهب من المذاهب، فلم يكن منها ما كان من كثير من المفسرين من التأثير بالمذهب إلى الدرجة التي تجعل القرآن الكريم تابعاً لمذهبه، فيؤول القرآن بما يتفق معه، وإن كان تأويلاً متكلفاً وبعيداً. يقول محمد عبده: "أريد أن يكون القرآن أصلاً تُحمل عليه المذاهب والآراء في الدين، لا أن تكون المذاهب أصلاً والقرآن هو الذي يُحمل عليها. ويُرجع بالتأويل أو التحريف إليها، كما جرى عليه المخدولون، وتاه فيه الضالّون"^١.

__ كما أُنْهَتْ وقفت من الروايات الإسرائيلية موقف الناقد البصير، فلم تُشَوِّهِ التفسير بما شَوِّه به في كثير من كتب المتقدمين، من الروايات الخرافية المكذوبة، التي أحاطت بجمال القرآن وجلاله، فأساءت إليه وجرت الطاعنين عليه.

__ كذلك لم تغترّ هذه المدرسة بما اغترّ به كثير من المفسرين من الأحاديث الضعيفة أو الموضوعية التي كان لها أثر سيء في تفسير القرآن الكريم.

__ ولقد كان من أثر عدم اغترار هذه المدرسة بالروايات الإسرائيلية، والأحاديث الموضوعة. __ ولم تخض في تعيين ما أبهمه القرآن، ولم تجرؤ على الخوض في الكلام عن الأمور الغيبية، التي لا تُعرف إلا من جهة النصوص الشرعية الصحيحة، بل قرّرت مبدأ الإيمان بما جاء من ذلك مجملاً، ومنعت من الخوض في التفصيلات والجزئيات، وهذا مبدأ سليم، يقف حاجزاً منيعاً دون تسرب شيء من خرافات الغيب المظنون إلى المعقول والعقائد.

__ كذلك نجد هذه المدرسة أبعدت التفسير عن التأثير باصطلاحات العلوم والفنون، التي رُجِّح بها في التفسير بدون أن يكون في حاجة إليها، ولم تتناول من ذلك إلا بمقدار الحاجة، وعلى حسب الضرورة فقط.

^١ تفسير سورة الفاتحة وست سور من خواتيم القرآن، محمد رشيد رضا، ٥٤.

— ثمَّ إنّ هذه المدرسة، نهجت بالتفسير منهجاً أدبياً اجتماعياً، فكشفت عن بلاغة القرآن وإعجازه، وأوضحت معانيه ومراميّه، وأظهرت ما فيه من سنن الكون الأعظم، ونظم الاجتماع، وعالجت مشاكل الأمة الإسلامية خاصّة، ومشاكل الأمم عامّة، بما أرشد إليه القرآن، من هداية وتعاليم، جمعت بين خيري الدنيا والآخرة.

— ووفّقت بين القرآن الكريم وما أثبتته العلم من نظريّات صحيحة، وجلت للناس أنّ القرآن كتاب الله الخالد، الذي يستطيع أن يساير التطوّر الزمنيّ والبشريّ، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، ودفعت ما ورد من شبه على القرآن، وفنّدت ما أثير حوله من شكوك وأوهام، بحجج قويّة قذفت بها على الباطل فدمغته فإذا هو زاهق .. كلّ هذا بأسلوب شيق جذّاب يستهوي القارئ، ويستولي على قلبه، ويحبّب إليه النظر في كتاب الله، ويرغبه في الوقوف على معانيه وأسراره .

— نقد هذه المدرسة:

أمّا ما نأخذه على هذه المدرسة، فهو أنّها أعطت لعقلها حريّة واسعة، فتأوّلت بعض الحقائق الشرعيّة التي جاء بها القرآن الكريم، وعدلت بها عن الحقيقة إلى المجاز أو التمثيل، وليس هناك ما يدعو لذلك إلّا مجرد الاعتقاد بأنّ ظاهر هذه الحقائق فيه خرق للسنن الكونية وخرق لنظام الأسباب والمسببات .

كما أنّها بسبب هذه الحرّيّة العقليّة الواسعة جارت المعتزلة في بعض تعاليمها وعقائدها، وحملت بعض ألفاظ القرآن من المعاني ما لم يكن معهوداً عند العرب في زمن نزول القرآن، وطعنّت في بعض الأحاديث: تارة بالضعف، وتارة بالوضع، مع أنّها أحاديث صحيحة رواها البخاري ومسلم، وهما أصحّ الكتب بعد كتاب الله تعالى بإجماع أهل العلم، كما أنّها لم تأخذ بأحاديث الآحاد الصحيحة الثابتة في كلّ ما هو من قبيل العقائد، أو من قبيل السمعيّات، مع أنّ أحاديث الآحاد في هذا الباب كثيرة لا يُستهان بها. وما يُقال من أنّ خبر الواحد لا تثبت به عقيدة إجماعاً، فيه نظر من وجوه:

الأول: أنّ دعوى الإجماع باطلة، فإنّ للعلماء أربعة أقوال في إفادة خبر الواحد العلم:

١- يفيد الظنّ مطلقاً.

٢- يفيد العلم بقرينة.

٣- يفيد العلم من غير قرينة باطّراد.

٤- يفيد العلم من غير قرينة لا باطّراد.

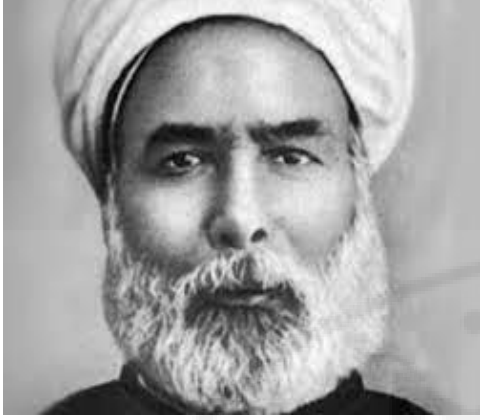
الثاني: إذا جرينا على أنّ خبر الواحد يفيد العلم، أمكن أن تثبت به عقيدة، وإذا جرينا على أنّه يفيد الظن، أمكن أن تثبت به العقيدة إذا احتقّت به قرائن - على المختار - لإفادته العلم حينئذ، ومن هنا جزم ابن الصلاح وغيره بأنّ أحاديث الصحيحين التي لم تُنتقد عليهما تفيد العلم؛ فإنّ الأئمة قد تلقّتهما بالقبول، وهي معصومة من الخطأ، وظنّ المعصوم لا يخطئ^١.

الثالث: أنّه ليس المراد من العقيدة كلّ ما يعتقّد، وإلاّ لتناول ذلك الفروع الفقهيّة، فإنّه لا يسوغ العمل بها إلّا بعد اعتقاد صحّة الحكم فيها، وإنّما المراد بالعقائد أصولها، وهو ما كان الإخلال بها موجباً للكفر، كالإيمان بالله وباليوم الآخر. وأمّا الأحاديث الواردة في الحوادث الماضية، أو المستقبلية، أو المتعلّقة بتفاصيل اليوم الآخر وما فيه، فلا يُشترط فيها التواتر، لأنّ هذه الأمور ليست من قبيل العقائد التي يترتّب على عدم تصديقها الكفر والعياذ بالله تعالى، ولكن يُكتفي فيها بأن تكون من طريق صحيح.

— أهمّ رجال هذه المدرسة:

إنّ أهمّ رجال هذه المدرسة، هو الشيخ محمد عبده (١٩٠٥م) إمامها ورأبدها الأول، ثمّ خليفته السيّد محمد رشيد رضا (ت ١٩٣٥م)، والشيخ محمد مصطفى المراغي (١٩٤٥م) في مصر، وهما خير من أنجبت هذه المدرسة، وخير من ترسّم خطأ الشيخ عبده، وسار على منهجه وطريقته في التفسير. ونذكر من أعلام هذه المدرسة أيضاً الشيخ عبد الحميد بن باديس (ت ١٩٤٠م) في الجزائر، والشيخ عبد القادر المغربي (ت ١٩٥٦م) في سوريا.

١ انظر: مقدّمة ابن الصلاح في علوم الحديث، ١٤-٣٥.



— رائد هذه المدرسة الشيخ محمد عبده، ومنهجه في التفسير:

— لمحة عن حياته: ولد محمد عبده في عام (١٨٤٩م) في محلة

نصر التابعة لمركز شبراخيت، في مديرية البحيرة، شمالي مصر، درس القرآن ومبادئ العلوم في قريته، ثم انتقل إلى الجامع الأحدي في طنطا حيث حفظ القرآن وجوّده، ودرس العلوم الشرعية واللغوية الأساسية لمدة أربع سنوات، ثم انتقل إلى القاهرة ودرس في الأزهر

الشريف، وتخرج منه ونال درجة العالمية في عام (١٨٧٧م). لازم جمال الدين الأفغاني أثناء إقامته في مصر من عام (١٨٧١ إلى عام ١٨٧٩م) وتأثر بآرائه.

بعد تخرجه درس في الأزهر (المنطق والفلسفة) ثم في دار العلوم (التاريخ، وبشكل خاص مقدمة ابن خلدون)، وفي مدرسة الألسن (اللغة العربية). وفي هذه المرحلة كتب عدة مقالات إصلاحية ونشرها في مجلة الأهرام، ثم عين رئيساً لتحرير مجلة "الوقائع المصرية"، ثم عضواً في المجلس الأعلى للمعارف العمومية، إثر نشوب ثورة عرابي في عام (١٨٨٢م) نُفي عبده من مصر، حيث ذهب إلى بيروت وبقي فيها حوالي السنة ثم التحق في عام (١٨٨٤م) بالأفغاني في باريس ليعمل معه على إصدار مجلة العروة الوثقى التي أُغلقت بعد ثمانية أشهر فقط بسبب مناهضتها للمشروع الاستعماري الفرنسي والإنكليزي للعالم الإسلامي، وما ينتج عن هذا المشروع من آثار دينية وسياسية واجتماعية واقتصادية كارثية. ثم عاد إلى بيروت ليعمل في التدريس في المدرسة السلطانية، وهناك ألف كتابه "رسالة التوحيد"، وحقق وشرح كتاب "نهج البلاغة"، وكتاب "مقامات بديع الزمان الهمذاني"، وأرسل عدة رسائل إصلاحية للدولة العثمانية وولاية سوريا ركّز فيها على إصلاح التعليم والمؤسسات الحكومية والتعليمية؛ وبقي في بيروت إلى عام (١٨٨٩م) حيث عاد إلى مصر واشتغل في مجال القضاء، ثم أصبح مستشاراً في محكمة الاستئناف في القاهرة، ثم عضواً في مجلس إدارة الأزهر، ثم عُين في عام (١٨٩٩م) مفتياً للديار المصرية.

اشترك الشيخ محمد عبده في تأسيس عدة جمعيات منها "الجمعية الخيرية الإسلامية"، و"جمعية إحياء العلوم العربية"، وترك عدة مؤلفات بالإضافة إلى ما ذكر، منها: "الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية"، "الإسلام والرد على منتقديه"، ونشر بتحقيقه كتابي "دلائل الإعجاز" و"أسرار البلاغة" لعبد القاهر الجرجاني. توفي رحمه الله في عام ١٩٠٥م.

— نتاجه في التفسير:

إذا نحن ذهبنا نستقصي ما أنتجه لنا الأستاذ الإمام من عمل في التفسير، فإننا نجد له تفسيره المشهور لجزء "عم" ذلك التفسير الذي ألفه بمشورة من بعض أعضاء الجمعية الخيرية الإسلامية، ليكون مرجعاً لأساتذة مدارس الجمعية في تفهيم التلاميذ معاني ما يحفظون من سور هذا الجزء، "لينشؤوا متعودين على فهم ما يحفظون، وتدبر ما يقرؤون، وليكون ما في تلك السور من دلائل التوحيد والعظات والعبر مشرفاً للعقائد السليمة في نفوسهم، وعاملاً للإصلاح في أعمالهم وأخلاقهم"^١، ولقد أتم الأستاذ الإمام تفسير هذا الجزء في سنة (١٩٠٢م)، ببلاد المغرب، وبذل جهده كما يقول: "في أن تكون العبارة سهلة التناول، خالية من الخلاف، وكثرة الوجوه في الإعراب، بحيث لا يحتاج في فهمها إلا أن يعرف القارئ كيف يقرأ، أو السامع كيف يسمع، مع حسن النية وسلامة الوجدان"^٢.

كذلك نجد له تفسيراً مطوّلاً لسورة "العصر" كان قد ألقاه، على هيئة محاضرات على علماء مدينة الجزائر ووجهائها في سنة (١٩٠٣م)^٣. يقول محمد رشيد رضا عن هذا التفسير: "هذا التفسير آية من آيات الله عز وجل"، يظهر به معنى قول الإمام الشافعي رضي الله عنه: لو لم ينزل إلا هذه السورة لكفت الناس، وفي رواية: لو تدبر الناس هذه السورة لكفتهم"^٤.

كذلك نجد له بعض البحوث التفسيرية التي عالج فيها بعض مشكلات القرآن، ودفع بها بعض ما أثير حول القرآن الكريم من شكوك وإشكالات، كتفسيره لقوله تعالى في الآية [٧٨] من سورة النساء: { وَإِنْ تُصِيبُهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا } وقوله في الآية [٧٩] من السورة نفسها: { مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا } وجمعه بينهما، وتوفيقه بين ما يُظنّ فيهما من تناف وتضاد، وهو نسبة أفعال العباد تارة إلى الله تعالى، وتارة إلى العبد.

١ تفسير جزء "عم"، محمد عبده، الجمعية الخيرية الإسلامية، مطبعة مصر، ١٣٤١هـ، ص ٢. يقول محمد عبده: "قرأت تفسير سورة العصر في سبعة أيام، وكلّ درس لا يقلّ عن ساعتين، أو ساعة ونصف"، تفسير المنار، رشيد رضا، ط ٢، بيروت، دار المعرفة، ١٣/١.

٢ تفسير جزء "عم"، محمد عبده، ٢.

٣ تفسير سورة الفاتحة وست سور من خواتيم القرآن، محمد رشيد رضا، ٥.

٤ تفسير سورة الفاتحة وست سور ... محمد رشيد رضا، ٥.

وتفسيره لقوله تعالى في الآية (٥٢) وما يليها من سورة الحج: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ}، وتفنيده لما بُني عليها من تفسير يذهب بعصمة النبي صلى الله عليه وسلم، ويرفع الأمان عن الوحي الذي تكفل الله تعالى بحفظه^١.

وكتفسيره لقوله تعالى في الآية [٣٧] من سورة الأحزاب: {وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا} وردّه لما أُلصق بها من روايات باطلة، تُصوّر النبي صلى الله عليه وسلم بصورة الرجل الشهواني، وإبطاله لكل ما أُثير حول هذه القصة - قصة زيد وزينب - من مطاعن رُمي بها رسول الله صلى الله عليه وسلم زوراً وبهتاناً^٢.

وكذلك نجد من آثار الأستاذ الإمام في التفسير، تلك الدروس التي ألقاها في الأزهر الشريف على تلاميذه ومريديه، وكان ذلك بمشورة تلميذه محمد رشيد رضا، وإقناعه به، كما يقول هو في مقدّمة تفسيره^٣. وقد ابتدأ الأستاذ الإمام بأول القرآن في عُرة المحرم سنة ١٣١٧هـ، وانتهى عند تفسير قوله تعالى في الآية [١٢٦] من سورة النساء: {وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطًا} وذلك في منتصف المحرم سنة ١٣٢٣هـ، إذ توفّي رحمه الله في السنة نفسها^٤.

وإذا كان الأستاذ الإمام قد ألقى هذه الدروس في التفسير على طلابه ولم يدوّن شيئاً، فإننا لا نرى حرجاً من جعلها أثراً من آثاره في التفسير. وذلك: لأنّ تلميذه محمد رشيد رضا كان يكتب في أثناء إلقاء هذه الدروس

١ يقول الشيخ حسين محمد مخلوف في تفسيره "صفوة البيان لمعاني القرآن" ما نصه: "وقد ذكر كثير من المفسرين في تفسير هذه الآيات قصة الغرائق المشهورة، وهي من وضع الزنادقة كما قال محمد بن إسحاق. وقال البيهقي: إنها غير ثابتة من جهة النقل، ثم طعن في روايتها. وقال القاضي عياض في الشفاء: (يكفيك في توهين هذا الحديث أنه لم يُخرجه أحدٌ من أهل الصحة، ولا رواه ثقةٌ بسند صحيح متصل، وهو مما أُلّع به ويمثله المفسرون والمؤرخون المولعون بكل غريب، المتلقفون من الصحف كلّ صحيح وسقيم. وشنّع عليهم الإمام أبو منصور الماتريدي وقال: إن حضرة الرسالة بريئة من مثل هذه الرواية)"، صفوة البيان لمعاني القرآن، حسين محمد مخلوف، ط٣، الكويت، ١٩٨٧م، ٤٣٢.

٢ نُشرت هذه البحوث التفسيرية باسم محمد عبده بعد وفاته، بعد ضمّ تفسيره لسورة الفاتحة، ومقالاته عن العلم والتعليم، وسنن الله في الأمم إليها، في عدة كتب، منها كتاب "دروس من القرآن الكريم" بتقديم طاهر الطناحي، نشر في القاهرة، سلسلة كتاب الهلال، عام ١٩٥٩م.

٣ تفسير المنار، ٤/١.

٤ المرجع نفسه.

مذكرات يودعها أقوال الأستاذ الإمام، ثم يحفظ ما كتب ليمنه بما يذكره من أقواله وقت الفراغ، ثم يقوم بعد ذلك بنشر ما كتب في مجلته "المنار" وكان يُطلع الأستاذ الإمام على ما أعدّه للطبع، كلما تيسر ذلك بعد جمع حروفه في المطبعة وقبل طبعه، فكان ربما يُنقح فيه بزيادة قليلة، أو حذف كلمة أو كلمات. قال: "ولا أذكر أنه انتقد شيئاً مما لم يره قبل الطبع، بل كان راضياً بالمكتوب، معجباً به".^١

هذا هو كلّ ما وصلنا إليه من نتاج الأستاذ الإمام في التفسير، وهو وإن كان نتاجاً يُعد قليلاً بالنسبة لهذه الشخصية البارزة، إلا أنه - والحق يقال - كان له أثر بالغ في تطوّر التفسير واتجاهاته في العصر الحديث.

__ طريقة محمد عبده في التفسير:

يحدثنا محمد رشيد رضا عن طريقة شيخه عبده في دروس التفسير فيقول: "كانت طريقته في قراءة الدرس على مقربة مما ارتآه في كتابة التفسير، وهو أن يتوسّع فيه فيما أغفله أو قصّر فيه المفسّرون، ويختصر فيما برزوا فيه من مباحث الألفاظ، والإعراب، ونكت البلاغة، وفي الروايات التي لا تدلّ عليها، ولا تتوقّف على فهمها الآيات، ويتوكأ في ذلك على عبارة تفسير الجلالين الذي هو أوجز التفاسير، فكان يقرأ عبارته فيقرّها، أو ينتقد منها ما يراه منتقداً ثم يتكلّم في الآية أو الآيات المنزلة في معنى واحد بما فتح الله عليه، ممّا فيه هداية وعبرة".^٢

__ مفهوم التفسير ومقصده عند محمد عبده:

ينطلق محمد عبده في فهمه للقرآن الكريم وتفسيره من المقصد الأساسي الذي أنزل الله سبحانه القرآن الكريم من أجله، وهو أنه "دين وهداية من الله للعالمين، جامعة بين ما يصلح به أمر الناس في هذه الحياة الدنيا، وما يكونون به سعداء في الآخرة".^٣

يقول محمد عبده: "التفسير الذي نطلبه هو فهم الكتاب من حيث هو دين يرشد الناس إلى ما فيه سعادتهم في حياتهم الدنيا وحياتهم الآخرة، فإنّ هذا هو المقصد الأعلى للقرآن، وما وراء ذلك من المباحث فهو تابع له، أو وسيلة لتحصيله".^١

١ تفسير المنار، ١٥/١.

٢ تفسير المنار، ١٥/١.

٣ تفسير المنار، ١٩/١.

لا يريد محمد عبده من كلامه السابق أن يُهمل الاستفادة من علوم اللغة والنحو والبلاغة في تفسير القرآن الكريم، ولكنّه يريد أن يأخذ المفسّر من ذلك بمقدار الضرورة، فيبين المفسّر من وجوه البلاغة، وضروب الإعراب بقدر ما يحتمله المعنى، وعلى الوجه الذي يليق بفصاحة القرآن وبلاغته، وذلك بدون أن يتجاوز مقدار الحاجة، ويشغل القارئ عن التركيز على الهدي القرآني، وهو المقصود الأول من علم التفسير. يقول محمد عبده بعد بيانه طبيعة الرسالة القرآنية ومقصدها: "ويتبعه بلا ريب: بيان وجوه البلاغة بقدر ما يحتمله المعنى، وتحقيق الإعراب على الوجه الذي يليق بفصاحة القرآن وبلاغته .. وربما نشير أحياناً إلى الإعراب من غير تصريح بعبارات النحو الاصطلاحية، كما نفعل ذلك في بعض نكت البلاغة، أو قواعد الأصول، حتى لا تكون الاصطلاحات شاغلاً للقارئ عن المعاني، صارفة له عن العبرة"^٢.

يقرّر الشيخ محمد عبده هذا المقصد، وهذه الطريقة في التفسير، ثمّ يتوجّه باللّوم إلى المفسّرين الذين غفلوا عن الغرض الأوّل للقرآن الكريم، وهو ما فيه من هداية وإرشاد، وراحوا يتوسّعون في نواح أخرى من ضروب المعاني، ووجوه النحو، وخلافات الفقه، وغير ذلك من المقاصد التي يرى الأستاذ الإمام أنّ الإكثار في مقصدٍ منها "يخرج بالكثيرين عن المقصود من الكتاب الإلهي، ويذهب بهم في مذاهب تنسيهم معناه الحقيقي"^٣.

— مرتبتا علم التفسير:

يرى محمد عبده أن تفسير القرآن الكريم من أصعب العلوم وأهمها على الإطلاق، والسبب الأساسي الذي يكمن خلف هذه الصعوبة أن القرآن الكريم كلامٌ سماوي تنزل من حضرة الربوبية، التي لا يستطيع أحد أن يطّلع على أسرارها، على قلب أكمل الأنبياء محمد صلى الله عليه وسلم، ويشتمل هذا الكلام على معارف عالية ومطالب سامية لا يتمكن من التعامل معها إلا أصحاب النفوس الزاكية والعقول الصافية، وهؤلاء يجدون من الهيبة والجلال الفائضين من حضرة الكمال الإلهي ما يكاد يمنعهم من تحصيل مقصودهم، وهو فهم القرآن واستكناه معانيه. لكن لأنّ الله سبحانه أمرنا بأن نفهم كتابه، ونتدبّر معانيه التي تحمل لنا النور والهدى وكافة الشرائع والأحكام اللازمة لاستقامة حياتنا وصلاح أمورنا، جعل كتابه ميسراً للفهم والتدبر عندما جعله لساناً عربياً مبيناً يستطيع كل مسلم

^١ تفسير المنار، ١/١٧.

^٢ تفسير المنار، ١/١٩.

^٣ تفسير المنار، ١/١٩.

يفهم العربية أن يفهم منه قدر استعداده مهما كان بسيطاً، ولكنه إذا أراد المزيد من الفهم، وهذا من فروض الكفاية، فعليه تحصيل بعض الشروط العلمية التي تساعد على الفهم، وتضمن له السداد قدر الإمكان^١، مع إقرار محمد عبده الحاسم مسبقاً بـ "إننا [بوصفنا بشرًا] لا نتسامى إلى فهم مراد الله تعالى كله على وجه الكمال والتمام، ولكن يمكننا فهم ما نحتدي به بقدر الطاقة"^٢.

وهكذا فإن محمد عبده يرى أن لعلم التفسير مرتبتين، مرتبة تعمُّ الناس جميعاً على سبيل الوجوب العيني حيث يجب على كل واحد من المسلمين أن يفهم آيات الكتاب بقدر طاقته لا فرق بين عالم وجاهل .. يقول الحق سبحانه {كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب} ص ٢٩، يكفي العامي من فهم قوله تعالى {قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون والذين هم عن اللغو معرضون والذين هم للزكاة فاعلون .. أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون} المؤمنون ١-١١، ما يعطيه الظاهر من هذه الآيات، وفهم هذه المعاني مما يسهل على المؤمن من أي طبقة كان، ومن أهل أي لغة كان، ومن الممكن أن يتناول كل أحد من القرآن بقدر ما يُشرب القلب عظمة الله وتنزيهه، ويصرف النفس عن الشر ويجذبها إلى الخير، على سبيل الإجمال، وهذه المرتبة متيسرة لكل أحد فإن الله تعالى أنزل القرآن لهداية الناس جميعاً، وجعل فهمه على سبيل الإجمال ميسراً لكل الناس، وهو يعلم كل أنواع الضعف الذي نحن عليه، يقول سبحانه وتعالى {ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر} القمر ٤٠.^٣

وهناك مرتبة تعلو على هذه المرتبة، وهي من فروض الكفاية، وتحتاج إلى استكمال شروط علمية خاصة تساعد المفسر على القيام بتدبر القرآن الكريم، وفهم معانيه قدر الإمكان.

ـ الشروط العلمية لعلم التفسير:

يتوقف الوصول، في نظر محمد عبده، إلى المرتبة الثانية لعلم التفسير التي تُعدّ من فروض الكفاية، والتي يقوم بها أناس يتمتعون بمزايا روحية وعقلية وعلمية خاصة، على شروط علمية دعا طلاب علم التفسير إلى الالتزام بها

١ تفسير المنار، ١/١٧.

٢ تفسير المنار، ١/٢٠.

٣ تفسير المنار، ١/٢٠-٢١.

للكشف قدر الطاقة البشرية عن الدلالات والمعاني التي أودعها الله في قرآنه الحكيم الذي أنزله رحمة وهداية للعالمين. وهذه الشروط هي:

١. فهم معاني الألفاظ المفردة المذكورة في القرآن بحيث يحقق المفسر ذلك من استعمالات أهل اللغة غير مكتف بقول فلان وفهم فلان فإن كثيراً من الألفاظ كانت تُستعمل في زمن التنزيل لمعانٍ ثم أصبحت هذه الألفاظ غالبية على معانٍ غير معاني عصر التنزيل. ... يَجِبُ عَلَى مَنْ يُرِيدُ الْفَهْمَ الصَّحِيحَ أَنْ يَتَّبَعَ الْإِصْطِلَاحَاتِ الَّتِي حَدَّثَتْ فِي الْمِلَّةِ؛ لِيُفَرِّقَ بَيْنَهَا وَبَيِّنَ مَا وَرَدَ فِي الْكِتَابِ، فَكَثِيرًا مَا يُفَسِّرُ الْمُفَسِّرُونَ كَلِمَاتِ الْقُرْآنِ بِالْإِصْطِلَاحَاتِ الَّتِي حَدَّثَتْ فِي الْمِلَّةِ بَعْدَ الْقُرُونِ الثَّلَاثَةِ الْأُولَى. فَعَلَى الْمُدَقِّقِ أَنْ يَفَسِّرَ الْقُرْآنَ بِحَسَبِ الْمَعَانِي الَّتِي كَانَتْ مُسْتَعْمَلَةً فِي عَصَرِ نَزُولِهِ، وَالْأَحْسَنُ أَنْ يَفْهَمَ اللَّفْظَ مِنَ الْقُرْآنِ نَفْسَهُ بِأَنْ يَجْمَعَ مَا تَكَرَّرَ فِي مَوَاضِعٍ مِنْهُ، وَيَنْظُرَ فِيهِ فَرْجًا مُسْتَعْمَلًا بِمَعَانٍ مُخْتَلِفَةٍ كَلَفْظِ الْهُدَايَةِ وَغَيْرِهِ، وَيَحَقِّقَ كَيْفَ يَتَّفَقُ مَعْنَاهُ مَعَ جُمْلَةٍ مَعْنَى الْآيَةِ فَيَعْرِفَ الْمَعْنَى الْمَطْلُوبَ مِنْ بَيْنِ مَعَانِيهِ. وَقَدْ قَالُوا إِنَّ الْقُرْآنَ يُفَسَّرُ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ، وَإِنْ أَفْضَلَ قَرِينَةً تَقُومُ عَلَى حَقِيقَةِ مَعْنَى اللَّفْظِ مُوَافَقَتَهُ لِمَا سَبَقَ لَهُ مِنَ الْقَوْلِ، وَاتِّفَاقَهُ مَعَ جُمْلَةٍ الْمَعْنَى، وَاتِّلَافَهُ مَعَ الْقَصْدِ الَّذِي جَاءَ لَهُ الْكِتَابُ بِجُمْلَتِهِ.

٢. الأساليب فينبغي أن يكون عنده من علمها ما يفهم به هذه الأساليب الرفيعة، وذلك يحصل بممارسة الكلام البليغ ومزاولته مع التفتن لنكته ومحاسنه، والعناية بالوقوف على مراد المتكلم منه.. ويحتاج في هذا إلى علم الإعراب وعلم الأساليب (المعاني والبيان)، ولكن مجرد العلم بهذه الفنون وفهم مسائلها وحفظ أحكامها لا يفيد المطلوب... كلا إنما هي ملكة مكتسبة بالسماع والمحاكاة...

٣. علم أحوال البشر (التاريخ وعلم الاجتماع) فقد أنزل الله هذا الكتاب وجعله آخر الكتب، وبيّن فيه ما لم يبيّن في غيره، بيّن فيه كثيراً من أحوال الخلق وطبائعه، والسنن الإلهية في البشر، وقصّ علينا أحسن القصص عن الأمم وسيرها الموافقة لسنته فيها، فلا بدّ للناظر في هذا الكتاب من النظر في أحوال البشر في أطوارهم وأدوارهم ومناشئ اختلاف أحوالهم من قوة وضعف وعز وذل وعلم وجهل وإيمان وكفر، ومن العلم بأحوال العالم الكبير علويه وسفليه ويحتاج في هذا إلى فنون كثيرة من أهمها التاريخ بأنواعه. قَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ: أَنَا لَا أَعْقِلُ كَيْفَ يُمَكِّنُ لِأَحَدٍ أَنْ يُفَسِّرَ قَوْلَهُ تَعَالَى: {كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ..} (٢: ٢١٣) الْآيَةَ، وَهُوَ لَا يَعْرِفُ أَحْوَالَ الْبَشَرِ، وَكَيْفَ اتَّخَذُوا، وَكَيْفَ تَفَرَّقُوا؟ وَمَا مَعْنَى تِلْكَ الْوَحْدَةِ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا؟ وَهَلْ كَانَتْ نَافِعَةً أَمْ ضَارَّةً؟ وَمَاذَا كَانَ مِنْ أَثَارِ بَعْثِ النَّبِيِّينَ فِيهِمْ. وقد أجمل القرآن الكلام عن الأمم وعن السنن الإلهية وعن آياته في السموات والأرض وفي الآفاق والأنفس، وهو إجمال صادر عن أحاط بكل شيء علماً، وأمرنا بالنظر

والتفكر والسير في الأرض لنفهم إجماله بالتفصيل الذي يزيدنا ارتقاءً وكمالاً. {قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين} آل عمران ١٣٧.

٤. العلم بما كان عليه الناس في عصر النبوة من العرب وغيرهم، أي معرفة السياق التاريخي والثقافي العام في عصر التنزيل، لأن القرآن ينادي بأن الناس كلهم كانوا في شقاء وضلال وأن النبي صلى الله عليه وسلم بُعث به لهدايتهم وإسعادهم، وكيف يفهم المفسر ما قُبِحت الآيات من عوائدهم على وجه الحقيقة أو ما يقرب منها إذا لم يكن عالماً بأحوالهم وما كانوا عليه؟....

٥. العلم بسيرة النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه وما كانوا عليه من علم وعمل وتصرف في الشؤون دنيويها وأخرويها. أي معرفة كيف واكبت آيات القرآن نشأة الرسالة وأحوالها، والظروف التي تعرضت لها، وكيف سددت ووجهت حركة النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه الكرام رضي الله عنهم، وهم يذلون الغالي والنفيس في سبيل بناء المجتمع الإسلامي الراشد، وبكلمة أخرى معرفة السياق التاريخي الخاص، والمقامات الخاصة بالمؤمنين التي تنزلت فيها آيات الذكر الحكيم^١.

وقد صرح عبده أن الغاية من تحصيل الشروط العلمية للتفسير هي "أن تُستعمل لغايتها، وهو ذهاب المفسر إلى فهم مراد القائل من القول، وحكمة التشريع في العقائد والأخلاق والأحكام على الوجه الذي يجذب الأرواح، ويسوقها إلى العمل والهداية المودعة في الكلام ليتحقق فيه معنى قوله {هدى ورحمة} ونحوهما من الأوصاف. فال مقصد الحقيقي وراء كل تلك الشروط والفنون هو الاهتداء بالقرآن .. وهذا هو الغرض الأول الذي أرمي إليه في قراءة التفسير"^٢.

إذا غاية التفسير فهم مراد الله من كلامه في القرآن الكريم، ثم البحث عن الحكم والمقاصد الثابتة خلف هذه المرادات، وتفعيلها في حياة المسلم وفي حركة التاريخ نورا وضياء وهداية تحقق الأوصاف التي وصف الله بها كتابه من أنه هدى للمتقين ورحمة للعالمين، يخرجهم من الظلمات إلى النور.

__ من أصول التفسير عند أصحاب الاتجاه الأدبي الاجتماعي كما ظهرت عند عبده:

١_ تفسير القرآن بالقرآن والسنة وأقوال الصحابة:

^١ تفسير المنار، ٢٤/١-٢٥

^٢ تفسير المنار، ٢٥/١

يمكن لنا أن نقرر في ضوء الشروط التي وضعها محمد عبده للتفسير، وفي ضوء تتبع نصوصه التفسيرية أن الأصل التفسيري الأول والأهم عنده هو الأصل التفسيري الكلي الذي أجمع عليه المسلمون أي "تفسير القرآن بالقرآن لأن القرآن يُفسّر بعضه بعضاً"، وبموجب التزامه بهذا الأصل نراه قد شدّد على الدعوة إلى العودة إلى السياق وتحكيمة في تحديد المعنى المراد مع وجوب مراعاة معهود العرب اللغوي والثقافي، فضلاً عن مراعاة المقام الذي نزلت فيه الآيات المفسّرة، وهذا يظهر في الشروط العلمية التي ذكرناها أعلاه، أي فهم ألفاظ القرآن الكريم وفق الاستعمال العربي في عصر التنزيل، ووفق الاستعمال القرآني الداخلي مع مراعاة السياق وجملته المعنى وائتلافه مع مقاصد القرآن، وضرورة فهم أحوال البشر وحركة التاريخ وسننهما، وواقع المجتمعات البشرية، وبشكل خاص تاريخ وواقع بلاد الحجاز، والبلاد المتصلة بها مثل اليمن ومصر والشام والعراق وبلاد فارس قبيل وأثناء نزول الوحي لأن هذا الفهم يساعد على معرفة السياق الديني والثقافي والحضاري الذي نزلت بين ظهرائه آيات القرآن الكريم التي جاءت هداية ورحمة للعالمين، ومبينّة لهم منهج الخروج من الظلمات إلى النور في كافة مجالات الحياة. وأما تفسير القرآن بالسنة والسيرة فإننا نفهمه من الشرط العلمي الأخير أي ضرورة الوقوف على أحوال النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته أثناء نزول القرآن الكريم، وهذا لا يتحقق إلا إذا وقفنا على مجمل أقواله وأفعاله وتفصيل دعوته وهو ما تكفّلت به سنته الشريفة، وسيرته المطهرة صلى الله عليه وسلم. والرسول صلى الله عليه وسلم هو الذي تلقى الوحي، وهو الذي أمر ببيانه، فضلاً عن أن آيات القرآن الكريم لا يمكن أن تُفهم بعيداً عن مسار الدعوة التي حملها وبلغها، إذ لا يمكن الفصل بين الرسالة وحاملها ومبلغها، لأنها واكبت حركته، ووجهت وسدّدت خطواته، وشدّت من أزره منذ لحظة البعثة حتى تمام الوحي وكمال الرسالة قبيل وفاته صلى الله عليه وسلم. وأما أقوال الصحابة الكرام رضي الله عنهم أجمعين فتنبع ضرورتها في التفسير من أنهم الجيل الأول الذي استجاب للرسالة، وتحمل أعباء تطبيقها ونشرها، والذي فاز بمتابعة القرآن لشؤونهم وأحوالهم ورعايتها وتسديدها وتقويمها، فلا يمكن لنا أن نفهم حق الفهم كثيراً من آيات القرآن الكريم (مثل الآيات المتعلقة بمعارك بدر وأُحُد والخندق وحنين وغزوة العسرة، وحادثة الإفك، والمجادلة في زوجها، والمؤمنات المهاجرات ..) إذا لم نقف على حياتهم وسيرهم، هذا فضلاً عن أنهم كانوا الشهود الأوائل على نزول الوحي، الذين عاشوا وشاهدوا وعانوا الملازمات والأحوال والظروف الخاصة التي نزلت في سياقها ومقامها آيات القرآن الكريم، والتي تساعد على فهم مضامينها، وتحديد دلالاتها ومرادفاتها الخاصة، هذا بالإضافة إلى أنهم في مجموعهم من أصحاب اللسان العربي المبين الذي نزل به القرآن الكريم، وبالتالي — بالإضافة إلى صحبتهم لصاحب الرسالة صلى الله عليه وسلم، وقربهم منه وحرصهم

على فهم واستيعاب كل يتعلق بالقرآن الكريم منه صلى الله عليه وسلم، وبسبب صفاء نفوسهم وطهارة أرواحهم، وجودة قرائحهم وكمال أفهامهم. فهم الأقدر على فهم معاني ومرادات آيات القرآن الكريم من حيث المبدأ، ومن هنا تأتي ضرورة العناية بأقوالهم ومتابعة سيرهم من أجل الاقتراب أكثر فأكثر من المعاني القرآنية الصحيحة، رضي الله عنهم أجمعين.

٢_ عدم الزيادة على نص القرآن الكريم:

رأى محمد عبده أن القرآن الكريم نص متكامل مبين في ذاته فيجب الالتزام بحدود المعنى الوارد فيه، وعدم التوسع فيما وراءه عن طريق أدلة ظنية غير مرادة لله تعالى، لأنه لو أرادها لذكرها لنا أو جاءت لنا عن طريق الرسول صلى الله عليه وسلم من طريق يقيني، لأن القرآن الكريم نص يقيني فلا يُزاد على معانيه إلا بنص يقيني^١. ومن هنا فقد دعا محمد عبده إلى ترك البحث عن معاني الكلمات المبهمة الواردة في القرآن. يقول محمد عبده في تفسير قوله تعالى: {وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ} البقرة، "نسكت عن تعيين القرية كما سكت القرآن .. والعبرة المقصودة لا تتوقف على تعيين هذه الجزئيات بل تكمن في التذكير باستشعار عظمة الله وجلاله ونعمه"^٢.

ومثلاً عند تفسيره لقوله تعالى في الآية [٤] وما بعدها من سورة البروج: {قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ} يقول: "أمّا تعيين أصحاب الأخدود، وأتى كانوا؟ ومن هم أولئك المؤمنون؟ وأين كان منزلهم من الأرض؟ فقد كثرت فيه الروايات، والأشهر أن المؤمنين كانوا نصارى نجران، عندما كان دينهم دين التوحيد، ليس فيه حدث ولا بدعة، وأن الكافرين كانوا أمراء اليمن، أو اليهود الذين لا يبعدون عن هؤلاء في حقيقة الوثنية، غير أنّ المؤمن لا يحتاج في الاعتبار وإشعار الموعظة قلبه إلى أن يعرف القوم، والجهة، وخاصّة الدين الذي كان أولئك أو هؤلاء، حتى يطير وراء القصص المشحونة بالمبالغات، والأساطير المحشوة بالخرافات، وإتّما الذي عليه: هو أن يعرف من القصة ما ذكرناه أولاً، ولو علم الله خيراً في أكثر من ذلك لتفضّل علينا به"^٣.

ومثلاً عندما تعرّض لقوله تعالى في الآيتين [٦، ٧] من سورة الفجر: {إِزْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ}، نجده يقول: "وقد يروي المفسّرون هنا حكايات في تصوير إرم ذات العماد، كان يجب أن يُنَزّه عنها

١ تفسير جزء عم، محمد عبده، ٥٩.

٢ تفسير المنار، ١/٢٢٤.

٣ تفسير جزء عم، ٥٩.

كتاب الله، فإذا وقع إليك شيء من كتبهم، ونظرت في هذا الموضع منها، فتخطّ ببصرك ما تجده في وصف إرم، وإياك أن تنظر فيه".^١

٣_ عدم التكلف في فهم ألفاظ القرآن، والتوسع فيما يتعلق بالعبارة والعمل بموجبها:

دعا عبده بموجب توجهه الإصلاحي إلى عدم التوسع والتكلف في بيان الألفاظ القرآنية الغريبة التي لم يصلنا معناها بدقة، وهي في الوقت نفسه لا يتوقف عليها فهم الآية، ودعا في مقابل ذلك إلى الالتفات إلى تحرير المعاني المرادة منها وربطها بالعبارة والعمل، ودعا من جهة أخرى لعدم التوسع في ذكر تفاصيل جزئيات معنى نص قرآني تغيبش على معناه الأساسي والمراد منه. وبكلمة أخرى دعا إلى التركيز على فهم النص وتحليله بشكل موجز ثم استخلاص جملة المعنى المراد منه دون توسع في ذكر تفاصيل لا تخدم المعنى ولا تزيده وضوحاً.

يقول عبده في أثناء تفسير لكلمة (أباً) في سورة عبس: "وعن عمر رضي الله عنه أنه قرأ هذه الآية {وفاكهةً وأباً} متاعاً لكم ولأنعامكم} فقال: "كل هذا قد عرفنا فما الأب؟" ثم رفض عصا كانت في يده أي كسرهما غضبا على نفسه، وقال: "هذا لعمر الله التكلف، وما عليك يا عمر أن لا تدري ما الأب؟" ثم قال: "اتبعوا ما تبين لكم من هذا الكتاب، وما لا فدعوه". إذا سمعت هذه الروايات فلا تظن أن سيدنا عمر بن الخطاب ينهى عن تتبع معاني القرآن والبحث في مشكلاته، ولكنه يريد أن يعلمك أن الذي عليك من حيث أنت مؤمن إنما هو فهم جملة المعنى المطلوب منك في هذه الآيات هو أن تعلم أن الله يمتن عليك بنعم أسداها إليك في نفسك وتقويم حياتك وجعلها متاعاً لك ولأنعامك فإذا جاء في سردها لفظ لم تفهمه لم يكن من جد المؤمن أن ينقطع لطلب هذا المعنى بعد فهم المراد من ذكره، بل الواجب على أهل الجد والعزيمة أن يعتبروا بتعداد النعم، وأن يجعلوا معظم همهم الشكر والعمل. هكذا كان شأن الصحابة رضي الله عنهم ثم خلف من بعدهم خلف وقفوا عند الألفاظ، وجعلوها شغلاً شاغلاً، لا يهتمهم إلا التشدد بتصريفها وتأويلها وتحميلها ما لا تحتمله، وقد تركوا قلوبهم خالية من الفكر والذكر، وأعضاءهم معطلة عن العمل الصالح، والشكر".

^١ تفسير جزء عم، ٧٩.

وقد دعا محمد عبده أيضاً إلى الاقتصاد في فهم الآيات المتعلقة بالغيب، أي الإيمان بصدق هذه الآيات، وتفويض حقيقة معناها إلى الله سبحانه، والاقتصار في فهمها على ظاهر النص، والتركيز في مقابل ذلك على المراد منها، والانصراف إلى التقيد بمضمونها والغاية منها.

عندما تعرّض لقوله تعالى في الآيتين [١٠، ١١] من سورة الانفطار: {وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كِرَامًا كَاتِبِينَ}، نجده يقول: "ومن الغيب الذي يجب علينا الإيمان به ما أنبأنا به في كتابه: أنّ علينا حَفَظَةً يكتبون أعمالنا حسنات وسيئات، ولكن ليس علينا أن نبحت عن حقيقة هؤلاء، ومن أيّ شيء خُلِقُوا، وما هو عملهم في حفظهم وكتابتهم، هل عندهم أوراق وأقلام ومداد كالمعهود عندنا...؟ أو هناك ألواح تُرسم فيها الأعمال؟ وهل الحروف والصور التي تُرسم هي على نحو ما نعهد؟ أو إنّما هي أرواح تتجلّى لها الأعمال فتبقى فيه بقاء المداد في القُرطاس إلى أن يبعث الله الناس؟ كلّ ذلك لا نُكَلِّف العلم به، وإنما نُكَلِّف الإيمان بصدق الخبر وتفويض الأمر في معناه إلى الله، والذي يجب علينا اعتقاده من جهة ما يدخل في عملنا، هو: أنّ أعمالنا تُحفظ وتُحصى، لا يضيع منها نقيير ولا قطمير"^١.

٤_ العناية بالتناسب والوحدة النصية في القرآن الكريم:

كانت فكرة التناسق بين الآيات المتجاورة حاضرة حضوراً واضحاً في تفسير محمد عبده، حيث استخدمها لتحديد بعض المعاني، وفي ترجيح بعض أقوال المفسرين على بعض، بل ربما روى آراء السابقين في الموضوع ثم رفضها جميعاً لأنها لا تحقق التناسق بين الآيات.

وللشيخ عبده يرجع الفضل في رسم فكرة عامة عن السورة وعرض المواضيع التي تعالجها والمبادئ والحقائق التي تسجلها، واقتفى أثره في ذلك تلميذه السيد رشيد رضا.. ويشعر الأستاذ الإمام أن فكرة السورة يجب أن تكون أساساً في فهم آياتها. ويجب أن يكون الموضوع أساساً في فهم الآيات التي نزلت فيه، وكان هذا من أسباب رفضه كل تفسير لا يحقق وحدة الهدف والتناسق بين أجزاء السورة.^٢

^١ تفسير جزء عم، ٢٩

^٢ منهج الإمام محمد عبده في التفسير، عبد الله شحاته، ٦١-٦٦.

وكان يحرص على تفسير معنى عبارة قرآنية بناء على ضرورة انسجام معناها مع معنى عبارة تأتي قبلها أو بعدها أي يشملهما سياق واحد، ويحرص على تحديد وجه اتصال الآية بالآية أو الآيات السابقة لها مع تحديد طبيعة الرابط بينهم.

يقول محمد عبده في تفسير قوله تعالى { لِلّٰهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْاَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِيْ اَنْفُسِكُمْ اَوْ تُخْفُوْهُ يُحٰسِبْكُمْ بِهٖ اللّٰهُ فَيَغْفِرْ لِمَنْ يَّشَاءُ وَيُعَذِّبْ مَنْ يَّشَاءُ وَاللّٰهُ عَلٰى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيْرٌ } [البقرة : ٢٨٤]:

"قال الأستاذ الإمام : الآية متصلة بقوله تعالى: { ومن يكتمها فإنه آثم قلبه والله بما تعملون عليم } ويصح أن تكون متممة لها لأن مقتضى كونه عليما بكل شيء أن له كل شيء. فهذا كالدليل على كونه عالما بكل شيء أي أنه عليم به، لأنه له وهو خالقه، فهو كقوله: { ألا يعلم من خلق } . وبهذا الاستدلال ينقرر النهي عن كتم الشهادة وكونه إثما يعاقب عليه وأكده بقوله: { وإن تبدو ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله } لدخول كتمان الشهادة في عموم ما في النفس. قال: ويصح أن تكون الآية متصلة بآية الدين من أولها لأنه شرع لنا أحكاما تتعلق بالدين كالكتابة والشهادة، فكأنه يقول إن تساهلتم في هذه الأحكام وأضعتم الحقوق فتظاهرت بالأمانة مع انطواء النفس على الخيانة، وغالطتم الناس وأكلتم أموالهم بذلك أو أضعتموها بكتمان الشهادة ونحو ذلك، فإن الله يحاسبكم ويعاقبكم على ذلك، لأن له ما في السموات وما في الأرض منها أنتم وأعمالكم النفسية أو البدنية. أقول: وجعلها بعضهم متعلقا بأحكام السورة كلها".^١

— ويرد بعض روايات سبب النزول معتمدا على اتصال النص القرآني ووحدة نظمه.

كان عبده يرى أن رواة أسباب النزول يفككون الطائفة الملتزمة من الآيات القرآنية، إذ يفصلون بعضها عن بعض، أو يفصلون الجمل الموثقة في الآية الواحدة، فيجعلون لكل جملة سبباً مستقلاً، كما يجعلون لكل آية من الآيات الواردة في مسألة واحدة سبباً مستقلاً كذلك. أما الأستاذ الإمام فيخالف أولئك المفسرين، ويرى أن نظرهم تلك، فضلاً عن منافاتها لبلاغة القرآن، تجعله مبددا لا اتصال بين أجزائه، وهو ما يتنزه عنه كلام الله^٢.

^١ تفسير المنار، ٣/ ١٣٧.

^٢ منهج الإمام محمد عبده، عبد الله شحاته، ٦١.

يقول رشيد رضا في تفسير قوله تعالى { مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّاتَيْنِ بِمَا كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ الْكِتَابَ وَمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ } [آل عمران : ٧٩]: "أخرج عبد الرزاق في تفسيره عن الحسن قال: بلغني أن رجلا قال: يا رسول الله نسلم عليك كما يسلم بعضنا على بعض، أفلا نسجد لك ؟ قال: " لا ولكن أكرموا نبيكم واعرفوا الحق لأهله، فإنه لا ينبغي أن يُسجد لأحد من دون الله " فأنزل الله: { مَا كَانَ لِبَشَرٍ } . ذكر ذلك السيوطي في لباب النقول.

وقال الأستاذ الإمام : إن ما روي من أن بعض الصحابة طلب أن يسجدوا للرسول هو من الروايات التي لم يق الله المسلمين شرها، ولا حاجة إليها في القرآن، فإن الآية متصلة بما قبلها فهي في سياق الرد على أهل الكتاب وإبطال لما ادعاه بعضهم من أن الله تعالى ابنا أو أبناء حقيقة، وأن بعض الأنبياء أثبت ذلك لنفسه. وصرح بأن هذه الدعوى مما يدخل في لِيّ اللسان بالكتاب وتحريفه بالتأويل. ويصح أن يكون ردا على أصحاب هذه الدعوى ابتداء مستأنفا بيانيا كأن النفس تتشوف بعد بيان حال فرق اليهود إلى بيان حال النصارى وما يدعون في المسيح فجاءت الآيتان في ذلك " ١

— يربط بين سورتين متتاليتين، ويحدد طبيعة العلاقة الرابطة بينهما:

كما فعل في صدر تفسيره لسورة المطففين حيث ذهب إلى أن المذكور في سورة المطففين هو بمثابة تفصيل لما جاء مجملا في سورة الانفطار، فقد رأى أن سورة المطففين قد جاءت بشيء من التفصيل بذكر بعض الأنواع والحالات التي يظهر فيها الفجور الذي يأخذ بيد أصحابه إلى الجحيم المذكور على وجه الإجمال في سورة الانفطار السابقة في قوله تعالى {وإن الفجار لفي جحيم}، وكذلك فصلّت وبيّنت بعض وجوه نعيم الأبرار الذي جاء ذكره مجملا في سورة الانفطار في قوله تعالى {إن الأبرار لفي نعيم} . "قد ذكر الله في هذه السورة تفصيلا لما أجمله في السورة السابقة، فقد جاء بنوع من أنواع الفجور وهو التطفيف في المكيال، ثم جاء بنوع آخر وهو التكذيب بيوم الدين، وبمنشأ ذلك التكذيب وهو الاعتداء وملازمة الآثام، وأتبع ذلك بأثر من آثار التكذيب وهو دعوى أن آيات الله في كتابه هي أساطير الأولين، كل هذا بيان للفجور المؤدي بصاحبه إلى الجحيم، ثم زاد ما يلاقونه في الآخرة

تفصيلاً من حيث ذكر أين يكون كتابهم، وذكر حجبهم عن ربهم، وما يقال لهم من قوارع التبكيت. وكذلك فصل في نعيم الأبرار ما أجمله في السورة المتقدمة كما ترى^١.

٥_ النزعة الإصلاحية: الالتفات إلى الواقع ونقده، وربط التفسير بحاجة العصر:

اجتهد محمد عبده في سياق تفسيره للآيات الكريمة في فهم الواقع وحركة التاريخ من حوله في ضوء الهدي القرآني، الذي جعله معيار القبول والرد، وميزان الصواب والخطأ في كل شؤون الحياة ومستوياتها، وفي كل الظواهر والأحداث المحيطة، وبذلك حرك الدلالات القرآنية باتجاه الاشتباك مع واقع المجتمعات الإسلامية وأحوالها التاريخية والاجتماعية، وأصبح للنص القرآني ودلالاته حضوراً مؤثراً على مستوى فهم الواقع ونقده، وتغيير جوانبه السلبية واقتراح البدائل الضرورية، وفتح الآفاق أمامه، بما يقترح من حلول، وما يقدم من بدائل. من الأمثلة على ذلك:

_ تحليل الظاهرة الاستعمارية:

ذهب عبده إلى أنه على الرغم من النصوص القرآنية الداعية للمسلمين للعلم، واكتشاف العالم وتسخيرها، فإن مسلمي عصره قد قصرُوا في الاستجابة لهذه النداءات الإلهية الحثيثة وتنزيل مفاعيلها في واقعهم، وعجزوا عن اكتشاف الأرض وتسخير ثرواتها، وهو الحال هو الذي مكّن الاستعمار من رقايمهم وسلّطه على بلادهم وثرواتهم. "نعم إن المسلمين أمسوا وراء الأمم كلّها في العلم حتى سقطوا في جاهلية أشدّ جهلاً من الجاهلية الأولى، فجهلوا الأرض التي هم عليها وضعفوا عن استخراج منافعها فجاء الأجنبي يتخطفها من بين أيديهم، وهم ينظرون وكتابهم قائم على صراطه يصيح بهم {هو الذي خلق لكم ما في الأرض}، (وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه)".

_ قيمة الصبر ودوره في بناء حياة الأفراد والجماعات والأمم:

عندما تعرّض لقوله تعالى في الآية [٣] في تفسيره لسورة العصر: {وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ}، نجده يقول: "والصبر خلق من أمهات الأخلاق بل مساك كل خلق.. والصبر ملكة في النفس يتيسر معها احتمال ما يشق احتمالها، والرضا بما يُكره في سبيل الحق. وهو خُلُق يتعلّق به بل يتوقف عليه كمال كل خلق، وما أتى الناس من شيء مثل ما أتوا من فقد الصبر أو ضعفه. كل أمة ضعف الصبر في نفوس أفرادها، ضعف فيها كل شيء،

^١ تفسير جزء عمّ، محمد عبده، ٤٤.

وذهبت منها كل قوة، ولنضرب لذلك مثلاً: نقص العلم عند أمة من الأمم كالمسلمين اليوم، إذا دقت النظر وجدت السبب فيه ضعف الصبر، فإن من عرف باباً من أبواب العلم، لا يجد في نفسه صبراً على التوسع فيه، والتعب في تحقيق مسأله، وينام على فراش من التقليد هين لئلا يكلفه مشقة، ولا يجشمه تعباً، ويسلى نفسه عن كسله بتعظيم من سبقه، ولو كان عنده احترام حقيقي لسلفه، لاتخذهم أسوة له في عمله، فحذا حذوهم، وسلك مسلكهم، وكلّف نفسه بعض ما حملوا أنفسهم عليه، واعتقد كما كانوا يعتقدون أنهم ليسوا بمعصومين. ثم هو إذا تعلّم لا يجد صبراً على مشقة دعوة الناس إلى علم ما يعلم، وحملهم على عرفان ما يعرف، ولا جلدأ على تحصيل الوسائل لنشر ما عنده، بل متى لاقى أول معارضة قبع في بيته، وترك الخلق للخالق كما يقولون...

يئخل البخيل بماله، ويجهد نفسه في جمعه وكنزه، وتعرض له وجوه البر فيعرض عنها، ولا يُنفق درهماً في شيء منها، فيؤذى بذلك وطنه ومِلّته، ويترك الشر والفقر يأكل قومه وأُمّته، ولو نظرنا إلى ما قبض يده لوجدناه ضعف الصبر، لما أُصيب بذلك المرض القاتل له ولأهله... وهكذا لو أردت أن أعد جميع الرذائل، وأبحث عن عللها الأولى، لوجدتموها تنتهي إلى ضعف الصبر أو فقده. ولو سردت جميع الفضائل وطلبت ينبوعها الذي تستمد منه حياتها لما وجدت لها ينبوعاً سوى الصبر، أفلا يكون جديراً بعد هذا بأن يُخص بالذكر؟^١.

— الدعوة إلى تجديد وسائل الدعوة إلى الله وتطوير ثقافة العالم والداعية:

وقد تحدث محمد عبده أيضاً أثناء تفسيره لقوله تعالى "وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر" عن ضرورة تكيف العلماء والدعاة مع شروط العصر الحديث ومتطلباته ومقتضياته من حيث اكتساب العلوم والوسائل الحديثة التي تضمن ارتقاءهم إلى مستوى التطور في المعرفة ونشرها، وتضمن استثمار هذا التطور في خدمة الرسالة وتبليغ الأمانة. وقد شدد في حديثه هذا على الاهتمام بعلوم التاريخ والاجتماع والحضارة والأخلاق والتربية وعلم النفس، وضرورة السفر والرحلات، وتعلم اللغات الأجنبية.

"يجب على العلماء ومن يتشبه بهم، أن يتعلموا من وسائل القيام بالواجب ما تدعو إليه الحال، على حسب الأزمان واختلاف أحوال الأمم، وأول ما يجب عليهم في ذلك أن يتعلموا التاريخ الصحيح، وعلم تكوين الأمم، وارتفاعها وانحطاطها، وعلم الأخلاق وأحوال النفس، وعلم الحس والوجدان، ونحو ذلك مما لا بد منه في معرفة

^١ دروس من القرآن الكريم، محمد عبده، ٩٨-٩٩.

مداخل الباطل إلى القلوب، ومعرفة طرق التوفيق بين العقل والحق، وسُبل التقريب بين اللذة والمنفعة الدنيوية والأخروية، ووسائل استمالة النفوس عن جانب الشر إلى جانب الخير، فإن لم يحصلوا على ذلك كله فوزر العامة عليهم، ولا تنفعهم دعوى العجز، فإنهم ينفقون من أزمانهم في القيل والقال، والبحث في الألفاظ والأقوال، ما كان يكفيهم أن يكونوا بحار علم، وأعلام هُدى ورُشد، فليطلبوا العلم من سُبله التي قام عليها السلف الصالح، والله كفيل أن يمدّهم بمعونته، أما وقد انقطعوا إلى ما يعجزهم عن القيام بأمره، فلن يقبل الله لهم عذراً، بل فليتربصوا حتى يأتي أمر الله. لو قضى الزمان بأن يكون من وسائل التمكن من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واشتغال الناس بالحق عن الباطل، وبالطيب عن الخبيث أن يضرب الإنسان في الأرض ويمسحها بالطول والعرض، وأن يتعلم اللغات الأجنبية، ليقف على ما فيها مما ينفعه فيستعمله، وما يخشى ضرره على قومه فيدمغه، لوجب على أهل العلم أن يأخذوا من ذلك بما يستطيعون، ولهم في سلف الأمة من القرون الأولى إلى نهاية القرن الرابع من الهجرة أحسن أسوة، وأفضل قدوة، وكل ما يهتدون به على أنفسهم مما يخالف ذلك فإنما هي وساوس شيطان. يشغلهم بها عن النظر في معاني القرآن، ويحرمهم من التعرض لرحمة الرحمن".^١

__ البعد الاجتماعي لمفهوم البر في القرآن الكريم:

عند قوله تعالى في الآية [١٣] من سورة الانفطار: {إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ} نراه يوضح معنى البر وما يكون به الإنسان من الأبرار، حيث يقول: "الأبرار جمع بر بفتح الباء، وهو الموصوف بالبر بكسرها، قال بعضهم البر بالكسر الصدق، وقال آخر: هو التقوى، وهو إجمال قد بينه الكتاب العزيز والسنة النبوية، ولا يكون الصدق ولا التقوى برّاً حتى يكون فيه حسن المعاملة، وإفراغ الوسع في إيصال الخير إلى الناس، فإذا خلا الوصف من ذلك لم يكن برّاً، ولم يكن صاحبه داخلياً في هذا الوعد الكريم. .. قال الله تعالى {لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ} [آل عمران، ٩٢]، فلا يُعدّ الشخص برّاً ولا بارّاً حتى يكون للناس من كسبه ومن نفسه نصيب فلا يغترّ أولئك الكسالى الخاملون، الذين يظنون أنهم يدركون مقام الأبرار بركيعات

^١ دروس من القرآن الكريم، ١٠٧-١٠٨.

من الخشية خاليات، وبتسييحات وتكبيرات وتحميدات ملفوظات غير معقولات، وصيحات غير لائقات بأهل المروءة من المؤمنين والمؤمنات، ثم بصوم أيام معدودات، لا يجتنب فيها إيذاء كثير من المخلوقات، مع عدم مبالاة الواحد منهم بشأن الدين قام أم أسقط، ارتفع أو انحط. ومع حرصه وطمعه لما في أيدي الناس، واعتقاده الاستحقاق لما عندهم، لا لشيء سوى أنهم عاملون في كسب المال وهو غير عامل، وهم يجرون على سُنَّة الحق وهو مستمسك بسُنَّة الباطل، وهم يتجملون بحلية العمل وهو منها عاطل، فهؤلاء ليسوا من الأبرار، بل يجدر بهم أن يكونوا من الفُجَّار^١.

تفسير سُورَةُ الْمَاعُونِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْدِّينِ ۚ ﴿١﴾ فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يُخْضُ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿٣﴾ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴿٧﴾

{أَرَأَيْتَ} ههنا بمعنى هل عرفته؟ وعلمت من هو على التحقيق؟

والدين هو "ما وراء المحسوس من الشؤون الإلهية التي لا تحيط بها النفس إلّا من وجه معرفة آثارها في الكون المشهود، ومنها إرسال الرسل المؤيدين بالأدلة القاطعة الدالة على أنهم يملّغون عن مدبر الكون ما تصلح به شؤون عباده، وأنّ للناس حياةً أخرى يُجازى فيها كلّ بعمله".

وكثير من الناس بل الأغلب فيهم يقولون إنهم يعتقدون بالدين ويصدقون بالله وبما جاء به رسله وبالحياة الآخرة، وينتحلون لأنفسهم المزايا على غيرهم، ويظنون أنهم المصطفون، وأنّ من يخالفهم قد حقت عليه كلمة الشقاء، ويكتفون في الدلالة على هذه الدعوى ببعض أعمال رسمها الدين، وإن لم يكن لها أثر في قلوبهم كالصلاة وما يشابهها ممّا لا يُنقِصُ مالاً، ولا يُجشِّم مشقة، والجمهور الأعظم من النصارى واليهود والمشرّكين ممّن كان في زمنه

^١ تفسير جزء عم، ٤٠-٤١.

صلى الله عليه وسلم كانوا يظنون أنهم يصدقون بالدين، ولا يكذبون به، وغرّتهم صلاتهم وصيامهم مع أنهم كانوا في أبعد طريق عن حقيقة دينهم، يشهد بذلك ما كان بينهم من التنافس في الباطل، واستعباد قوئهم لضعيفهم، وتخلّ غنيّهم بالمعروف يفيض به على فقيرهم، ومع ذلك كان كلّ فريق منهم يعدّ نفسه صاحب الخطوة عند الله، ويحسب كلّ من خالفه في مسقط النعمة، فأراد الله جلّ شأنه أن يعلمنا من هو المكذّب بالدين، ومن تعريف المكذّب به يُعرف المصدّق به على الحقيقة.

فبدأ الكلام بقوله: {أرأيت الذي يكذب بالدين} على طريقة الاستفهام لينبّه السامع إلى أنّ الأمر خفيّ على المحجوب عن نفسه، المغرور بأوهامه، والخطاب لكلّ من يفهم الخطاب، أي هل تبيّنت من هو المكذّب بالدين؟ إن لم تكن تبيّنته {فذلك الذي يدعّ اليتيم ولا يحضّ على طعام المسكين} هذا هو المكذّب بالدين، فالفاء واقعة في جواب الشرط الذي دلّ عليه الكلام، ويدعّ اليتيم أي يدفعه ويزجره زجرًا عنيفًا إذا جاء يطلب منه حاجة احتقارًا له، وتكبرًا عليه لفقده النصير، وخلوّ ظهره من المجير، واليتيم مظهر الضعف، وممثّل الحاجة، فالمستهين به مستهينٌ بكلّ ضعيف، محتقرٌ لكلّ محتاج، فالمعنى أنّ المكذّب بالدين هو الذي يغمط حقّ غيره تعزّزًا بقوّته، فكلّ ظالم متتهكٍ لحرّيات الحقوق مكذّبٌ بالدين متى كان ذلك له ديدنًا، وسواء كان ظلمه لقليل من الناس أو كثير، والحضّ على طعام المسكين الحثّ عليه، ودعوة الناس إليه، والذي لا يحضّ على إطعام المساكين لا يطعمهم في العادة، فقوله: ولا يحضّ على طعام المسكين كناية عن الذي لا يوجد بشيء من ماله على الفقير المحتاج إلى القوت الذي لا يستطيع له كسبًا، وليس المسكين هو الذي يطلب منك أن تعطيه، وهو قادرٌ على قوت يومه، بل هذا هو الملحف [أي الملحّ في طلبه وسؤاله] الذي يجوز الإعراض عنه، وتأديبه بمنعه ما يطلب، وإنّما جاء بالكناية ليفيدك أنّه إذا عرضت حاجة المسكين، ولم تجد ما تعطيه فعليك أن تطلب من الناس أن يعطوه، وفيه حثّ للمصدقين بالدين على إغاثة الفقراء ولو بجمع المال من غيرهم، وهي طريقة الجمعيات الخيريّة، فأصلها ثابت في الكتاب بهذه الآية، وبنحو قوله في سورة الفجر: {كلّا بل لا تكرمون اليتيم ولا تحاضون على طعام المسكين}، ونعمت الطريقة هي لإغاثة الفقراء، وسدّ شيء من حاجات المساكين، فالمكذّب بالدين هو المحتقر لحقوق الضعفاء كبرًا وعتوًّا، والذي يبخل بماله على الفقراء ويبخل بسعيه عند الأغنياء لإغاثة أهل الحاجة ممّن تحقّق عجزهم عن كسب ما ينقذهم من الضرورة، ويقوم لهم بالكفاف من العيش، وسواء كان المحتقر للحقوق، البخيلُ بالمال والسعي مصلّيًا أم غير مصلّي فصلاته لا تنفعه ولا تخرجه من صفّ المكذّبين بالدين؛ لأنّ المصدّق بشيء لا تطاوعه نفسه بالخروج عن حدّ ما صدّق به، فلو صدّق بالدين لعرف أنّ صلاته إنّما هي

عنوان الخشوع للقاهر الذي لا يجوز لأحد أن يشاركه في عظمته، الذي خلق الخلق، وحدد حدود الحق، وفرض على الأقوياء الرحمة والعدل في الضعفاء، فمن لم تذكره صلاته بهذا الذي فرض عليه فهو كاذب في قوله ثراء في ظاهر عمله، ولهذا جاء سبحانه بالتفريع على تعريف المكذب بالدين في قوله: {فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون} أي إذا عرفت أن المكذب هو الذي أفقر قلبه من الرحمة، وأجذب من العدل والمكرمة فويل لأولئك الذين يُصَلُّون، ويؤدُّون ما يُسمَّى صلاةً في عُرفهم من الأقوال والأفعال، وهم مع ذلك ساهون عن صلاتهم أي غافلة قلوبهم عما يقولون وما يفعلون، فهو يركع في ذهول عن ركوعه، ويسجد في لهو عن سجوده، وإنما هي حركات تشبه الخطوات التي يخطوها في الطريق ينقل قدمه من خطوة إلى أخرى، ولا يلاحظ في كل خطوة ذلك المقصد الذي قصده بمشيئه، فهو يدخل في الصلاة بنية أنها مطلوبة منه، ثم يمضي فيها بلا شعور بالمقصد مما يفعل، وإنما تجري الأقوال، وتتابع الحركات على حسب العادة بلا استحضار للمعاني في القلوب، ثم هم ساهون عن حقيقة الصلاة والحكمة التي فرضها الله لها، وهي إخضاع القوى لواهب القوى، وهل يجتمع الخضوع له والخروج عن أوامره فيما فرض أن يُراعى من حقوق عباده، ولذلك قال في وصفهم {الذين هم يراؤون} أي يفعلون ما يُرى للناس فقط، ولا يستشعرون من روح العبادة ما أوجب الله على النفوس أن تستشعره، ثم أعاد ذكر الوصف الذي يتحقق به التكذيب بالدين مع الصلاة فقال {ويمنعون الماعون}، والماعون كل ما يُستعان به، فأولئك الذين يُصَلُّون ولا يأتون من الأعمال إلا ما يُرى للناس مما لا يكلفهم بذل شيء من مالهم، ولا يخشون منه ضرراً يلحق بأبدانهم أو نقصاً يلزم بجاههم، ثم يمنعون الناس معونتهم، ولا ينهضون بباعث الرحمة إلى سد حاجتهم، وتوفير ما يكفل راحتهم وأمنهم وطمأنينتهم أولئك لا تنفعهم صلاتهم، ولا تخرجهم من حد المكذبين بالدين، لا فرق في ذلك بين من وسموا أنفسهم بسمة الإسلام أو غيره، فإنَّ حكم الله واحد لا محاباة فيه للأسماء المنتحلة التي لا قيمة لها إلا بمعانيها الصحيحة المنطبقة على مراده تعالى من تحديد الأعمال وتقرير الشرائع، فخاصة المصدق بالدين الذي تميّزه عمّن سواه من المكذبين هي العدل والرحمة وبذل المعروف للناس، وخاصة المكذب الذي يمتاز بها عن المصدقين هي احتقار حقوق الضعفاء، وقلة الاهتمام بمن تلذعهم آلام الحاجة، وحب الأثرة بالمال والتعزز بالقوة، ومنع المعروف عمّن يستحقّه من الناس.

فهل تجد نصّاً أصرح من هذا في تعريف التصديق بالدين، وبيان الصفات التي يُعرف بها، وفي شرح التكذيب بالدين، وتفصيل لوازمه، وما يتميّز به عن التصديق، فهل للمسلمين أي الذين يزعمون أنهم يؤمنون بمحمد صلى الله عليه وسلم، وبما جاء به أن يقيسوا أحوالهم وما يجدونه من أنفسهم بما يتلونه في هذه السورة الشريفة

ليعرفوا هل هم من قسم المكذّبين أو المصدقين؟ وليقلعوا عن الغرور برسم هذه الصلاة الذي لا أثر له إلا في ظواهر أعضائهم، وبهذا الجوع الذي يسمّونه صياماً، ولا أثر له إلا في عبوس وجوههم، وبذاءة ألسنتهم، وضياع أوقاتهم في اللهو والبطالة، وليرجعوا إلى الحق في دينهم، فيقيموا الصلاة، ويحيوا صورتها بالخشوع، وتطأمن القوى الإنسانية لقوة العليّ الأعلى [أي بالخشوع وخضوع كل القوى الإنسانية لله سبحانه وأوامره]، فلا يخرجون من الصلاة إلا وهم ذاكرون ألهم عبيد له، يلتمسون رضاه في رعاية حقوق براياه، ويجعلوا من الصوم مؤدّباً للشهوة، ومهدّباً للرغبة، ورادعاً للنفس عن الأثرة، فلا يكون في صومهم إلا الخير لأنفسهم ولقومهم، ثم يؤدّوا الزكاة المفروضة، ولا ييخلوا بالمعونة فيما ينفع الخاصّة والعامة، أفلا يتدبّرون القرآن أم على قلوب أقفالها، أفلا ينظرون إلى ما نزل بهم من الضعف والذلة وتسلب الأمم عليهم، وانتقاصها أرضهم من كلّ جانب فيعلموا أنّ هذا هو عقاب الله للمكذّبين فيطلبوا النجاة من هذا كلّه بأخذ سبيل المصدقين، وينزعوا عن الانخداع بما سوّته لهم أوهاهم بعض من يدّعي العلم منهم، فإنّ العيان [أي الواقع] قد كذّبهم وأظهر أنّ سنة الله في الخلق لا تتبدّل، وأنّ صورة الانتساب إلى دين لا تغني عن اتباع هديه الصحيح الذي يدلّ عليه النصّ بعد التواتر في النقل وإجادة التدبّر من العقل^١.

^١ تفسير جزء عمّ، ١٦٥-١٦٨.

المبحث الثاني : الاتجاه العلمي في التفسير الشيخ طنطاوي جوهرى أنموذجاً

أولاً: مدخل إلى الاتجاه العلمي في التفسير:

نقصد بالاتجاه العلمي في التفسير كتب التفسير أو الدراسات القرآنية أو الفكرية التي حكمت الاصطلاحات والتراكيب العلمية في فهم العبارات والنصوص القرآنية، وسعت إلى فهم هذه النصوص في ضوء العلوم والمعارف والنظريات العلمية والفلسفية الحديثة التي ظهرت في الغرب إبان نهضة العلمية، وانتشرت في العالم بسبب توسع الغرب، وتمدده الاستعماري ابتداء من القرن الثامن عشر فما بعد. وقد تنوعت واختلفت جهود المشتغلين في هذا النوع من التفسير إلى درجة كبيرة، ولكن على الرغم من ذلك فإنه يمكن تصنيف العلماء والمفسرين من حيث طبيعة عملهم، ومقاصدهم إلى فريقين أساسيين، فريق اكتفى بمحاولة إثبات المطابقة التامة بين الدلالات القرآنية والعلم من حيث المبدأ، وتقرير عدم مخالفة نتائج العلوم الحديثة، وحقائقها لما جاء في القرآن الكريم من إشارات ودلالات علمية، وقد يذهب في بعض الحالات إلى اغتنام كل إشارة علمية في القرآن الكريم لتقديم بعض ما يتعلق بها من معارف علمية حتى يتمكن المسلمون من الاطلاع عليها أثناء مطالعتهم لكتب التفسير، يمثل هذا الفريق الشيخ محمد مصطفى المراغي (ت ١٩٤٥م)؛ وأما الفريق الآخر، الذي يشمل معظم المشتغلين بالتفسير العلمي، فقد اجتهد في استخراج مختلف العلوم الكونية والآراء الفلسفية من النصوص القرآنية، بل وصل الأمر به في كثير من الحالات إلى تسجيل سبق القرآن الكريم العصر الحديث في الإشارة إلى الحقائق والمكتشفات العلمية الحديثة، وبالتالي إضافة دليل علمي باهر - من وجهة نظره - يمكن أن يكون دليلاً قاطعاً ومفهوماً للناس أجمعين يُثبت المصدر الإلهي للقرآن الكريم، وقد ترتب على جهود هذا الفريق بلورة وجه جديد للإعجاز القرآني، أطلق عليه اسم الإعجاز العلمي للقرآن الكريم، الذي استمر في التوسع والتطور حتى الوقت الحاضر.

يمكن لنا التماس وجود السوابق التاريخية والإرهاصات المعرفية التي مهدت الطريق لهذا الاتجاه التفسيري عند رواد كبار جاؤوا في أعقاب النهضة العلمية التي شهدها العالم الإسلامي في القرنين الرابع والخامس الهجريين/العاشر والحادي عشر الميلاديين، مثل أبي حامد الغزالي (ت ٥٠٥هـ) صاحب كتاب "جواهر القرآن" الذي وضع فيه الأساس المعرفي والديني لانبثاق كل العلوم الدنيوية، وانشعابها على مستوى مجامعها وأوائلها من القرآن الكريم، لأن هذه العلوم متعلقة بأفعال الله تعالى في الكون والبشر (مثل رفع السموات، وبسط الأرض، ورفع الجبال، وخلق

الإنسان وشفائه ومرضه...)، ومن مقاصد القرآن التعريفُ بالله ذاتا وصفات وأفعالا، ولا يمكن لأحد أن يتمَّ فهمه لإشارات القرآن المحملة إلى أفعال الله تعالى التي تفتح الباب لدراسة هذه العلوم، إذا لم يتعمق في هذه الدراسة، وهذا التعمق لا يقوم به إلا العلماء المختصون، فأصل هذه العلوم موجود في القرآن الكريم أما التفاصيل العلمية فيجب أن تُلتَمَس عند أهل الاختصاص. ومثل **فخر الدين الرازي (ت ٦٠٦هـ)** صاحب تفسير "مفاتيح الغيب" الذي جعل منه، بسبب إمامته في علم الكلام وتمكّنه من جملة العلوم الكونية والفلسفية في عصره، دائرة معارف كبرى مزج فيها العلوم الإسلامية والعلمية في نسق واحد ركّز فيه على ضرورة الاشتغال بالعلوم الكونية، وتوضيح كل الدلالات القرآنية المرتبطة بها من أجل إثبات صدق القرآن وكماله، والرد على فلاسفة عصره وملاحدته بالأسلوب والعلوم التي برزوا فيها، وإثبات أن القرآن الكريم قد سبقهم إليها وتفوق عليهم فيها، وبالتالي فهو كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. ونشير أيضا إلى الاستحسان الكبير الذي أبداه السيوطي (ت ٩١١هـ) صاحب كتاب "الإتقان في علوم القرآن" لجهود أبي الفضل المرسي (ت ٦٥٥هـ)، التي ذهب إلى اشتغال القرآن على كل العلوم الدينية واللغوية والعقلية والكونية، وأن كل هذه العلوم قد انبثقت منه. وفي الحقيقة فقد قام السيوطي بتأصيل هذا الاتجاه العلمي، وذكر مستنداته الشرعية في القرآن (مثل قوله تعالى في الآية [٣٨] من سورة الأنعام: {مَا قَرَرْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ}، وفي الأحاديث النبوية، مثل ما نُقل عن أبي هريرة أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الله لو أغفل شيئا لأغفل الذرة والخردلة والبعوضة"، وأقوال الصحابة، منها ما رواه عن ابن مسعود أنه قال: "من أراد العلم فعليه بالقرآن، فإن فيه خير الأولين والآخرين". وبذلك أضفى السيوطي على هذا الاتجاه المشروعية الدينية التي أعطته فرصة الدخول إلى منظومة العلوم الإسلامية، وبذلك تمكن من البقاء والاستمرار.

ولكن على الرغم من هذه الجذور التراثية الواضحة لهذا الاتجاه التفسيري فإنّ نضج ملامحه، ووضوح صورته، ورسوخه وامتداد أثره وحضوره الكبير في الفكر الإسلامي لم يحدث إلا في العصر الحديث ابتداءً من النصف الثاني في القرن التاسع عشر الميلادي بسبب عوامل ومحددات عديدة يأتي في مقدمتها حالة الصدام والمواجهة التي عاشها العالم الإسلامي في تلك المرحلة مع الغرب الاستعماري المتفوق عسكرياً وحضارياً، فقد لجأ عدد من العلماء والمفكرين في خضم هذه المواجهة إلى إثارة إشكالية العلم والإيمان من حيث المبدأ بهدف التوفيق بينهما، وإثبات أن الإسلام هو دين العلم والمدنية، بل إنه قد سبق الغرب في هذا الميدان، نذكر منهم حسين الجسر (ت ١٩٠٩م) في كتابه "الرسالة الحميدية في حقيقة الديانة الإسلامية وحقيّة الشريعة المحمدية". وفي هذه المرحلة أيضاً،

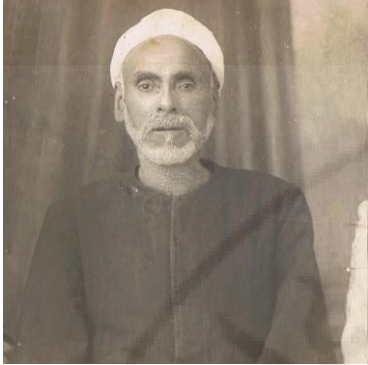
ذهب بعض رجال التفسير من أصحاب المشاريع النهضوية إلى التركيز على أن أحد أهم أسباب تراجع المدّ الحضاري الإسلامي لصالح المدّ الاستعماري الغربي هو التقصير الكبير للمسلمين في اكتساب العلوم الكونية، وتسخير نتائجها في تحسين شروط حياتهم وأحوال مجتمعاتهم في مقابل نجاح الغرب في تحقيق التقدم الكبير في مجال العلوم، واكتشاف العالم، واستثمار ثرواته لتحقيق مصالحه، وبناء مجتمعاته وتطويرها، والتمدد باتجاه العالم الإسلامي المتأخر علمياً وحضارياً بهدف استعمارهِ وسرقة ثرواته، وقد ذهب هذا النفر من المفسرين النهضويين إلى أنه لا يمكن للمسلمين أن يستعيدوا سيادتهم ودورهم الحضاري إلا إذا سيطروا على ناصية العلوم في عصرهم، ووجدوا أنّ خير وسيلة لتحقيق هذه السيطرة هو تفعيل دعوات القرآن الالهية للمسلمين لاكتشاف الأرض، واستثمار ثروتها وخيراتها، ووجدوا أن دمج العلوم في التفسير، وأن تفسير القرآن في ضوء الاكتشافات العلمية، وإرجاع هذه الاكتشافات إلى نصوصه هو طريق مضمون لتحقيق نهضة العالم الإسلامي، وإن حالة الوهن الحضاري التي يمر بها العالم الإسلامي إنما هي حالة مؤقتة سيتم تجاوزها إذا عاد المسلمون إلى دينهم، واستأنفوا إنتاجهم العلمي، وأقبلوا على فهم كتاب ربهم مستعينين بمقاربة علمية تتناسب مع العناية القصوى التي أظهرها القرآن الكريم بكافة العلوم. يقف في طليعة هؤلاء المفسرين النهضويين الشيخ **طنطاوي** جوهري (ت ١٩٤٠م) صاحب تفسير "الجواهر في تفسير القرآن المشتمل على عجائب بدائع المكونات وغرائب الآيات الباهرات"، والذي يُعد أول وأكمل وأكبر تفسير علمي للقرآن الكريم يستند إلى مشروع نهضوي في العصر الحديث، وكذلك العلامة **محمد فريد وجدي** (ت ١٩٥٤م) صاحب تفسير "صفوة العرفان" الذي خاطب فيه عموم المثقفين، بلغة العلم والإيمان وفق رؤية نهضوية شاملة.

ولا بد من الإشارة أيضاً إلى وجود فئة من المثقفين والباحثين المسلمين أرادت تخفيف الوطأة النفسية لتفوق الغرب "غير المسلم" على المسلمين بالقول إنّ القرآن الكريم قد حوى كلّ العلوم، وإنّ تفسير الآيات الكونية القرآنية وفق الحقائق العلمية يثبت التوافق بين القرآن والعلم، وإن التفوق العلمي والحضاري الغربي إنما هو تفوق في الظاهر فقط لأن القرآن الكريم قد سبق إلى تقرير كل النظريات والحقائق العلمية التي استعان بها الغرب في سبيل سيطرته على العالم الإسلامي، وإن علماء المسلمين هم الرواد الأوائل في الميادين العلمية كافة. نذكر من هؤلاء المثقفين، الطبيب المصري **محمد أحمد الإسكندري** الرائد الفعلي للاتجاه العلمي في التفسير في العصر الحديث حيث نشر كتابه الأول "كشف الأسرار النورانية القرآنية فيما يتعلق بالأجرام السماوية والأرضية والحيوانات والنباتات والجواهر المعدنية" في القاهرة عام (١٨٨٠م)، ونشر كتابه الثاني "تبيان الأسرار الربانية في النبات والمعادن والخواص

الحيوانية" في دمشق عام (١٨٨٣م)، وحنفي أحمد صاحب كتاب "التفسير العلمي للآيات الكونية في القرآن" الذي نُشر في القاهرة عام (١٩٦٠م)، ومحمد جمال الفندي صاحب كتاب "حول الآيات الكونية في القرآن" الذي نشر في القاهرة عام (١٩٦٧م).

على الرغم من الجاذبية الفكرية التي تمتع بها هذا الاتجاه التفسيري، ومن الرواج الإعلامي والانتشار الذي شهده، وخصوصاً في الأوساط الثقافية والعلمية، وعلى الرغم من توظيف بعض الدعاة لنتائج بحوث المشتغلين في هذا الاتجاه في نشاطهم الدعوي، وهو الأمر الذي وسّع من دائرة الإقبال عليه فقد نقده بعض كبار العلماء والمفسرين في العصر الحديث، من أبرزهم: شيخ الأزهر محمود شلتوت (ت ١٩٦٣م)، وأمين الخولي (ت ١٩٦٦م)، وعائشة عبد الرحمن، المعروفة ببنت الشاطئ (ت ١٩٩٨م) معتمدين بشكل أساسي على الانتقادات العلمية التي وجهها الشاطبي (ت ٧٩٠هـ) لأصحاب هذا الاتجاه في كتابه "الموافقات في أصول الشريعة"، حيث رأى هؤلاء العلماء في هذا الاتجاه خروجاً سافراً عن الأصول العلمية الواجب مراعاتها في العمل التفسيري الجاد، واتهموا المشتغلين فيه بعدم مراعاة الدلالات اللغوية للعبارات القرآنية التي يجب أن تُفهم في ضوء معهود العرب اللغوي والثقافي في عصر التنزيل، ومراعاة الأفق المعرفي للعرب المخاطبين الأوائل بالنص القرآني، الذين خاطبهم الله سبحانه في حدود ما وصلوا إليه من علمٍ حتى يتمكن من التأثير بهم، ويقيم الحجة عليهم، ولا يحتجوا هم على القرآن بأنه خاطبهم بما لا يفهمون. واتهموا أصحاب هذا الاتجاه أيضاً بعدم مراعاة الوحدة السياقية للآيات ذات الإشارات الكونية، حيث تمّ عزل هذه العبارات عن سياقها القريب والبعيد، وتمّ توجيهها إلى دلالات لا يحتملها السياق، ولا يقبل بها، وهذا أشد أنواع التعسف في فهم الدلالات القرآنية، وقد اتهموهم أيضاً بالتشويش من خلال الاتهامك التفصيلي في المسائل العلمية، على المقصد الإلهي من إيراد هذه الآيات المتمثل بتحريك عقول الناس، وإثارة تفكيرهم في الظواهر الكونية التي تحيط بهم، والتي تدخل تحت إدراك الجميع للوصول إلى الهداية والإيمان بالله تعالى، ومعرفة صفاته، والإيمان بالبعث والجزاء، والتصديق بالنبوة، واتباع الأنبياء. هذا فضلاً عن اتهامهم لهم بربط القرآن الكتاب الحقّ باكتشافات العلم، ونظريات العلماء التي من شأنها التغير، والتعديل، والتخطئة والتصويب، وهذا الأمر قد يؤدي إلى خلخلة الثقة بالقرآن الكريم وتفسيره، ويؤدي في حقيقة الأمر إلى جعل فهم القرآن متوقفاً على مرجعية من خارجه تتمثل بشكل رئيس بإنجازات الغرب وتقدمه العلمي، وبذلك يصبح النص القرآني تابعاً بدل أن يكون متبوعاً. وفي الحقيقة فإن هذه الانتقادات على الرغم من وجاهتها العلمية فإنها لم تستطع إيقاف المدّ الجماهيري والشعبي والإعلامي للتفسير العلمي، وإن كانت قد ساعدت في صياغة ضوابط وأصول منهجية

للتفسير العلمي أسهمت في بناء مقارنة علمية متوازنة للقرآن الكريم بعيدة عن السطحية والتطرف والغلو العلمي، وإهدار مقاصد القرآن، ونظامه اللغوي.



ثانياً: رائد التفسير العلمي في العصر الحديث: طنطاوي جوهري:

__ النشأة والتكوين العلمي:

وُلد الشيخ طنطاوي في قرية "كفر عوض الله حجازي" إحدى قرى مديرية "الشرقية" في مصر سنة (١٨٦٢م)، وقد نشأ وترعرع في أحضان الريف المصري الهادئ الوداع الجميل، وهناك بدأت روحه النقية، في أثناء فترة اشتغاله بالعمل في الحقول في طفولته المبكرة، تشرب حب الطبيعة وتهيم بجمالها، وبدأت تأسره مناظرها الخلابة الساحرة من حوله، وتطبع في نفسه حب الوجود، وتزرع في داخله الرغبة في الوقوف على أسرارهِ، واكتشاف نظامه، وقد رافقته هذه الرغبة، التي ازدادت عمقاً ونضجاً مع مرور الأيام، حتى آخر يوم من حياته، ويمكن لنا عن طريق هذه الرغبة أن نفسيّر انبهاره بأي علم يساعده على فك رموز الطبيعة والكون من حوله، ويُطلعه على أسرار الجمال والإبداع والنظام فيهما، ونفسيّر أيضاً سر إقباله، وحماسه الشديد فيما بعد للفلسفة، وعلوم الروح في الوقت نفسه لما لهما من علاقة وطيدة باكتشاف الكون، وما وراءه من عوالم مجهولة، كانت تستفز عقله وروحه، وتدعوها إلى الإبحار في عوالمها، واستكشاف أسرارها. ويجب أن لا ننسى الإشارة هنا إلى مدى اهتمام طنطاوي جوهري في هذه المرحلة الأولى التكوينية من عمره بالقرآن الكريم تلاوةً وتدبراً^١.

بعد أن أتمّ جوهري حفظ القرآن الكريم، وأخذ مبادئ العلم في "كتاب" بلدة (الفار) بلدة جدته لأمه، انتقل عام (١٨٧٧م)، وهو في الخامسة عشرة من عمره للدراسة في الجامع الأزهر، فلما وقعت الثورة الغرابية (١٨٨٢م) انقطع عن الدراسة، وعاد إلى قريته، فلما انتهت أحداث هذه الثورة عاد من جديد للدراسة في الأزهر، ليبقى فيه عدة سنوات أخرى استكمل فيها تحصيله في علوم اللغة العربية، وعلوم الشريعة من فقهٍ وكلامٍ وحديثٍ وتفسير^٢. ثم انتقل إلى مدرسة "دار العلوم"، سنة (١٨٨٩م)، وهي مدرسة حكومية رسمية، حيث أقبل هناك على دراسة الفلسفة، ومبادئ العلوم الحديثة من حساب وهندسة وجبر وفلك وكيمياء وطبيعة ونبات وحيوان، بالإضافة إلى دراسته وتعمقه في علوم اللغة والشريعة على اختلاف أنواعها.

^١ انظر، الجواهر في تفسير القرآن، طنطاوي جوهري، ١٠/ ١٢٦.

^٢ انظر، المصدر السابق، ٤/ ١٧١.١٦٩، ١١/ ٧١.

ـ النشاط التربوي والاجتماعي العام:

بعد أن تخرّج الشيخ طنطاوي من دار العلوم سنة (١٨٩٣م)، عُيّن مدرساً في التعليم العام حيث بدأ بالتعليم في مدرسة ابتدائية في دمنهور، ثم انتقل إلى التعليم في مدارس الجيزة والقاهرة، حيث استقر به المقام في المدرسة الخديوية في القاهرة، التي بقي فيها من سنة (١٩٠٠م) إلى سنة (١٩١٠م)، وفي أثناء وجوده في هذه المدرسة بدأ يتصل بالصحافة، ويكتب لها، وعكف أيضاً على دراسة اللغة الإنكليزية حتى أتقنها، وتعرّف من خلالها على كبار علماء الإنكليز في عصره، وترجم عدداً من نصوصهم، كما ترجم شعراً بعض أعمال الشعراء الإنجليز إلى العربية، وبشكل خاص شعر شكسبير (ت ١٦١٦م)^١. وفي هذه الفترة نفسها بدأ يكتب بواكير مقالاته في التفسير، وينشرها في الصحف المحلية^٢.

وفي سنة (١٩١١م)، عُيّن الشيخ طنطاوي مدرساً للتفسير، والحديث النبوي بمدرسة "دار العلوم" التي تخرّج منها، وعُيّن فيما بعد محاضراً في "الفلسفة العربية والأخلاق" في الجامعة المصرية أي جامعة القاهرة اليوم في العام الدراسي (١٩١٢/١٩١٣م). ثم تقلّبت الأحوال به فأقصى من التعليم في دار العلوم، وجامعة القاهرة سنة (١٩١٤م)، بسبب نشاطه الوطني المناهض للاحتلال الإنكليزي الذي اتهمه بإثارة الروح الوطنية، ومعاي الحرية بين طلابه، وعاد مرة أخرى إلى التعليم الثانوي حيث تابع رسالته، ونشر مقالاته وكتبه دون كلل أو ملل.

لم يقصر الشيخ طنطاوي جوهرى نشاطه على العمل العلمي والتربوي، بل اقترح أيضاً ميادين العمل الاجتماعي العام، من خلال مشاركاته العديدة، والتميزة في الجمعيات العامة، حيث أسس "جماعة الأخوة الإسلامية" التي كانت تضم في عضويتها عدداً كبيراً من الطلاب المسلمين، وبشكل خاص من جنوب وشرق آسيا الذين وفدوا إلى مصر لمتابعة تعليمهم الديني فيها، وكان عضواً في جمعية "البر والإحسان" الخيرية، وساهم في إنشاء "جمعية الموساة الإسلامية"، وتولى رئاستها مدة من الزمن^٣.

كما كان يحرص على إلقاء المحاضرات الدينية والعلمية، وبالذات المحاضرات التي تُظهر التوافق بين الدين والعلم في الجمعيات العامة، والمؤسسات التعليمية^٤.

^١ انظر، جوهرى، طنطاوي، الجواهر في تفسير القرآن، ١٦٠/٢.

^٢ انظر، الجندي، أنور، تراجم الأعلام المعاصرين، ١٨٢.

^٣ انظر، جادو، عبد العزيز، الشيخ طنطاوي جوهرى، ٤٠.

^٤ انظر، جوهرى، طنطاوي، الجواهر في تفسير القرآن، ١٩٤/١.

ترك لنا الشيخ طنطاوي تراثاً فكرياً قيماً، يكاد يشكل مكتبة إسلامية ضخمة لوحده ، فقد ترك لنا بالإضافة إلى عشرات المقالات الصحفية، حوالي ثلاثين كتاباً في ميادين التربية والتعليم، واللغة والآداب، والفلسفة، والسياسة، والتاريخ، والعلوم، والتفسير تشيع فيها جميعاً روحه الإصلاحية المتوهجة. ومن أبرز هذه الكتب نذكر: التاج المرصع بجواهر القرآن والعلوم، القرآن والعلوم العصرية، نهضة الأمة وحياتها، أين الإنسان، أحلام في السياسة وكيف يتحقق السلام العام، وأما أبرز كتبه فهو تفسيره " الجواهر في تفسير القرآن الكريم: المشتغل على عجائب بدائع المكوّنات وغرائب الآيات الباهرات" (طُبع سنة ١٣٥١هـ/١٩٣١م): في ثلاثة عشر مجلداً، وهو آخر مؤلفاته، وأشهرها، وقد تُرجم إلى اللغة الأوردية، وقد لاقى انتشاراً وقبولاً حسناً في الهند، وإيران، وإندونيسيا، والسودان، والصين. وقد ترجم عالم صيني مسلم كتابه "القرآن والعلوم العصرية"، وتفسيره سورة الفاتحة فقط إلى اللغة الصينية، الأمر الذي أدى إلى ذبوع شهرة جوهري بين مسلمي الصين كعالم ومصلح ديني.

وبعد عطاء كبير في كل ميادين الفكر والعلم في سبيل نهضة الأمة وتقدمها، وبناء عالم، ومجتمع إنساني فاضل، فاضت روح الشيخ إلى بارئها تعالى في عام (١٣٥٨هـ/١٩٤٠م)، رحمه الله تعالى، وجزاه عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء.

— منهج جوهري في تفسيره "الجواهر":

يُعد تفسير "الجواهر" آخر مؤلفات الشيخ طنطاوي، ويمكن اعتباره خلاصة عامة جامعة، ومركزة لكل الأفكار التي أفنى عمره كله في سبيل اكتسابها، ونشرها بين الناس. وفي الحقيقة، فقد بدأت علاقة جوهري بالتفسير في وقت مبكر في حياته، حيث بدأ يفسّر بعض الآيات القرآنية، ويلقيها على مسامع طلابه منذ أن كان مدرساً في مدرسة دار العلوم، ثم بدأ يكتب بعض المقالات التي تتناول تفسير بعض الآيات الكريمة ممزوجة بالعلوم الكونية الحديثة، وكان يقوم بنشر هذه المقالات في بعض المجلات مثل "الملاحى العباسية"، وجريدة "المؤيد"، وجريدة "اللواء"، وكان يقوم أيضاً بإعادة نشر هذه المقالات في كتبه التي كان ينشرها في ذلك الوقت. ثم بدا له بعد أن استقال من عمله الحكومي عام (١٩٢٢م)^٢ أن يقوم بتفسير كامل للقرآن الكريم من أوله إلى آخره، فأقبل منذ ذلك التاريخ على كتابة تفسيره الذي أعطاه اسماً مشتقاً من اسمه الشخصي "الجواهر في تفسير القرآن" على غرار أسلوبه في تسمية معظم كتبه السابقة.

^١ انظر، جوهري، طنطاوي، الجواهر في تفسير القرآن، ٩٣/١.

^٢ انظر، جوهري، طنطاوي، المصدر السابق، ٢/٧، ١٣/٨٤-٨٥، ١٤/١٠٠.

يقول جوهرى عن بداية كتابته التفسير: "وذلك أني بعد أن قطعت زمان الشباب، وحلّ بساحتي المشيب، وأنا أزال مهنة التعليم، وتأليف الكتب، وجاوزت الستين، رأيت شباب نفسي لطلب العلم، وحبه لا يزال غصاً طري الإهاب قوياً، فأخذت أكتب هذا التفسير، فأكبت على العمل نحو سنتين كاملتين أو يزيد"^١. ولقد انتهى الشيخ من كتابة تفسيره بشكل كامل سنة (١٩٢٥م)، وكان التفسير آنذاك لا يزيد على ١١ جزءاً، ثم استمر في تنقيحه والإضافة عليه حتى وصل إلى حجمه الحالي أي ٢٦ جزءاً تقع في ١٣ مجلداً. وقد طبع في حياته مرتين^٢.

ولقد حدثنا الشيخ طنطاوي عن كتابه هذا، وأسلوبه فيه، وهدفه منه، في المقدمة التي عقدها له: "وكان ابتداء التفسير إذ كنت مدرساً بمدرسة دار العلوم، فكنت ألقى بعض آيات على طلبتها، وبعضها كان يُكتب في مجلة "الملاجئ العباسية"، وها أنا ذا اليوم أوالي التفسير مستعينا باللطيف الخبير، مؤملاً بما قر في النفس، أن يشرح الله به قلوباً، ويهدي به أمماً، وتنقشع به الغشاوة عن أعين المسلمين، فيفهموا العلوم الكونية، وإني لعلّ رجاء أن يؤيد الله هذه الأمة بهذا الدين، وينسج على منوال هذا التفسير المسلمون، وليقرأ في مشارق الأرض ومغاربها مقروناً بالقبول، وليولعن بالعجائب السماوية، والبدائع الأرضية: الشبان الموحدون، وليرفعن الله مدنيهم إلى العلا، وليكونن هذا الكتاب داعياً حثيثاً إلى درس العوالم العلوية [أي النجوم والفضاء الخارجي] والسفلية [أي علوم الأرض وطبقاتها]، وليقومن من هذه الأمة من يفوقون الفرنجة في الزراعة والطب، والمعادن والحساب، والهندسة والفلك، وغيرها من العلوم والصناعات؟ كيف لا، وفي القرآن من آيات العلوم ما يربو على سبعمائة وخمسين آية، فأما علم الفقه فلا تزيد آياته الصريحة عن مائة وخمسين آية. ولقد وضعت في هذا التفسير ما يحتاجه المسلم من الأحكام والأخلاق وعجائب الكون، وأثبت فيه غرائب العلوم وعجائب الخلق مما يشوق المسلمين والمسلمات إلى الوقوف على حقائق معاني الآيات البينات في الحيوان والنبات والأرض والسموات"^٣.

نلاحظ من خلال هذا النص أن جوهرى يعلن بوضوح أن هدفه الرئيس من هذا التفسير هو تفهيم المسلمين العلوم الكونية، وحثهم على الإقبال عليها، والتفوق في دراستها، كمقدمة ضرورية لاستئناف المدنية الإسلامية المجهضة.

^١ جوهرى، طنطاوي، المصدر السابق، ١٧/ ١٨٥.

^٢ انظر، جوهرى، طنطاوي، المصدر السابق، ١٧/ ١٨٥-١٨٦، وانظر، آل جعفر، مساعد مسلم، وحى هلال السرحان، مناهج المفسرين، (بغداد، دار المعرفة، ١٤٠٠م)، ٢٦٠.

^٣ جوهرى، طنطاوي، الجواهر في تفسير القرآن، ١/ ٣.

وقد أشار بوضوح تام في مكان آخر أن تجديد الأمة، وترقية الجنس البشري بشكل عام هو الهدف الأخير من وضع هذا التفسير: "وعسى الله أن يُجدد لهذه الأمة أمرها، ويُرجع مجدها، ويرفع عنها نيرها، ويجعلها رحمة للعالمين. اللهم إني لا أريد بكتابي إلا رقي النوع الإنساني، وأن يكون المسلمون أرشد العالمين، وأصلح بني الإنسان، وأن يكونوا قادة وسادة ورحمة لهم لا يظلمون ولا يُظلمون".^١

وبهذا نفهم أن الغاية الإصلاحية هي الغاية التي هيمنت هيمنة تامة على تفسير "الجواهر"، ومن هنا يحق لنا أن نستغرب كيف تم إغفال دراسة وتحليل هذا التفسير ضمن تفاسير المدرسة الإصلاحية، وكيف تمّ تصنيفه في مدرسة التفسير العلمي فقط مع أن التفسير العلمي بالنسبة للشيخ جوهرى على الرغم من أهميته المركزية لا يزيد على أن يكون الوسيلة الرئيسة للتجديد والإصلاح، وليس هو الهدف الأخير من هذا التفسير.

والآن لنبدأ بذكر الخطوط العريضة لطريقته ومنهجه في التفسير.

١_ استخدم، أسوةً بكافة المفسرين السابقين، منهج التفسير التحليلي، بمعنى أنه فسّر القرآن الكريم كاملاً حسب الترتيب العثماني، حيث بدأ بسورة الفاتحة، وانتهى بسورة الناس. وبهذا يُعد تفسير الجواهر أول تفسير كامل للقرآن الكريم في مصر في العصر الحديث.

٢_ كان يقسّم كل سورة إلى عدة أقسام، يجمع في كل قسم مجموعة آيات يرى أنها تُشكل وحدة نصية واحدة، تتناول معنى واحداً، ثم يفسّر السور قسماً قسماً مفتتحاً كل قسم بتفسير لفظي موجز له، يحرص فيه على تعريف الكلمات والمفاهيم الرئيسة الواردة فيه بشكل واضح ومنضبط، ثم ينتقل بعد ذلك إلى ذكر المعنى الإجمالي لآيات القسم الذي يشرحه، وهو هنا لا يزيد على ذكر المعاني العامة المذكورة على وجه الإجمال في التفاسير السابقة، ثم يختار بعض الكلمات والمعاني الواردة في القسم الذي يفسّره، ويعقد لها فقرات خاصة تحت أسماء خاصة يختارها غالباً من أسماء الجواهر وصفاتها (مثل: الجوهرة، الزمردة، الزبرجدة، الياقوتة..)، ثم يبدأ بذكر صفحات عديدة تتناول كل ما يتعلق بهذه الكلمات والمعاني من معلومات طبيعية واجتماعية ونفسية وتاريخية كشف عنها العلم الحديث. وفي نهاية كل سورة يعقد غالباً فقرة خاصة تحمل اسم "النظرة العامة للسورة" يلخص فيها أهم الأفكار والمعاني الواردة فيها.

^١ جوهرى، طنطاوي، المصدر السابق، ٨٧/٥.

٣_ في الأقسام التي خصصها لتفسير المعنى الإجمالي، استخدم جوهرى منهج التفسير بالأثر، حيث استعان، ولو بشكل مقتضب ومحدود، ودون تحقيق وعزوٍ للأقوال إلى أصحابها، على فهم المعاني العامة للآيات، بالقرآن الكريم نفسه، وبأسباب النزول، وبعض الأحاديث النبوية، واللغة والبلاغة، والقليل من الأخبار الواردة عن السلف رضوان الله عليهم أجمعين.

٤_ كان يحرص في بداية كثيرٍ من السور القرآنية على بيان المعاني الكلية التي تعالجها السورة، فسورة البقرة تدور في نظره حول محورين عامين هما: الإيمان والعمل^١، وبهذا يمكن أن نقول إن تفسير الجواهر كان خطوة مهمة على طريق الاهتمام بالوحدة الموضوعية للسور القرآنية.

٥_ كان يحرص حرصاً شديداً على بيان وجوه الاتصال والتناسب بين السور القرآنية، وبين الآيات داخل كل سورة على حدة^٢، ولعل هذا الاهتمام يأتي متسقاً مع اهتمامه الحثيث بالبحث عن روح النظام والنسق في الكون والأمم؛ إذ إن كتاب الله تعالى، في نظره، يتطابق مع نظام الكون من حيث إنه كلام الله، والكون فعله، وبالتالي لا بد من التطابق بينهما على مستوى البناء والتنظيم الخارجي، وعلى مستوى المحتوى، والمضمون الداخلي.

٦_ اعتنى جوهرى عناية كبيرة، بإبراز السياق التاريخي والثقافي لنزول القرآن الكريم، وتحديد البيئة التاريخية، وأماكنها وأحداثها وأشخاصها، التي نزل القرآن الكريم فيها، من خلال حرصه الشديد على جمع وذكر أسباب نزول الآيات الكريمة، وحرصه كذلك على ذكر العادات، وظروف البيئة العربية التي سبقت ورافقت نزول هذه الآيات^٣.

فقارئ هذا التفسير يخرج من قراءته بفهم معقول للسياق التاريخي والثقافي لنزول القرآن الكريم، ولا شك في أنّ جهد جوهرى في هذا المجال هو جهد علمي مشكور، وقد شكّل حجراً أساسياً لكل من جاء بعده من المفسرين الذين أخذوا بعين الاعتبار هذا السياق في تفسيرهم، وأخص بالذكر منهم محمد عزة دروزة (ت ١٩٨٤م).

٧_ لم يُظهر الشيخ جوهرى اهتماماً كافياً بالتفسير الفقهي للآيات التشريعية بشكل عام، وكان يكتفي في تفسير أحكام هذه الآيات بذكر الأقوال الفقهية بشكل موجز جداً، منسوبة إلى أصحابها من علماء الصحابة والسلف وأئمة المذاهب، مع عناية خاصة بالمذهبين الحنفي والشافعي، من دون اللجوء إلى ذكر أدلة كل فريق في الأغلب، أو

^١ انظر، جوهرى، طنطاوي، المصدر السابق، ١/ ٢٧٨.

^٢ انظر، جوهرى، طنطاوي، الجواهر في تفسير القرآن، ٣/ ٥٤.

^٣ انظر على سبيل المثال، جوهرى، طنطاوي، المصدر السابق ٣/ ٦٧-٦٨.

حتى وجه دلالة الآية المفسرة عليها، ودون الترجيح بين هذه الأقوال في الغالب. وكان يرجع في نقل هذه الأقوال إلى كتب التفسير السابقة، كتفسير الطبري، وابن كثير، والبغوي والرازي^١.

وفي الحقيقة فإن عدم اهتمام جوهري بالجانب الفقهي من التفسير ينسجم مع رؤيته الإصلاحية التي يضع فيها الاعتناء بالعلوم الكونية في المقام الأول، ويرى فيها أن الآيات الكونية أولى بالاهتمام والعناية من آيات الأحكام بشكل عام. وقد يكون السبب في ذلك أيضاً هو أن العلماء والمفسرين الذي سبقوه، قد أعطوا تلك الآيات التشريعية جلّ اهتمامهم في تفاسيرهم، ولم يعطوا الآيات الكونية ما تستحقه من اهتمام ودراسة وبحث، لذا انصبّ اهتمامه الزائد على دراستها وتفسيرها، دون آيات الأحكام، التي لم يُبَيِّح السابقون في تفسيرها، واستنباط الأحكام منها مزيداً لمستزيد من اللاحقين.

٨- لم يلجأ جوهري إلى استخدام التحليل اللغوي والبلاغي إلا في أدنى الحدود، وبقدر الحاجة، وبأبسط طريقة ممكنة، وجلّ اهتمامه اللغوي كان ينصب على تحليل الكلمات الغريبة للوقوف على أصل اشتقاقها لتحديد معناها بدقة^٢.

وقد كان من منهجه وخطته في التفسير بشكل عام أن لا يخوض في بحر القضايا الخلافية التي لا يرى من ورائها فائدة علمية، أو عملية ذات قيمة، فهذا هو يقول في تفسير قوله تعالى: {آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللّهِ وَمَلَأَتْهُ وَكُتِبَ وَرُسُلُهُ لَا تُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ} البقرة: ٢٨٥، بعد أن أشار إلى خلاف العلماء في أيهما أفضل الملائكة أم الأنبياء: "وقد اختلف العلماء في ذلك اختلافاً كثيراً لا فائدة فيه، إذ لا أثر له في العقول، ولا في رقي المتعلمين"^٣.

ولعل في اقتصاد جوهري الشديد في المسائل الشرعية، والفقهية، واللغوية، والبلاغية، والقضايا الخلافية، وتوسعه الشديد في مقابل ذلك في القضايا العلمية والروحية، والمسائل الإصلاحية، دليلاً واضحاً على مدى انسجام منهجه في التفسير مع هدفه من هذا التفسير، أي اتخاذ التفسير منبراً عالياً لتبليغ مشروعه الإصلاحي لمسلمي عصره، ولا يهمله بعد ذلك، إذا لم يُعطِ التفسير حقه من التمحيص والتحقيق العلمي للمسائل التي يطرحها القرآن الكريم نفسه سواءً على الصعيد العقدي أم على الصعيد التشريعي، وهذا تقصير كبير منه، دفع كثيراً من القراء إلى إهمال تفسيره..

^١ انظر، جوهري، طنطاوي، الجواهر في تفسير القرآن، ٢٨/٣، ٤٩، ٦٧-٦٩، ١٢٧، ١٢٩.

^٢ انظر، جوهري، طنطاوي، المصدر السابق، ١٥٤/٢.

^٣ جوهري، طنطاوي، المصدر السابق، ٢٧٩/١.

٩ _ تظهر في التفسير مسحة صوفية شفافة، ونزعة خلقية راقية، التفت جوهرى من خلالها للمعاني الروحية العميقة التي يتضمنها كتاب الله عزَّ وجلَّ، وقد عمل جوهرى على استثمار هذه النزعة والفهم الصوفي الذي تقبله حدود اللغة العربية وحقل دلالتها، في سبيل تحريك طاقة المسلم نحو العمل، وحفزه إلى العلم، والسير في الأرض، وتحمل أعباء الإصلاح^١، وهكذا فقد شكَّلت إشاراتهِ الصوفية دافعاً إضافياً للعقل والجهد البشري للعمل في ميدان عمارة الأرض، وإصلاح أحوالها^٢.

١٠ _ كان يقرب الأشياء التي لا تخضع للتفسير العلمي المادي كإحياء الموتى، ووجود الملائكة والجن والبعث والنشور والخوارق والأمور الغيبية إلى الأذهان بشكل عام باستخدام المعلومات العلمية الموجودة بين يديه، وباستخدام أسلوب قياس الغائب على الشاهد الشائع عند متكلمي الخلف، واستخدام أسلوب التمثيل من أجل تقريب هذه المعاني الغيبية إلى مثقفي عصره الماديين. فهو يقيس الملائكة على النفس (المخ) في الإنسان، فكما أن النفس تسيطر على الجسد، وتدبر شؤونهِ، فكذلك الملائكة، فهي قد تكون _ من باب التقريب _ قوى خلقها الله تعالى تدبر وتسيطر على كل ما خلقه الله في الكون من الكواكب والشمس والقمر والنبات والحيوان. يقول جوهرى أثناء قصة سجود الملائكة لآدم في سورة البقرة: "فحتاج أن نبين آدم وخلافته والملائكة، فنقول: إن معرفة الله Y وملائكته تجلُّ عن العقول، وتدق عن الأفهام، وليس يتم ذلك للإنسان إلا بمثال يعرفه، وشاهد يعقله، ويجس به من نفسه لأننا في هذه الدنيا محجوبون عن الملائكة الأعلى، وأقرب الأشياء إلينا أنفسنا، فمن فكر فيها رأى شواهد تشير بطرف خفي إلى ما في هذا العالم غير المشاهد والمعقول، لذلك كان الإنسان خليفة الله، ومتى أدركنا أنفسنا عرفنا خلافتها، واقتربنا من فهم الملائكة، وتدبير الله للخلق... [بعد أن تحدث طويلاً عن تدبير النفس للجسد، قال] وهكذا جري الكواكب والشمس والقمر، ونمو النبات والحيوان، كل ذلك بعالم خفي عن الأبصار يُسمى ملائكة مرسله من الله في العوالم.. وها أنا ذا قد أبنت لك طرفاً من علم التشريح وعلم النفس، وذكرْتُ لك أن القوى التي في نفوسنا تمثّل للملائكة، وهذا ليس دليلاً، وإنما هو استئناس بضرب الأمثال والمشابهات"^٣. وكان لا يتردد في بعض الأحيان عن تأويل بعض الآيات بما يتوافق مع النظريات الروحية التي شاعت في عصره في بعض المحافل في أوروبا وأمريكا. ولنذكر على سبيل المثال هنا ما قاله في تفسير قوله

^١ انظر على سبيل المثال، جوهرى، طنطاوي، المصدر السابق، ١/ ٢٧٩، وما بعدها.

^٢ انظر، جوهرى، طنطاوي، المصدر السابق، ٣/ ١٢١-١٢٢.

^٣ جوهرى، طنطاوي، الجواهر في تفسير القرآن، ١/ ٥٣-٥٦. يقترب جوهرى هذا من الملائكة من موقف محمد عبده قبله، انظر، الرومي، فهد عبد الرحمن، منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير، ٦٢٠-٦٢٨.

تعالى: {وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ} البقرة: ٦٧: "وأما علم تحضير الأرواح، فهو مستخرج من هذه الآية، إن هذه الآية تُتلى، والمسلمون يؤمنون بها، حتى ظهر علم الأرواح بأمريكا أولاً ثم بأوروبا ثانياً... ولما كانت السورة التي نحن بصددتها قد جاء فيها حياة العزيز بعد موته، وكذلك حمارة، ومسألة الطير، وإبراهيم الخليل، ومسألة الذين خرجوا من ديارهم فرارا من الطاعون، فماتوا، ثم أحياهم الله، وعلم الله أننا نعجز عن ذلك، جعل قبل ذكر تلك الأمور في السورة، ما يرمز إلى استحضر الأرواح في مسألة البقرة، كأنه يقول: إذا قرأتم ما جاء عن بني إسرائيل في إحياء الموتى في هذه السورة عند أواخرها، فلا تئسوا من ذلك، فيأتي قد بدأت بذكر استحضر الأرواح، فاستحضروها بطرقها المعروفة، {واسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون} [يشير إلى "علماء" الغرب في ميدان تحضير الأرواح باعتبارهم هم الذين اكتشفوا هذا "العلم" في العصر الحديث]. ولكن ليكن المحضّر ذا قلب نقي خالص على قدم الأنبياء والمرسلين، كالعزيز وإبراهيم وموسى، فهؤلاء لعلّ أنفسهم، أريتهم بالمعانية، وأنا أمرتُ نبيكم أن يقتدي بهم، فقلتُ: {فبهدهم اقتده} ^١. أغلب الظن عندي أن حرص جوهرى على تأويل هذه الآية على هذا النحو، لتتسجم مع ما وصلت إليه نتائج النظريات الروحية الحديثة، إنما هو جزءٌ من اندفاعه الشديد وراء "العلم"، وإن كان هذا العلم على شكل نظريات لم تتحول بعدُ إلى حقائق علمية، فإيمانه الشديد بالعلم وقدرات الغريبيين العلمية جعلته يمشي خلف بعض الغريبيين في إيمانهم باستحضار الأرواح، متجاهلاً حقيقة مهمة في هذا المجال، وهي أن هذه الآية لا تتحدث أصلاً عن محادثة روح القتيل، بل هي تتعلق كما هو ظاهر النص بإحياء القتيل جسداً وروحاً على مرأى من الناس جميعاً على حد سواء. هذا فضلاً عن أن هذه الآية تتحدث عن معجزة حدثت على يد نبي من أنبياء الله تعالى، وهناك اتفاق بين جميع علماء العقيدة في الإسلام، أنّ المعجزات انتهت بانتهاء زمن النبوت، واستحضار الأرواح كما يذهب إليه جوهرى أمرٌ قابل للحدوث الآن، وفي كل وقت، وبهذا يكون جوهرى أبطل حقيقة الإعجاز في هذه الآية، وأبطل الاستدلال بها على قدرة الله تعالى على إحياء الموتى.

^١ انظر التفسير الكامل لهذه الآية الكريمة، جوهرى، طنطاوي، الجواهر في تفسير القرآن الكريم، ١/٨٠-٩٠. وانظر حديثه عن السحر والتنجيم المغناطيسي في تفسيره لقوله تعالى: {واتبعوا ما تنزلوا الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين هاروت وماروت} البقرة: ١٠٢. الجواهر، ١/١٠١-١٠٧.

١١_ وظّف مجموعة من العلوم الكونية الحديثة، وقام بإدراج نصوصٍ منها بشكل مطول في تفسيره مجرد ورود كلمة لها علاقة بأي مظهر من مظاهر الكون^١. وهنا تجدر الإشارة إلى أنّ جوهرى كان يعتقد أن الإشارات التاريخية والعلمية الواردة في القرآن الكريم مذكورة بطريقة مجملة، وهي تشكّل في مجموعها مقدماتٍ دافعة للبحث العلمي الذي يجب أن يقوم به علماء الأمم، وبشكل خاص المسلمون منهم الذين سبق لهم تلاوة الآيات التي تتضمن هذه الإشارات. فالقرآن الكريم يذكر الحقائق مجملة عامة من حيث تضمنه الإشارة إلى كل الظواهر الكونية من جهة، ويبحث علماء الأمم على استقصاء هذه الحقائق والوقوف على تفاصيلها من جهة أخرى، فبيان وتفصيل المسائل العلمية والتاريخية من مهام العقل والخبرة البشرية، وليس من مهام الوحي الذي يكفي بالإجمال، وإثارة الرغبة عند البشر في اكتشاف هذه العلوم، وليرتقوا بعد ذلك بقدر تعمقهم في دراسة هذه العلوم في مدارج الحضارة والتقدم. يقول جوهرى: "واعلم أن خلق آدم وحواء ليس هناك دليل قطعي على كيفيته، والقرآن أتى به مجملاً على مقتضى ما تقبله العقول وتفهمه النفوس، فأما التفصيل، فليس للكتب السماوية، وإنما هذه مقدمات يؤتى بها للمقاصد، فأما التفصيل فقد قام به علماء الأمم من عجم وعرب"^٢. ويقول في موضع آخر في حوارٍ له مع شخصٍ آخر نافياً عن نفسه تهمة من نسب له القول إنّ كل العلوم التي ظهرت في الغرب موجودة في القرآن الكريم: "وأنا لم أقل إن أهل أوروبا استنتجوه من القرآن، بل استنتجوه بعقولهم، ولقد بعث الله الغراب وغير الغراب لهم كما بعث لنا، وأراهم الغراب وغير الغراب كما أرانا، ولكن هم رأوا، ونحن ما رأينا، وهذا عار على أمة الإسلام أن تجهل عقلها، وتجهل دينها، فأنا لم ألصق بالقرآن يا صاحٍ علماً ولا صناعةً، وإنما أنا متبع لا مبتدع [يقصد أنه متبع لعلماء الإسلام الذين أوجبوا دراسة العلوم الكونية، واعتبروها من فروض الكفايات التي تتوقف عليها مصالح المسلمين، مثل الجويني والغزالي]^٣، فقال: لقد أحسنت، كل الإحسان، وأجبت ما في صدري، وعلمت اليوم أن الذي يقولون فيك ما قلته الآن [أي اتهامه بإلصاق كل شيء بالقرآن والدين] جُهَال لم

^١ انظر على سبيل المثال تفسيره لقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ قَاسِمِعْوَا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لَا يَسْتَفِيدُوا مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ} الحج: ٧٣، حيث تناول بالتفصيل الذباب والنمل، وتاريخ علم الحيوان بشكل عام، ناقلاً من الكتب الأوروبية والعربية نقولاً طويلة. الجواهر في تفسير القرآن، ١١/ ٧٦. ٩٤.

^٢ جوهرى، طنطاوي، المصدر السابق، ٥/٣.

^٣ انظر، جوهرى، طنطاوي، الجواهر في تفسير القرآن، ٣/ ١٧٨.

يقرؤوا مقالةً تامةً من كلامك، فقلتُ: الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات"^١. وبهذا يمكن أن نقول إنه قد تم فهم علاقة تفسير "الجواهر" بالعلوم الكونية بشكل مغلوطة.

ومهما يكن من أمرٍ، فقد أفرط طنطاوي في استخدام العلوم الكونية في تفسيره، إلى درجة أنه اعتبرها مرجعية إجبارية لفهم القرآن وتفسيره، فهذا هو يقول: "هذا القرآن يستحيل أن ينتفع به المسلمون إلا إذا قرؤوا جميع العلوم، ومن أين يعرفون معنى هذه الآيات التي تُعرض على العامة والأطفال لأنها في السور الصغيرة المعروفة لكل قارئ [يقصد سور جزء عم] إلا بالعلوم والمعارف، وأرجو أن يتم ذلك بعد انتشار هذا التفسير"^٢. ويقول في موضع آخر: "أو ليس في قوله [تعالى]: {شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط} ما يدعو إلى سائر العلوم، فإن القيام بالقسط هو نفس النظام، أي نظام الفلك، ونظام الطبيعة. وقد قال علماؤنا: لا يعرف معنى القيام بالقسط إلا من درس سائر العلوم، كما قالوا في قوله تعالى {ووضع الميزان} في سورة الرحمن، إن هذا الميزان لا يعقله إلا الذي درس كل علم كالطبيعة والفلك والكيمياء"^٣. في كلام جوهري هذا خروجٌ عن طبيعة النص القرآني، ومنهجية فهمه، فالعلوم ضمن شروط منهجية منضبطة، قد تزيد عملية التفسير غنى وعمقاً، ولكن بلا شك فإنَّ الناس يستطيعون من دونها أن يفهموا القرآن الكريم في الحدود المعقولة الضامنة لتوظيفه في حركة التاريخ وصياغته، والدليل على ذلك ما فعله المسلمون الأوائل الذين لم تدخل العلوم الكونية في مرجعياتهم العلمية في فهم القرآن الكريم، وعلى الرغم من ذلك فقد فتحوا العالم، وأسسوا حضارة عالمية بكل المقاييس الحضارية المعروفة في تلك الأزمان. ولكن تجدر الإشارة هنا إلى أن الشيخ طنطاوي كان يهدف من سرد شتى العلوم والمعارف في تفسيره إلى إيقاظ رغبة الأجيال الجديدة من المسلمين في دراسة العلوم الحديثة، ودفعهم دفعاً من خلال ربطها بالقرآن الكريم إلى الإبداع في هذه العلوم، والتفوق فيها على الغربيين الذين احتلوا بلادهم، وعملوا على منع وصول هذه العلوم إليهم، خوفاً من استيقاظهم، وانتزاع بلادهم منهم^٤. يقول جوهري موضحاً هدفه من ذكر العلوم الكونية في تفسيره: "أن تترقى العقول الإسلامية كما تترقى عقول البشر بهذه العلوم، ولذلك لما دخل الفرنجة بلادنا المصرية منذ ٤٥ سنة، منعوا هذه العلوم عن المصريين ليحصروها في الجهالة.. لأن علماءهم أفهموهم أن تعليم الأمم الحكومة يجعلها مدركة

^١ جوهري، طنطاوي، المصدر السابق، ١٧٩/٣. وانظر أيضاً، ١١/٢.

^٢ جوهري، طنطاوي، المصدر السابق، ١٩٦/٨.

^٣ جوهري، طنطاوي، المصدر السابق، ٣٣٧/١. ٣٣٨.

^٤ انظر، جوهري، طنطاوي، الجواهر في تفسير القرآن، ٣/١.

الحقائق، فتطرد المستعمرين، وهذا شأن الغاصب مع صاحب البلاد، وأنا أنصح المسلمين جميعاً أن يعرفوا هذه العلوم، ويقرؤوها لينفعوا أمهم، ويطردوا عدوهم، ويرضوا ربهم"^١. ويقول في موضع آخر: "عرفت ما اشتهر عن أهل أوروبا أنهم إذا احتلوا أمةً من أمم الشرق شرعوا يمتنون النفوس المتعلمة، فيلقون العلم إليهم قشوراً، ولا يُحبونهم فيه خيفة أن تتبع النفوس إلى الحكمة فيفلتون من أيديهم. اللهم إني أحمدك أنك ألهمتني أن أولف هذا التفسير حتى يكون نموذجاً تقرؤه الأمم الإسلامية التي حُكم عليها بالاستعمار، فلا تُحرم مما يجيبها في العلم على الوجه الصحيح فيكون ذلك سبيلاً لرفيهم، واستقلالهم"^٢. وهكذا نفهم أنّ إدراج جوهرى في تفسيره مئات الصفحات من المعلومات الكونية، حتى لو يكن لها أدنى علاقة بالآيات المفسرة إلا ورود اسم أو لفظ له علاقة بالأمور الكونية، لم يكن إدراجاً معرفياً فقط، كما قد يتبادر إلى الذهن، بل كان بالإضافة إلى ذلك منهجاً فكرياً حاول من خلاله نفع الأمة، وإنهاضها، وتأهيلها للتصدي للاستعمار والانعقاد من سلطته التي تعيق نهضة وتقدم المجتمعات الإسلامية.

١٢ _ تسود التفسير من أقصاه إلى أقصاه روح إصلاحية متوهجة، تدعو بحماس وإخلاص منقطعي النظير إلى إصلاح أحوال العالم الإسلامي، وتدعو المسلمين إلى استئناف نهضتهم، واستعادة دورهم التاريخي في العالم، وهي لا تفتقر في تشخيص علل وأمراض الأمة الإسلامية، وتقترح في مقابل هذه العلل حلولاً ومخارج، كان يرى رحمه الله تعالى أنّها مصيرية، وحاسمة، ولا بدّ من الأخذ بها^٣. وبسبب شدة وضوح وحضور هذه الروح الإصلاحية، يمكن لنا أن نصف تفسير جوهرى بأنه تفسير عملي، بمعنى أنّ جوهرى كان يحرص دائماً على توجيه كلامه لا لمجرد الإعلام والبيان والإظهار، بل من أجل دفع القارئ إلى ميدان الحركة والعمل، ميدان الانخراط في تبني وإنجاز المشروع الإصلاحي الذي يدعو إليه. فهو لا يكف عن توجيه الخطاب إلى القارئ الذكي، وإلى عموم الأمة الإسلامية ممثلة بعلمائها وأمرائها وحكامها، وحثهم على أن ينهضوا جميعاً، ويلتفوا حول أفكاره الإصلاحية قياماً بحق الإسلام، ونهضته العتيدة في العصر الحديث. يقول جوهرى: "ولتعلم أيها الذكي المطلع على هذا الكتاب أنك مسؤول عن هذه الأمة، وإياك أن تقول مَنْ أنا، فإنك متى كنت مغرماً بقراءة أمثال هذا الكتاب، فلا جرم تكون نفسك من ذوي الجد والعلم الذين يعرفون قيمة أنفسهم، وهم مصلحون فلتكن مصلحاً، ولترشد الناس بقلمك ولسانك وحديثك، ولتعرض الأمة على حوز العلوم. فلعمري لقد قابلت طوائف من هذه الأمة المسكينة من أهل

^١ جوهرى، طنطاوي، المصدر السابق، ٩٤/١١.

^٢ جوهرى، طنطاوي، المصدر السابق، ٨٣/١١.

^٣ انظر على سبيل المثال، جوهرى، طنطاوي، المصدر السابق، ١٧٢/١٢ - ١٧٩، ١٨٣، ١٨٥، ٢٢٢، ٢٣٢. وانظر بشكل خاص الأجزاء الأخيرة من هذا التفسير.

جأوة، وسومطرة وبلاد الملايو، وبلاد سيام.. ومن بلاد الصين، فوجدتهم جميعاً حاملين خامدين نائمين لم يفتنوا، وذلك لما رسخ في عقول علماء الدين أن الدين بعيدٌ عن العمران، بعيدٌ عن الأوطان، بعيدٌ عن العلوم، بعيدٌ عن الصناعات، فضلوا وأضلوا، وهم لا يعقلون. فلتنقذ الأمة من ضلالها، ولتنتشلها من هذتها، ولتطلعها على دينها الصحيح في نحو ما سطرنا، وفي مثل ما كتبناه"^١.

١٣ _ استخدم أسلوب القص، والحكاية، والحوار بشكل متميز، والحكايات التي ذكرها إما حوادث شخصية جرت معه، أو حكايات من التراث الإسلامي، أو من ثقافات العالم الهندية، واليونانية، والأوربية^٢. وهو بهذه الحكايات قام بغرس معاني الآيات التي فسرها غرساً عميقاً في عقل القارئ، وقام بتوسيع آفاقه ومداركه في الوقت نفسه من خلال اطلاعه على جزء من تاريخ وثقافات العالم من حوله. هذا فضلاً عن أن ذكره للحكايات في سياق تفسيره كان يساعد القارئ على استرجاع نشاطه الذهني، واستعادة تركيزه وانتباهه، وبهذا يمكن تشبيه حكايات جوهرى في تفسيره بمحطات الراحة والاستجمام التي ينزل فيها القارئ في أثناء معاناته قراءة تفسيرٍ مليء بالمسائل العلمية، والقضايا الفلسفية، والمشاكل الإصلاحية.

١٤ _ استخدم في تفسيره الرسوم التوضيحية، والجداول، وصور النباتات والحيوانات، والمناظر الطبيعية، وقام أحياناً بتلخيص تفسير آية ما عن طريق تحويل هذا التلخيص إلى جدولٍ على طريقة البيانات والمخططات الحديثة^٣. ومما لا شك فيه أنه متأثرٌ بعمله هذا بخبرته التربوية الطويلة، والعميقة في ميدان التربية والتعليم، فهذه الطريقة، وإن كانت غريبة تماماً عن كتب التفسير القديمة والحديثة على السواء، فإنها لا تخلو من فائدة في توضيح المعاني، وتثبيتها في ذهن القارئ من جهة، وتشويقه، ودفعه لمتابعة قراءة التفسير دون كلل أو ملل من جهة أخرى، وفي الحقيقة، فإنه لا يوجد أي سبب أو دليل شرعي يمنعه من استخدامها.

__ محاولة في تقويم تفسير "الجواهر":

يقول رشيد رضا في معرض تقويمه لتفسير "الجواهر" رداً على سؤال ورد إلى مجلته من سائل تونسي يسأله عن قيمة هذا التفسير: "الأستاذ الشيخ طنطاوي مغرم بالعلوم والفنون التي هي قطب رحي الصناعات والثروة والسيادة في هذا العصر، ويعتقد بحق أن المسلمين ما ضعفوا، وافتقروا، واستعبدوا الأقوياء إلا بجهلها، وأنهم لن يقووا، ويثروا، ويستعيدوا استقلالهم

^١ جوهرى، طنطاوي، الجواهر في تفسير القرآن، ١١٥/٦.

^٢ انظر على سبيل المثال، جوهرى، طنطاوي، المصدر السابق، ٩٢/٣.

^٣ انظر على سبيل المثال، جوهرى، طنطاوي، المصدر السابق، ٩٦/٣، ١٠٢-١٠٣.

المفقود إلا بتعلمها على الوجه العملي بحذقها مع محافظتهم على عقائد دينهم، وآدابه، وعباداته وتشريعه، ويعتقد حقاً أن الإسلام يرشدهم إلى هذا بل يوجهه عليهم، فألف كتباً صغيرة في الحث على هذه العلوم والفنون، والتشويق إليها من طريق الدين، وتقوية الإسلام بدلائل العلم، ثم توسّع في ذلك بوضع هذا التفسير الذي يرجو أن يجذب طلاب فهم القرآن إلى العلم، ومحبي العلم إلى هدى القرآن في الجملة، والإقناع بأنه يحث على العلم لا كما يدّعي الجامدون من تحريمه له، أو صده عنه، فهو لم يُعن ببيان معاني الآيات كلها، وما فيها من الهدى والأحكام بقدر ما عُني بسرد المسائل العلمية، وأسرار الكون وعجائبه.. ولا يمكن أن يُقال: إن كل ما أورده فيه يصح أن يُسمّى تفسيراً له، ولا أنه مُراد الله تعالى من آياته، وما أظن أنه هو يعتقد هذا.. وجملة القول إن هذا الكتاب نافعٌ من الوجهين اللذين أشرنا إليهما.. وصاحبه جدير بالشكر عليه، والدعاء له، ولكن لا يعول عليه في حقائق التفسير، وفقه القرآن لمن أراد، فإنه إنما يذكر منه شيئاً مختصراً منقولاً من بعض التفسير المتداولة^١. نلاحظ، من هذا النص، أنّ رشيد رضا قد أدرك عظم المهمة الإصلاحية التي نذر لها طنطاوي نفسه من خلال تفسيره، ألا وهي دعوة المسلمين لاستعادة نهضتهم الحضارية، واستقلالهم السياسي عن طريق تقريب العلم من أهل الدين، وتقريب الدين من أهل العلم، ولا يستطيع أحد أن يعرف قيمة هذه المهمة الجليلة إلا إذا علم أنّ مصر، وعموم بلاد العالم الإسلامي في مطلع القرن العشرين كانوا يعيشون أزمة روحية كبيرة كادت تقتلعهم من جذورهم، بسبب ظهور علامات تفوق الغرب الباهر على المسلمين في كافة الميادين العلمية، الأمر الذي دفع بكثير من المسلمين إلى فقدان الثقة بأنفسهم ودينهم، وإلى الاعتقاد أنّ الإسلام هو المسؤول عن تخلف المسلمين العلمي والحضاري، وقد دفع هذا الاعتقاد الساذج الكثير منهم إلى التخلي عن الإسلام والاستهتار به، ووصفه بأنه دين التخلف ودين القرون الوسطى المظلمة، ولا مكان له في العالم الحديث، عالم العلم والتقدم. ولكن إقرار رشيد رضا لجوهري بهذا الدور الكبير الذي لعبه في خدمة وجلاء الوجه الحضاري للإسلام، لم يمنعه من نقده بسبب اقتصاده في بيان المعاني القرآنية العقديّة والتشريعية، وبسبب حشده كماً هائلاً من المعلومات العلمية في سياق تفسيره، دون أن يكون لهذه المعلومات ضرورة في بيان المعنى المقصود من الآيات المفسّرة، بل على العكس من ذلك فقد تقف هذه المعلومات الكثيفة حاجزاً دون الفهم المنشود من الآيات، وبالتالي تصرف ذهن القارئ لهذا التفسير عن مقاصد القرآن وهديه.

وقد اتفق مصطفى الطير، وهو من علماء التفسير في العصر الحديث، في تقويمه العام لمنهج الشيخ جوهري مع الشيخ رشيد رضا، حيث أثني، من جهةٍ على الشيخ طنطاوي وعلى جهوده المخلصة في ميدان نهضة المسلمين

^١ رضا، رشيد، مجلة المنار، المجلد ٣٠، الجزء ٧، سنة ١٣٤٨هـ / ١٩٢٩م، ص ٥١٥-٥١٧.

العلمية، ومن جهة أخرى فقد نَقَدَ إسرافه في حشد العلوم بين دفتي التفسير، وانتقده أيضاً لإقحامه آراء المدرسة الروحية الحديثة في التفسير، وخصوصاً تحضير الأرواح، ومعرفة الغيب عن طريق الاتصال بالأرواح، وإعطائها مشروعية دينية وعلمية انطلاقاً من آيات قرآنية لا تحتمل هذه المعاني على الإطلاق^١.

يقول مصطفى الطير في معرض تقويمه لتفسير "الجواهر" ما نصّه: "فإن القرآن أنزل للهداية، لا ليكون موسوعة لكل العلوم، فيجب أن نصرف آياته إلى مفهومها اللغوي أو المأثور عنه ρ بعبارة سهلة يسيرة، ليتمكن فهمها في يُسر وتبليغها لمن يجهلها أو لا يؤمن بها، ليهتدي بها، بدلاً من أن نغرقه في تلك الفنون التي لا أول لها ولا آخر.. وفي وسعنا بعد أن عرفنا نماذج مما كتبه أن نسمي كتابه هذا (جواهر العلوم)، لا (جواهر التفسير)، فهو في وادٍ، وتفسير القرآن في وادٍ آخر"^٢.

ويقول في هذا الاتجاه نفسه محمد محمد حسين: "وأكبر ما يؤخذ على طنطاوي جوهر في كتبه، وفي تفسيره على وجه الخصوص، نُقوله الكثيرة في مواضع مختلفة متعددة عن دعاة تحضير الأرواح من الغربيين واتخاذهم بدعواهم ظناً منه أن ذلك يساعد على رد تيار الإلحاد الذي ينكر الحياة الأخرى، وينكر الحساب والثواب والعقاب. والواقع أن هؤلاء الروحيين كانوا ينشرون إلحاداً من نوع جديد"^٣.

ونضيف إلى ما سبق القول: إنَّ لجوء طنطاوي إلى الاجتهادات البشرية في ميدان العلم الكوني في تفسيره للآيات القرآنية التي تحمل إشارات علمية، واستعانت به باستطاع تحصيله من علوم العصر، التي أخذ مادتها بشكل أساسي من علماء الغرب الذين يقولون هم أنفسهم عن علومهم واكتشافاتهم بأنها علوم نسبية وخاضعة دائماً للمراجعة والتغيير والنقد على ضوء المستجدات العلمية، ما هو في حقيقة الأمر إلا تسليطاً للمعارف المتغيرة بطبيعتها على الحقائق القرآنية التي يُفترض فيها الثبات والقطعية، وبذلك فقد فتح طنطاوي الباب، بعمله هذا من حيث لا يشعر، ولا يريد قطعاً، للعبث بالمدلولات القرآنية، وجعلها ساحة للإثبات والنفي على حسب تغَيُّر المعطيات العلمية التي تُفسَّر بها، وفي هذا العبث ما فيه من الفساد والإساءة إلى فهم القرآن الكريم وتفسيره، هذا بالإضافة إلى جعل العلوم المتغيرة بطبيعتها - ومن ورائها مَنْ يُنتج هذه العلوم، وهم في الأغلب علماء الغرب على الأقل على المدى المنظور - مرجعيةً ضروريةً لفهم القرآن الكريم، وبالتالي جعل المعنى القرآني تابعاً بشكلٍ أو بآخر لشيءٍ خارج عنه، وفي هذا خلخلة لمرجعية فهم القرآن الكريم النابعة أساساً من داخله (أي القرآن نفسه، والسنة النبوية، واللغة العربية التي تجلّى فيها النظم القرآني). وفيه أيضاً إضفاء شيء من الهالة والتعظيم على الحضارة الغربية، التي أصبحت بهذه الطريقة أحد مقاييس صدقية الوحي، وأصبحت "الحقائق العلمية" التي تأتي بها هي إحدى الضمانات للأخذ ببعض نصوصه، وفي هذا ما فيه من زيادة

^١ انظر، الطير، مصطفى الحديدي، اتجاهات التفسير في العصر الحديث من الإمام محمد عبده حتى مشروع التفسير الوسيط، (القاهرة، مجمع البحوث الإسلامية، ط ١، ١٣٩١هـ / ١٩٧١م)، ١٩٥-٢٠٣.

^٢ الطير، مصطفى الحديدي، المرجع السابق، ٢٠٢. وانظر قريباً من هذا الموقف في، بلتاجي، محيي الدين، دراسات في التفسير وأصوله، (الدوحة، دار الثقافة، ط ١، ١٩٨٧م)، ٢١١-٢١٤.

^٣ حسين، محمد محمد، أزمة العصر، (بيروت، مؤسسة الرسالة، ط ٢، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م)، ١٧٤. وانظر كتابه، الروحية الحديثة، ٢٤-٢٣.

الافتتان بالغرب وحضارته، وزيادة هيمنته على العقلية الإسلامية التي حصرت مهمتها في كثير من الحالات بمتابعة الإنتاج العلمي في الغرب، والبحث عن مدى مطابقة هذا الإنتاج لنصوص الوحي^١. وقد يكون من الحقيقة القول: إنَّ الذي دفع الشيخ طنطاوي جوهرى في هذا الاتجاه هو رغبته الصادقة والحميمة في دفع المسلمين إلى الانخراط في ميدان البحث والإنتاج العلمي في كل المجالات الكونية الذي مكَّن الغرب من التفوق على العالم الإسلامي بمراحل كثيرة، ومكَّنه من استعباد أبنائه، واحتلال بلاده، وهي دعوة بحد ذاتها ضرورية، وأتت في وقتها المناسب، ويمكن النظر إليها على أنها جهدٌ إصلاحي كبير يصبُّ في مصلحة الأمة وسيادتها وتقدُّمها، لكنه رحمه الله تعالى قد أخطأ الوسيلة المناسبة للقيام بهذه الدعوة عندما أقحم العلوم الكونية بتفصيلاتها المتغيرة بين دفتي تفسيره، ودعا إلى فهم القرآن الكريم في ضوءها، حيث كان يكفيه التركيز على ضرورة الاستفادة من الآيات القرآنية الداعية إلى العلم والتفكير والتدبر، والنظر في السموات والأرض، والسير في الأرض، وقراءة التاريخ، والبحث في الآفاق والأنفس، ومعرفة سنن الله تعالى في الكون والتاريخ والأمم كما دعا القرآن الكريم نفسه إلى ذلك في آيات كثيرة؛ للفت نظر المسلمين إلى تقصيرهم في ميدان العلم بمفهومه الشامل، وأثر هذا التقصير في فساد أحوالهم وأحوال مجتمعاتهم، وحثهم على تدارك هذا التقصير التاريخي بالانفتاح على كافة العلوم الكونية والإنسانية، والبحث والإبداع فيها جنباً إلى جنب كل العاملين في هذه المجالات، دون أن يضطر إلى الوقوع في الخطأ المنهجي الذي وقع فيه، أي تسخير القرآن الكريم لدلالات العلوم المتغيرة التي قد يؤدي تغييرها، وتناقضها أحياناً إلى نزع الثقة بالقرآن الكريم نفسه عند بعض الناس، وهذا ما لا يريده جوهرى قطعاً.

^١ يقول محمد محمد حسين عن إسراف أصحاب الاتجاه العلمي في التفسير، ومآل هذا الإسراف: "وأصبح كلامهم في كثير من الأحيان مثار تنذُر عند القراء، بل أصبح يزيد افتتان الناس بالحضارة الغربية، يُغريهم بها ولا يصدِّمهم عنها، لأنه كان يعني عند الناس أن هذه الحضارة أصبحت هي المقياس الذي تُقاس به صحة الأشياء وفسادها، وأن النصوص الإسلامية من قرآن أو حديث لا تصح إلا لأنها توافق ما جاءت به هذه الحضارة". أزمة العصر، ١٦٠.

المبحث الثالث

الاتجاه الأدبي في تفسير القرآن الكريم

أمين الخولي و بنت الشاطي أنموذجاً

أولاً: المفهوم، والأسس المعرفية:

— تعريف بنت الشاطي للدراسة الأدبية للقرآن: "فهم مفردات القرآن وأساليبه فهما يقوم على الدرس الأدبي الدقيق لمتذوق، المدرك لأقصى ما يستطيع من إحاء التعبير" [التفسير البياني، ٧/١]

تعريف الدكتور عفت الشرقاوي: "هو"الاتجاه الذي يتناول القرآن باعتباره الفن العربي الأقدس محلاً وجوه الإعجاز البياني للنص" [الفكر الديني في مواجهة العصر، ٢٩٣].

تعريف الدكتور عدنان زرزور: "الأصل في منهج التفسير الأدبي أو البياني: أن يُقدم الدارس على دراسة النص الأدبي وتحليله على نحو ما يفعل في سائر النصوص الأدبية العالية من منظوم ومنثور، وليس في هذا ما يخرجنا من نطاق "التفسير" إلى نطاق "الأدب" من كل وجه، لأن التحليل الأدبي للقرآن لا يستغني عن بعض قواعد التفسير الخاصة حتى لا يخطئ الدارس في فهم المعنى المراد، ويضيع عليه من ثم فهم المفردات والتراكيب ونواحي البيان^١".

— يقول في موضع آخر إن التفسير الأدبي هو عبارة عن محاولة "الوقوف على" الصورة الفنية" في القرآن، وجعل "النص"، القرآني موضوعاً لدراسة أدبية أو في صميم "الأدب"^٢

— تعريف الاتجاه الأدبي في التفسير:

هو الاتجاه الذي يؤمن أصحابه بأن القرآن الكريم هو نص أدبي في الصميم يحمل رسالة دينية تهدف إلى تحقيق مرامي نفسية واجتماعية عامة وخالدة، وإن فهم دلالاته واستمداد معانيه يكون ابتداء من خلال منهج أدبي يقوم بتحليل مفرداته وتراكيبه وأساليبه في بناء المعنى ونقله إلى الناس، وتأثيره فيهم.

— الأسس المعرفية لهذا الاتجاه:

تتمثل الأسس المعرفية لهذا الاتجاه في الأمور الآتية: عروبة القرآن الكريم، فقد أنزل الله تعالى كتابه بلسان عربي مبين، {وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ} النحل ١٠٣، {كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ} فصلت ٣، والطبيعة الأدبية للقرآن، والقيمة

١ القرآن ونصوصه، د. عدنان زرزور، منشورات كلية الآداب، جامعة دمشق، ١٩٨٠م، ٣٦٩. أشار زرزور إلى القواعد التالية: ضرورة الوقوف على أسباب النزول، الاهتمام بمألوف استعمال القرآن نفسه للألفاظ والأساليب، مراعاة التناسب القرآني، الإلمام بالحالة التي كان عليها العرب في الجاهلية وفي عصر التنزيل، معرفة رسالة القرآن الأساسية ووجهه الأول وهو أنه (كتاب هداية وتشريع، ودستور جامع للحياة الإنسانية). انظر، القرآن ونصوصه، ٣٦٩-٣٧٢.

٢ القرآن ونصوصه، ٣٧٣.

الأدبية العليا لنصه الحكيم، وتوقف كل ألوان التفسير ومقاصده على دراسة مفردات القرآن وتراكيبه وأساليبه كما يمكن أن تُفهم من قِبَل العرب في عصر التنزيل لأن الله تعالى خاطبهم بما يفهمون ووفق معهودهم اللغوي وأساليبهم الأدبية حتى يقيم عليهم الحجة.

ثانياً: الجذور التاريخية للاتجاه الأدبي في التراث الإسلامي:

بدأت نواة هذا الاتجاه تظهر عندما صار اللسان وعلومه صناعة، وبدأ ظهور وتكون الاتجاه اللغوي في التفسير أي حسب عبارة ابن خلدون "التفسير الذي يرجع إلى اللسان من معرفة اللغة والإعراب والبلاغة في تأدية المعنى بحسب المقاصد والأساليب"

يمكن رصد هذه البدايات مع الصحابي الجليل ابن عباس رضي الله عنهما حيث كان يستعين بالشعر الجاهلي في تفسيره القرآن الكريم، ثم في ظهور كتاب "مجاز القرآن" لأبي عبيدة معمر بن المثنى (ت ٢٠٧هـ)، وشهد تطوراً ملحوظاً مع ظهور تفسير "الكشاف" للزمخشري واهتمامه بتأويل الكثير من الآيات القرآنية في ضوء الأساليب البلاغية، وبشكل خاص الصور البيانية وبشكل خاص التمثيل (إخراج المعنى المعقول في صورة من الصور الحسية/الحوارية، المشخصة) التي تعد أساس المقاربة الأدبية للقرآن الكريم في نظر أصحابها.

ثالثاً: السياق التاريخي والمعرفي لظهور الاتجاه الأدبي في العصر الحديث:

— شهد الغرب منذ نهاية القرن الثامن ولادة علم الهيرمينوطيقا أي فن الفهم على يد الباحث الألماني شلاير ماخر الذي وضع أسسه، ودعا إلى تطبيقه على النصوص الأدبية الرفيعة، وعلى النصوص الدينية على السواء. ثم ظهر في نهاية القرن التاسع عشر توجه واضح نحو المقاربة الأدبية لنصوص الكتاب المقدس بريادة الناقد الإنكليزي ريتشارد مولتون (١٨٤٩-١٩٢٤) صاحب كتاب "الدراسة الأدبية للكتاب المقدس: الأشكال الأدبية الرائدة الموجودة في الكتابات المقدسة" الذي ظهر في لندن عام (١٨٩٦م) وشاع مضمونه، وترددت أصداؤه في أرجاء أوروبا منذ ذلك الوقت. دعا مولتون من خلاله إلى جعل المقاربة الأدبية للنص المقدس حقلاً معرفياً جديداً يستحق الدراسة لذاته، بغض النظر عن الإيمان بقدسية التوراة والإنجيل أو عدمها، لأن الثراء الأدبي للكتاب المقدس يحمل قيمة فنية وجمالية ذات أبعاد إنسانية تستحق العناية والتحليل المستقل، وتحمل قدرة مذهلة على تطوير الأدب الإنساني وفتح الآفاق أمامه.

تظهر قيمة وأثر هذا التحول الغربي عندما نعلم أن رائد هذا الاتجاه في العالم الإسلامي الشيخ أمين الخولي (ت ١٩٦٦) قد سافر إلى الغرب (روما وبرلين بين عامي ١٩٢٣ و ١٩٢٧) في الربع الأول من القرن العشرين، واطلع عن كثب على أبرز الاتجاهات الأدبية، ومناهج الدراسات الكتابية فيه.

— ويمكن لنا أن نتلمس الإرهاصات المعرفية الداخلية التي مهدت لظهور الاتجاه الأدبي في بداية العصر الحديث في جهود الشيخ محمد عبده وأعلام مدرسته (وبشكل خاص عبد القادر المغربي، محمد مصطفى المراغي، محمود شلتوت) الذين مهدوا الطريق إلى دراسة لغة القرآن وبيانه بطريقة علمية منهجية، وجعلوا هذه الدراسة سبيلاً

إجباريا للوقوف على المعنى القرآني وبيانه، وشكلت هذه الدراسة في مستوياتها النظرية والتطبيقية أساسا متينا لإنضاج الاتجاه الأدبي وتطوره فيما بعد.

— وتجدر الإشارة إلى أن ظهور الاتجاه العلمي في التفسير، وبداية ظهور الاتجاه الإيديولوجي الذي اتخذ من النص القرآني منصة لتسويغ خياراته الإيديولوجية، فضلا عن الخشية من الميل بتفسير القرآن عند الإصلاحيين إلى هذه الاتجاه أو ذاك، حسب المشروع الإصلاحي الذي يؤمن به كل مفسر، بعيدا عن روح القرآن الكريم ومقاصده بهذه النسبة أو تلك، قد سرّع من ظهور الاتجاه الأدبي الذي يحرص حرصا كبيرا على تحصين النص القرآني من داخله، وجعله عصيا على كل المقاربات الجاهزة التي تسعى لتوظيفه في سبيل اكتساب الشرعية اللازمة لها.

— يمكن أن نضيف إلى ما سبق ظهور المؤسسات التعليمية الحديثة (مثل جامعة القاهرة، كلية دار العلوم، مدرسة القضاء الشرعي)، وظهور كليات الآداب التي أدرجت دراسة القرآن الكريم بين مناهجها، وهذا الأمر دفع ببعض الأساتذة والباحثين إلى تناول القرآن الكريم بأدوات ومناهج أدبية، ولغايات أدبية خالصة. وهنا تجدر الإشارة إلى أن طبيعة ونوعية والمنهج المتبع في هذا الاتجاه التفسيري أتاحت دخول عدد من الباحثين والدارسين والعلماء من تخصصات علمية متنوعة إلى ساحته، من قبيل: الأدب، النحو والبلاغة، النقد الأدبي، بالإضافة بطبيعة الحال إلى التفسير وعلوم الشريعة. وفي هذه البيئة العلمية بالذات ظهرت جهود الشيخ أمين الخولي رائد الاتجاه الأدبي في التفسير في العصر الحديث، ومازالت كليات الآداب والعلوم الإنسانية في العالم الإسلامي وخارجه تقدم لنا بين الحين والآخر باحثين لامعين في ميدان الدراسة الأدبية للقرآن (نذكر منهم: شوقي ضيف، محمد المبارك، مستنصر مير، وداد القاضي، محمد محمد أبو موسى، فاضل صالح الأنصاري، محمد رجب البيومي، عبد الله صولة، محمد عبد السلام الراغب).

— أبرز مبادئ المدرسة الأدبية في التفسير:

يمكن تلخيص أبرز مبادئ هذه المدرسة بما يلي:

— بيان معنى المفردة القرآنية حسب معناها المتداول في البيئة العربية في عصر التنزيل، وحسب الاستعمال القرآني لها في كامل النص القرآني، مع مراعاة سياقها الخاص واثلافها مع جملة المعنى الذي تتموضع داخله، والمقام الذي تنزلت فيه، مع الحرص التام على التوافق مع مقاصد القرآن الكلية، وعدم الاصطدام مع أي منها.

— الاعتناء بالأساليب القرآنية وتدووقها بعد التشبع بالأساليب العربية في الشعر والنثر بحيث يستطيع المفسر النفاذ إلى خصائص القرآن الأسلوبية الخاصة به، والخادمة لمعانيه، وتقدير آثارها في النفس البشرية.

— توجيه النظر إلى علوم التاريخ والنفس والاجتماع لتقدير القيمة التداولية/التأثيرية للنص القرآني بوصفه كتاب الله الذي أنزل رحمة للعالمين وإخراجا لهم من الظلمات إلى النور في كافة جوانب حياتهم.

— زرع البذور المعرفية والمنهجية والمعرفية الأولى على طريق دراسة القرآن من خلال وضع التصور الموضوعي (وحدة الموضوع في القرآن) والكلي (وحدة السورة وتلاؤم أجزائها وتكاملها) الضروريين للدراسة الأدبية لأي نص، وذلك

من خلال تفعيل مبدأ تفسير القرآن بالقرآن، والتوسع في دراسة وجوه ووظائف التناسب القرآني، مع العناية بإبراز المقاصد القرآنية التي تشكل الضامن الموضوعي لوحدة النص القرآني وتماسكه الدلالي.

رابعاً_ أمين الخولي: حياته ومؤلفاته ومنهجه في التفسير:

١_ حياته ومؤلفاته: ولد أمين الخولي في عام (١٨٩٥م) في قرية شوشاي، مركز أشمون، في محافظة المنوفية. حفظ القرآن الكريم وهو ابن عشر سنين، درس في المدارس الحكومية، ثم انتقل للدراسة في مدرسة القضاء الشرعي في عام (١٩١٥م)، وعين فيها مدرسا بعد تخرجه منها عام (١٩٢١)، وأشرف على تحرير مجلتها، ثم عين مدرسا في كلية دار العلوم. وكتب مقالات عديدة في عدة صحف مصرية منها مجلة المقتطف، الأدب، المصري، الهلال، الإيمان، البلاغ، المصري.

عين عام (١٩٢٣م) إماما لسفارة مصر في روما، ثم انتقل في عام (١٩٢٦م) إلى برلين، حيث أتقن فيهما اللغتين الإيطالية والألمانية، واطلع على تراث المستشرقين الطليان والألمان، واعتنى كثيرا بتتبع الدراسات الكتابية ومناهج تدريسها، ومناهج تفسير الكتاب المقدس، وبشكل خاص اطلع على جهود شلاير ماخر الهيرمونيطة. عاد إلى مدرسة القضاء الشرعي سنة (١٩٢٧م)، ودرس فيها آداب البحث والمناظرة، وتاريخ العقيدة الإسلامية، والأدب العربي وتاريخه. وفي العام نفسه انتدب للتدريس في كلية أصول الدين في الأزهر فدرس للطلاب علم الأخلاق والفلسفة وتاريخ الملل والنحل. وعين في عام (١٩٢٨م) مدرسا في قسم اللغة العربية في كلية الآداب في جامعة فؤاد الأول، وعين مستشارا لدار الكتب المصرية، ومديرا عاما للثقافة، وعضواً في مجمع اللغة العربية في القاهرة. وأسس "جماعة الأمناء" الأدبية، وأصدر مجلة الأدب الناطقة باسمها.

_ من مؤلفاته المطبوعة: مناهج تحديد في النحو والبلاغة والتفسير والأدب، المجددون في الإسلام، فن القول، مشكلات في حياتنا اللغوية، كتاب الخير (دراسة موسعة في الفلسفة الأدبية، مطبقة على الحياة الشرقية والتفكير الإسلامي)، رأي في أبو العلاء، مالك بن أنس تجربة حياة، ورسالة الأزهر في القرن العشرين، صلة الإسلام بإصلاح المسيحية، تاريخ الملل والنحل.

_ دراساته القرآنية: له "من هدي القرآن"، بدأ به على شكل محاضرات إذاعية منذ عام ١٩٣٨ تقريبا، واستمر فيه إلى أكثر من عشرين عاما، وألقى فيه محاضرات تتمتع بوحدة الموضوع والاتساق وكانت صدى لمنهجه في التفسير الأدبي، منها: السلام والإسلام، القرآن والحياة، الطغيان في العلم والمال والحكم، حكومة القرآن، الحكم بما أنزل الله، الفن البياني في القرآني، القسم القرآني، شخصية محمد عليه السلام، وتناول عبادات كالحج والصوم، ولكن لم يصل إلى الناس من هذه المحاضرات عن طريق النشر إلا بعضها مثل: "في أموالهم"، "في رمضان"، "القادة

والرسل". وله كتيب بعنوان "عن القرآن الكريم" تناول فيه خصائص أسلوب القرآن المكي والمدني، واهتم بشكل خاص بأسلوب القصص القرآني.

— من تلامذته: بنت الشاطئ (التفسير البياني للقرآن الكريم)، محمد أحمد خلف الله (الفن القصصي في القرآن)، مصطفى ناصف (البلاغة عند الزمخشري)، شكري محمد عياد (من وصف القرآن ليوم الدين والحساب)، حسين نصار، عز الدين إسماعيل، أحمد كمال زكي، علي حسن عبد القادر، شكري فيصل.

٢- منهج الخولي في تفسير القرآن الكريم:

يمكن تصنيف القضايا المنهجية التي أثارها الخولي أثناء حديثه عن منهجه الأدبي في التفسير تحت الأقسام التالية: مقدمات المنهج، خطوات المنهج، ملحق المنهج.

أولاً: مقدمات المنهج: حيث حدد رؤاه العلمية التي ينطلق منها، ويرتكز عليها منهجه في التفسير (الرؤية التجديدية والنقدية والهيرمينوطيقية)، ومقصده الأساسي من الدراسة الذي يقرر خطواتها، ويضبط العلاقات بينها (دراسة القرآن من حيث هو نص أدبي خالص)، هذا فضلاً عن تهيئة النص القرآني للدراسة الأدبية، أي اعتماد المقاربة الموضوعية التي تلبي حاجة الدراسة الأدبية وتحقيق مقتضياتها.

ثانياً: خطوات المنهج: ويتفرع هذا القسم إلى فرعين:

- ١- دراسة حول القرآن أي علومه وبيئته المادية والمعنوية التي تساعد على فهم دلالاته وتحديد معانيها.
- ٢- دراسة في القرآن: أي الدراسة التفصيلية للنسيج النصي في القرآن، ابتداء من الكلمة ثم التركيب وانتهاء بالأساليب القرآنية.

ثالثاً: ملحق المنهج: بعد أن فرغ الخولي من تحديد مقدمات المنهج وخطواته، عمد إلى التنبيه والتشديد على أهمية دراسة الأبعاد النفسية والاجتماعية للنص القرآني، فهو يدعو إلى دراسته دراسة أدبية تستعين بعلمي النفس والاجتماع حتى يتم تفسير الاختيارات اللغوية والأساليب البيانية والأدبية في القرآن الكريم، وفهم دورها وأثرها في نفوس المتلقين، وهذا ما يمكن تسميته اليوم بالأبعاد التداولية للخطاب القرآني.

أولاً: مقدمات المنهج:

١- الرؤية التجديدية: الإيمان العلمي بإمكانية التجديد في علم التفسير:

يقول أمين الخولي: "والقدماء فيما يقولون عن حياة العلوم الإسلامية قد قسموها ثلاثة أقسام: علم نضج واحترق وهو النحو والأصول. وعلم نضج وما احترق وهو علم الفقه والحديث، وعلم لا نضج ولا احترق، وهو علم البيان والتفسير. ويشاء الله أن يكون علم البيان وعلم التفسير من أول ما أقوم على خدمته في كلية الآداب في جامعة

فؤاد الأول، فيكون قول القدماء أنفسهم بعدم نضجهم إذنا صريحا منهم بالمحاولة المجددة في حياة هاتين المادتين، وقد تقدمت إلى هذه المحاولة تحت الشعار الذي اتخذته لنفسه وهو: أول التجديد قتل القديم فهما^١.

٢_ الرؤية النقدية: نقد المقاربة التجزئية للتفسير، والدعوة إلى المقاربة الموضوعية: يقول الخولي: "منذ عصر مبكر جعل القوم يتناولون تفسير القرآن على ترتيب سوره، يقفون منها على بعض الآي أو الآية أو الجملة من الآي فيبينون ما فيها على اللون الذي يؤثره المتناول وتضفيه شخصيته على تفسيره، وما زالت الخطة هي السائدة في التفسير حتى عندما يعنى المفسر بناحية خاصة من القرآن، ويؤثر موضوعا بعينه، يتبعه في القرآن فبين أيدينا مثلا كتاب أحكام القرآن للجصاص (ت ٣٧٠هـ)، وهو فقهي الاتجاه، يُعنى بهذا الجانب قبل كل شيء، ولكنه مع هذا يتبع تلك الخطة التقليدية في تفسير السور على ترتيبها، والآي في السور، وأقل من ذلك أن يتبع المفسر موضوعا خاصا في القرآن، يجمع متفرقه، فترى مثل كتاب "التبيان في أقسام" القرآن لشمس الدين بن قيم الجوزية (ت ٧٥١هـ)، الذي قصد فيه إلى درس موضوع خاص، هو القسم في القرآن، قد انتظم نظرات عامة لصنيع القرآن في الأقسام، ولكنه مع ذلك لا يستقصي تتبع النظائر ويتولاها بالتفسير المقابل، الذي يُستعان فيه على فهم بعض القرآن ببعضه، فهما يعطي الفكرة الموحدة عن المنهج القرآني في القسم بشكل خاص، ويحصى ما ورد من ذلك فينظر في جملته، وإن كان قد ألمّ بشيء من هذا إلما سريعا لا يشفي، وتلك الخطة الغالبة في تفسير القرآن على ترتيب سوره وآيه مما هو موضع للنظر^٢".

٣_ الرؤية الهيرمينوطيقية: التفاعل العلمي الحي بين المفسر والخطاب القرآني^٣: ذهب الخولي إلى حدوث حالة من التفاعل بين المفسر وما يملكه من رؤية للعالم ومستوى علمي وأفق عقلي وأدوات علمية، وشخصية معرفية وروحانية خاصة، وبين نص القرآن الكريم أثناء عملية التفسير، تكون نتيجة هذا التفاعل تأثر المخرج التفسيري بالمستوى والأفق المعرفي للمفسر وتلونه بلون شخصيته وخصوصيته الإنسانية والتاريخية. وأكثر ما يتحقق هذا الأمر عندما يكون النص المفسر نصا أدبيا مليئا بالمجازات والصور البيانية حيث تتيح الطبيعة اللغوية لهذا النص المجال واسعا أمام تدفق المعاني من ذات المفسر ضمن ما تسمح به اللغة وقوانينها.

يقول الخولي: "إن الشخص الذي يفسّر نصاً، يلوّن هذا النص، ولا سيما النص الأدبي، بتفسيره له، وفهمه إياه. إذ إن المتفهم لعبارة هو الذي يحدد بشخصيته المستوى الفكري لها وهو الذي يعين الأفق العقلي الذي يمتد إليه

^١ مناهج تجديد، أمين الخولي، ٢٢٩.

^٢ مناهج تجديد في النحو والبلاغة والتفسير والأدب، أمين الخولي، الأعمال الكاملة، الجزء العاشر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٥.

٢٢٦-٢٢٧.

^٣ يعرف عبد الجبار الرفاعي الهيرمينوطيقا بقوله: "هي فن الفهم أو قراءة للقراءة، أو فهم الفهم، أو تفسير لكيفية تلقي المفسر للنص، وطريقة إنتاجه للمعنى المقتنص منه في ضوء أفق انتظاره، ورؤيته للعالم، وإطار ثقافته، ومسلماته، وأحكامه المسبقة"، أمين الخولي أول هيرمينوطيقي في عالم الإسلام،

معناها وممرهاها، يفعل ذلك كله، وفق مستواه الفكري وعلى سعة أفقه العقلي، لأنه لا يستطيع أن يعدو ذلك من شخصيته، ولا تمكنه مجاوزته أبداً، فلن يفهم من النص إلا ما يرقى إليه فكره، ويمتد إليه عقله، وبمقدار هذا يحتكم في النص ويحدد بيانه، فهو في حقيقة الأمر يجر إليه العبارة جراً، ويشدها شداً، يمطها حيناً إلى الشمال، وحيناً إلى الجنوب، وطوراً يجذبها إلى أعلى، وآونة ينزل بها إلى أسفل، فيفيض عليها في كل من ذاته، ولا يستخرج منها إلا قدر طاقته الفكرية، واستطاعته العقلية، وما أكثر ما يكون ذلك واضحاً، حينما تسعف اللغة عليه، وتتسع له ثرواتها، من التجوزات والتأولات، فتمتد هذه المحاولة المفسرة بما لديها من ذلك، وإن المستطاع منه في اللغة العربية لكثير وكثير. على هذا الأصل وجدنا آثار شخصية المتصدين لتفسير القرآن، تطبع تفسيرهم له، في كل عهد وكل عصر، وعلى أية طريقة ومنهج، سواء أكان تفسيرهم له نقلياً مروياً أم عقلياً اجتهادياً. ولعله لا يبدو هذا الأثر الشخصي واضحاً في التفسير المروي لأول وهلة ولكنك تتبينه إذا ما قدرت أن المتصدي لهذا التفسير النقلي إنما يجمع حول الآية من المرويات ما يشعر أنها متجهة إليه، متعلقة به، فيقصد إلى ما تبادر لذهنه من معناها، وتدفعه الفكرة العامة فيها، فيصل بينها وبين ما يروى حولها باطمئنان، وبهذا الاطمئنان يتأثر نفسياً وعقلياً، حينما يقبل مروياً ويعنى به، أو يرفض من ذلك مروياً — إن رفضه — ولم يتح إليه.... ومن هنا نستطيع القول بأنه حتى في رواج التفسير النقلي وتداوله تكون شخصية المتعرض للتفسير هي الملونة له، المروجة لصنف منه. أما حين يصير التفسير عقلياً اجتهادياً فإن هذا التلوين الشخصي يبدو أوضح وأجلى، وقد أشرنا إلى ما لثقافة متعاطي التفسير من الأثر في تفسيره، إذ إن ثقافته ونوع معارفه هو الذي يحدد ناحية عنايته وميدان نشاطه، وما ينتفع به في استخراج معاني العبارة، وما يعنى به قبل غيره من المعاني، فيتأثر التفسير بذلك كله، ويتأثر تاريخ هذه المعارف نفسها بمزاولة التفسير.... وهكذا تنوعت ألوان التفسير، وتعددت بتعدد ثقافات المتصدين له، فقد سمعت أن أبا الحسن الأشعري المتكلم في كتابه الذي سموه "المختزن" لم يترك آية تعلق بها بدعي إلا أبطل تعلقه بها، وجعلها حجة لأهل الحق، ... وقد جاءك نبأ ما فعل الرازي في تفسيره.... فهذا ومثله تلوين كلامي للتفسير، يضيف على القرآن من منهج علم الكلام ويوجه تفسيره، وقد انتهى به إلى نزعات مذهبية خاصة، لعل من أشهرها كشف الزمخشري في منحاه الاعتزالي، كما تجد تلويناً فقهياً للتفسير وآخر بلاغياً، وغيرهما قصصياً. وهكذا مما تُعد فيه كتب كل صنف وحدها، وتوصف في التاريخ التفصيلي للتفسير، كما يبين فيه المحبب المقبول من هذا التلوين، والمنفر المكروه منه كالتلوين الباطني والإشاري المتطرف، وما إلى ذلك من تفسير مردود يُخرج القرآن عن وضعه [اللغوي]، ويناقض الحكمة الإلهية والغرض الإصلاحية من وصله بحياة الدين والدنيا، وقد وصف القدماء مثل هذه الألوان المنفرة المستقبحة واستبعدوها. أما ما عدا هذا المكروه من التلوين، فقد ينجو من

هذا الاستبعاد والاستنكار، ولكن يبقى النظر في تحقيقه للفائدة المرجوة من القرآن، فيسلم فيه بذلك أو لا يسلم^١.

في ضوء ما سبق يمكن القول بأن الخولي مقتنع بالدور الإيجابي والتفاعل الرشيد بين المفسر ومستواه العقلي وأفقه وعدته المعرفية وبين النص القرآني بشرطين:

أولهما: أن يلتزم المفسر بالحدود الوضعية للغة القرآنية على مستوى المفردات والتراكيب أي لا يفهم كلمة أو عبارة بعيدة عن الفهم العربي لها، مع احتفاظه بحقه العلمي باستثمار كل إمكانيات وطاقات اللغة المجازية والبيانية دون أن يتطرف في ذلك ويقع في حفرة الاتجاه الباطني والفهم المذهبي المغالي الذي ينتهك حرمة النص ويفرض عليه معاني لا تستسيغها لغته ولا حتى أساليبه البيانية التي جاءت وفق أساليب العرب ومعهودهم الأدبي.

وثانيهما: أن لا يهدم المفسر مقاصد القرآن وغاياته الإصلاحية، أي أن يبقى عمله وتفاعله في حدود ما تتحقق به ماهية القرآن أي إنه كتاب الله المنزل رحمة وهداية للعالمين يخرجون به من الظلمات إلى النور، وينالون به رضوان الله في الدنيا والآخرة، ويحززون السعادة والكرامة والعدالة في كل وجوه حياتهم.

٤- مقصد التفسير وغرضه الأول: الدراسة الأدبية للقرآن:

يقول أمين الخولي: "يرى [محمد عبده] أن الغرض الأول والأهم في التفسير أن يكون محققاً لهداية القرآن ورحمته مبينا لحكمة التشريع في العقائد والأخلاق والأحكام على الوجه الذي يجذب الأرواح.. فالمقصد الحقيقي عنده هو الاهتمام بالقرآن وهو مقصد جليل ولا شك.. يحتاج المسلمون إلى تحقيقه. لكن ليس بدعا من الرأي أن ننظر في هذا المقصد لنقول: إنه ليس الغرض الأول من التفسير، وليس أول ما يعنى به ويُقصد إليه، بل إن قبل ذلك كله مقصداً أسبق وغرضاً أبعد تنشعب عنه الأغراض المختلفة، وتقوم عليه المقاصد المتعددة، ولا بد من الوفاء به قبل تحقيق أي مقصد آخر سواء أكان ذلك المقصد الآخر علمياً أم عملياً دينياً أو دنيوياً، وذلك المقصد الأسبق والغرض الأبعد هو النظر في القرآن من حيث هو كتاب العربية الأكبر، وأثرها الأدبي الأعظم، فهو الكتاب الذي أدخل العربية، وحى كيانها وخلد معها، فصار فخرها، وزينة تراثها، وتلك صفة للقرآن يعرفها العربي مهما يختلف به الدين، أو يفترق به الهوى ما دام شاعراً بعربيته،.... فإنه سيعرف بعرويته منزلة هذا الكتاب في العربية ومكانته في اللغة دون أن يقوم ذلك على شيء من الإيمان بصفة دينية للكتاب، أو تصديق خاص بعقيدة فيه... فالعربي القح أو من ربطته بالعربية تلك الروابط يقرأ هذا الكتاب الجليل ويدرسه درساً أدبياً كما تدرس الأمم المختلفة عيون آداب اللغات المختلفة. وتلك الدراسة الأدبية لأثر عظيم كهذا القرآن هي ما يجب أم يقوم به الدارسون أولاً، وفاء بحق هذا الكتاب، ولو لم يقصدوا الاهتمام به، والانتفاع بما حوى وشمل، بل هي ما يجب أن يقوم به الدارسون أولاً ولو لم تنطو صدورهم على عقيدة ما فيه، أو انطوت على نقيض ما يردد المسلمون الذي

^١ مناهج تجديد، أمين الخولي، ٢٢٣-٢٢٥.

يعدونه كتابهم المقدس، فالقرآن كتاب الفن العربي الأقدس سواء أنظر إليه الناظر على أنه كذلك في الدين أم لا. وهذا الدرس الأدبي للقرآن في ذلك المستوى الفني، دون نظر إلى أي اعتبار ديني، هو ما نعتده وتعتده معنا الأمم العربية أصلاً، والعربية اختلاطاً مقصداً أول، وغرضاً أبعد يجب أن يسبق كل غرض، ويتقدم كل مقصد، ثم لكل ذي غرض أو صاحب مقصد بعد الوفاء بهذا الدرس الأدبي أن يعتمد إلى ذلك الكتاب فيأخذ منه ما يشاء، ويقتبس منه ما يريد ويرجع إليه فيما أحب من تشريع أو اعتقاد أو أخلاق أو إصلاح اجتماعي أو غير ذلك. وليس شيء من هذه الأغراض الثانية يتحقق على وجهه إلا حين يعتمد على تلك الدراسة الأدبية لكتاب العربية الأوحده دراسة صحيحة كاملة مفهومة له، وهذه الدراسة هي ما نسميه اليوم تفسيراً، لأنه لا يمكن بيان غرض القرآن ولا فهم معناه إلا بها.

فجملة القول: إن التفسير اليوم فيما أفهمه، هو: الدراسة الأدبية الصحيحة، الصحيحة المنهج، الكاملة المناحي، المتسقة التوزيع. والمقصد الأول للتفسير اليوم أدبي محض صرف، غير متأثر بأي اعتبار وراء ذلك، وعليه يتوقف تحقق كل غرض آخر يُقصد إليه^١.

نرى أن الخولي بهذا الكلام قد جعل دراسة القرآن الكريم، ابتداءً، عملاً قومياً محضاً، يقوم به أبناء العروبة ومن ارتبط بهم عن طريق اعتناق الإسلام، أو الاختلاط بالعرب، واتخاذ القرآن المثل الأدبي الأعلى في حضارتهم وثقافتهم. ولكن يجب القول بأن المسلم غير العربي لم يعتن بالقرآن الكريم، ولم يجتهد في سبيل فهمه وتفسيره إلا بدافع ديني أكبر بالضرورة بكثير من الدافع الأدبي والفني، بل يمكن القول أيضاً إن العرب الذي أنفقوا حياتهم في سبيل فهم القرآن وتفسيره لم يفعلوا ذلك إلا بسبب الإيمان الديني العميق به، لذلك فإننا نقول إن واقع تاريخ الدراسات اللغوية والأدبية في حركة التاريخ يشهد على تداعي الأساس الذي ارتكز عليه الخولي في دعوته للدراسة الأدبية للقرآن.

بالقدر الذي يمثل القرآن الكريم فيه العرب والعروبة، ويشكل معقد فخار لهم بوصفه كتابهم الأكبر، فإنه يشكل الكتاب الإلهي الأكبر للإنسانية جمعاء، {تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً} الفرقان، ١، ولا يمكن الفصل بين المصدر والبعد الديني للكتاب الإلهي عن نسيجه اللغوي والبياني، لأن علاقة اللغة بكل مستوياتها لا تنفصل عن الفكر والمعنى، لذلك فإن تحييد العنصر الديني من هذه المقاربة أمر لا يمكن تصوّره، ولا يمكن حدوده أصلاً، ومن يقرأ نتاج الخولي في الدراسات القرآنية يلحظ التواشج العميق بين لغة القرآن وبيانه وبين رسالته الدينية التي جاء في الأصل تعبيراً دقيقاً وأميناً عنها، هذا فضلاً عن أن التفاعل مع المستوى الأدبي للقرآن الكريم لا يمكن أن يحقق آثاره، كما يأمل الخولي، دون إيمان مسبق بمعاني القرآن ودلالاته الدينية.

^١ مناهج تحديد، أمين الخولي، ٢٢٩-٢٣١

نقول هذا الكلام، ونحن نقر ونؤمن إيماناً علمياً مبصراً أن الدراسة اللغوية والأدبية في سياقه التاريخي والحضاري للقرآن الكريم يجب أن تسبق كل الدراسات والمقاربات التفسيرية المتنوعة الأخرى، بل هي الأساس العلمي المكين الضامن لها حتى تؤتي ثمارها وتحقق مقاصدها بشكل علمي موضوعي، بعيد قدر الإمكان عن الهوى المذهبي والإيديولوجي، وعن الهشاشة العلمية التي تمنع المفسر من تلقي فيض الدلالات القرآنية التي لا تنضب.

٥_ الهدف من الدراسة الأدبية: هو تدبير الحياة وإصلاح أحوال البشر وفق الرؤية والمنهج القرآني، واعتماد المقاربة الموضوعية الكلية للقرآن:

يرى الخولي بأن الدراسة الأدبية للقرآن ليست من أجل الأدب، فالخولي لا يؤمن بمبدأ الأدب للأدب أو الفن للفن، بل يذهب إلى أن الهدف من التفسير الأدبي للقرآن هو دراسة واستجلاء التدبير النفسي والاجتماعي في القرآن للحياة الإنسانية ...

"فالدراسة الأدبية للقرآن بوصفه معجزة العربية البلاغية والأصل الأكبر لدعوة الإسلام تحاول عرض الهدى القرآني في تفسير الحياة وتديرها ذلك التدبير الذي حفظ لنفسه صفة العموم والدوام وختم رسالات السماء إلى هذه الأرض".^١

إذاً، ليس المراد من الدراسة الأدبية للقرآن بوصفه كتاب العربية الأكبر دراسة الأدب للأدب بل دراسة الأدب المرتبط بالهدف الإنساني والاجتماعي، لأن القرآن نفسه لم يأخذ بمبدأ الفن للفن "لأنه يجعل منه القولي وسيلة لإصلاح الحياة البشرية، ذلك الإصلاح الخلقي الاجتماعي العام الذي أنزل لأجله هدى للناس ورحمة، يهدي للتي هي أقوم، ويشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً. ثم إننا نرمي من وراء ذلك كله إلى الارتياض والدعوة للأخذ بالنظرة الشاملة والفكرة الجامعة في تفسير هذا القرآن، راجين أن يتمسك بها أصحاب القول في تفسيره اليوم، فيتبعوا استعماله في المواطن المتباعدة، والمناسبات المتغيرة ليستشفوا من وراء ذلك نظراته البعيدة، في نظمه وصوغه ولا يكتفوا بالنظرة الجزئية إلى الكلمة في الآية، أو الآية في السورة لأن ذلك لا يلائم أهمية هذا الكتاب، ولا يهدي إلى دقائق مراميه الإصلاحية الكبرى".^٢

وقد أكدت بنت الشاطئ بدورها هذا الهدف الديني والاجتماعي للدراسة الأدبية للقرآن، حيث ذهبت إلى أنه لا توجد كلمة أو عبارة أو تركيب أو أسلوب في القرآن إلا والهدف منه الرحمة والبشرى والهداية للمسلمين "لأن طبيعة النص القرآني من حيث هو كتاب هدى ودين تقتضي كل لفظ وآية إلى مناهج الهداية والاعتبار"^٣ [بنت الشاطئ القرآن وقضايا الإنسان، ٢٢]

٦ _ تهيئة النص القرآني للدراسة الأدبية: المقاربة الموضوعية للقرآن الكريم:

^١ القادة والرسول، أمين الخولي، ٩-١٠.

^٢ القادة والرسول، أمين الخولي، ١٠-١٣.

^٣ القرآن وقضايا الإنسان، عائشة عبد الرحمن، ٢٢.

يقول الخولي: "يبدو للناظر أن تفسيره سورا وأجزاء لا يمكن من الفهم الدقيق والإدراك الصحيح لمعانيه وأغراضه إلا إن وقف المفسر عند الموضوع ليستكمل في القرآن ويستقصيه إحصاء فيرد أوله إلى آخره ويفهم لاحقه بسابقه .. وأنت _ أرشدك الله _ مقدر أن الذي يفهم جملة نصوص خاصة بموضوع واحد إنما يصل إلى صحيح معناها ودقيقه، بمعرفة سابقها ولا حقها ومتقدمها ومتأخرها إذا ما كان الزمن قد تباعد بين تلك النصوص وبخاصة مثل هذا التباعد الزمني الذي بين آي القرآن فقد طال سنين وسنين .. ثم هذا المتفهم محتاج إلى إدراك الملايسات والمناسبات والأسباب التي أحاطت بما نفهمه من النصوص إذ هي أضواء لا بد كنهها لاستجلاء المعنى ... وذلك كله يقضي في وضوح بأن يفسر القرآن موضوعا موضوعا، وأن تُجمع آيه الخاصة بالموضوع الواحد جمعا إحصائيا مستقصيا، ويُعرف ترتيبها الزمني، ومناسباتها وملابساتها الحافة بها، ثم يُنظر فيها بعد ذلك لتفسير وتفهم فيكون ذلك التفسير أهدى إلى المعنى وأوثق في تحديده...

فصواب الرأي أن يفسر القرآن موضوعا موضوعا لا أن يفسر على ترتيبه في المصحف الكريم سورا أو قطعا ثم إن كانت للمفسر نظرة في وحدة السورة وتناسب آيها واطراد سياقها فلعل ذلك إنما يكون بعد التفسير المستوفي للموضوعات المختلفة فيها" [دراسات إسلامية، ٤٠].

ثانياً_ خطوات المنهج:

بعد بيان المقاربة الضرورية للنص القرآني لجعله صالحا للدرس الأدبي على غرار بقية النصوص يقترح الخولي تطبيق منهج التفسير الأدبي الذي ينقسم إلى صنفين كما هي الخطة المثلى للدرس الأدبي، دراسة حول القرآن، ودراسة في القرآن.

١ _ دراسة حول القرآن: وتنقسم إلى نوعين:

أ _ خاصة قريية (نزول القرآن وجمعه وتدوينه وقراءاته) تهدف إلى تحقيق النص وضبطه وبيان تاريخ حياته. اعتنى فيها القدماء وجعلوها مقدمة للتفسير كما فعل السيوطي في كتابه الإتقان في علوم القرآن الذي أعده ليكون مقدمة لتفسيره الكبير "مجمع البحرين ومطلع البدرين"، وقد اعتنى به الغربيون، ومن أهم الأعمال في هذا الصدد كتاب تاريخ القرآن لنولدكه.

ب _ دراسة عامة بعيدة لازمة لفهم القرآن فهما سليما دقيقاً، تهدف إلى التعريف بكل "ما يتصل بالبيئة المادية والمعنوية التي ظهر فيه القرآن وعاش، وفيها جمع وكتب وقرئ وحفظ وخاطب أهلها أول من خاطب، وإليهم ألقى رسالته لينهضوا بأعبائها وإبلاغها شعوب الدنيا، فروح القرآن عربية، ومزاجه عربي، وأسلوبه عربي، "قرآنا عربيا غير ذي عوج"، والنفاذ إلى مقاصده إنما يقوم على التمثيل الكامل والاستشفاف التام لهذه الروح العربية، وذلك المزاج العربي، والذوق العربي (يقول الخولي في الهامش: إن للقرآن معاني ومرامي إنسانية اجتماعية بعيدة الهدف أبدية العمر، لكن ذلك كله إنما جاء الإنسانية في ثوبه العربي، وبذلك التعبير العربي، والتمثل التام لهذه العروبة هو السبيل المتعينة لفهم ذلك كله، والوصول إليه)، ومن هنا لزمّت المعرفة الكاملة لهذه البيئة العربية المادية أرضها

بجبالها وحرارها وصحاريها .. وسمائها .. وأنوائها وجوها .. وطبيعتها بجذبها وخصبها .. ونباتها وشجرها ... فكل ما يتصل بتلك الحياة المادية العربية وسائل ضرورية لفهم هذا القرآن العربي المبين ..

مع هذا ما يتصل بالبيئة المعنوية بكل ما تتسع له هذه الكلمة، من ماضٍ سحيق وتاريخ معروف ونظام أسرة أو قبيلة وحكومة في أي درجة كانت أو عقيدة بأي لون تلونت، وفنون مهما تنوع، وأعمال مهما تختلف وتشعب، فكل ما تقوم به الحياة الإنسانية لهذه العروبة وسائل ضرورية كذلك لفهم هذا القرآن العربي المبين ..".

٢_ دراسة القرآن نفسه:

أ_ تفسير المفردات: يجب على المفسر أن يعتمد إلى معاني الآيات القرآنية التي تؤيدها ألفاظها العربية المبينة كما كان يفهمها أهل العربية في عهد نزول القرآن، ولا يتجاوز ذلك فيحمل ألفاظ القرآن شيئاً من المعاني الباطنية أو الإشارية أو التأويلات المذهبية، أو الصناعة النحوية المتكلفة، أو البلاغة الفلسفية النظرية النائية عن الأجواء الأدبية العربية التي جاءت فيما بعد.. لأنها تسدل حجباً على البيان القرآني وتقيم عقبات في سبيل الوصول إلى أغراضه الحيوية ومعانيه الاجتماعية والنفسية.

ويجب على المفسر النظر في المادة اللغوية للفظ الذي يريد تفسيره، لينحي فيها المعاني اللغوية عن المعاني الاصطلاحية، ثم ينظر في تدرج المعاني اللغوية للمادة نظراً ترتبها على الظن الغالب فيقدم الأسبق الأقدم على السابق حتى الوصول ما أمكن إلى ترجيح معنى لغوي للكلمة. ثم الانتقال إلى المعنى الاستعمالي للكلمة في القرآن، يتتبع ورودها فيه كله، لينظر في ذلك، فيخرج منه برأي عن استعمالها، هل كانت له وحدة اطردت في عصور القرآن المختلفة، ومناسباتها المتغيرة، وإن لم يكن الأمر كذلك فما معانيها المتعددة التي استعملها فيها القرآن، وبذا يهتدي بمعناها أو معانيها اللغوية إلى معناها أو معانيها الاستعمالية في القرآن، وهو ما ينتهي إليه من كل أولئك يفسرها مطمئناً في موضعها من الآية التي جاءت فيها.

صحيح أنه لا يفهم القرآن إلا كما كان يفهمه العرب الذين نزل فيهم، ويجب الابتعاد عن اعتقاد معان وحمل ألفاظ القرآن عليها. ولكن يجب الإقرار بخلود القرآن.. وإذا كانت البلاغة مطابقة الكلام لمقتضى الحال فإن الدلالة القرآنية ينبغي أن ترتبط أولاً بإدراك من خوطب به من الناس في ذلك العهد فإذا كان لنا أن نمد هذه الدلالات لإبلاغ ما جدّ ويجد من مشكلات الحياة والناس، فلا ينبغي أن ننسب إلى القرآن من المعاني الجديدة إلا ما كان طريق فهمه الحس اللغوي للعربية، وسبيل الانتقال إليه هو دلالة اللفظة الأولى في عصر نزول القرآن.

ب_ التراكيب: الصناعة النحوية أمر غير مقصود لذاته بل إنها أداة من أدوات بيان المعنى وتحديدته، والنظر في اتفاق معاني القراءات المختلفة للآية الواحدة، والتقاء الاستعمالات المتماثلة في القرآن كله

ج_ دراسة الأساليب القرآنية: النظرة الفنية التي تتمثل الجمال القولي في الأسلوب القرآني، وتستبين معارف هذا الجمال وتستجلي قسماته في ذوق بارع قد استشف خصائص التراكيب العربية.

— لا تهدف دراسة معاني ألفاظه وتراكيبه إلا إلى التماس ما للفظ والنظم من إيجاءات أدبية فنية لصوغ معجز بلاغته التي أحس بها ملوك الكلام من العرب ودان بها المتمنعون على الإسلام أنفسهم ... فالتماس الإيجاءات الأدبية التي تنشر عبرها بلاغة القرآن المعجزة إنما هي التتمة الطبيعية لفهم ألفاظه العربية ونظمه الرائع ...

ثالثاً: ملحق المنهج:

بعد إتمام هذين الصنفين من الدراسة الأدبية للقرآن يجب مراعاة ما يلي:

أـ **التفسير النفسي:** "ما يعنينا هنا من أمر هذا المنهج إلا رد التفسير إلى الدراسة الأدبية، والأخذ فيه بمنهجها، فكان ذلك إيذاناً بالوصل القوي لهذا التفسير بالدرس النفسي، بل كان سبيل الأخذ "بالتفسير النفسي" ما دام هذا القرآن ليس إلا أثراً أدبياً وطرفة من الفن القولي، وهو الفن الذي عرفنا من صلته بعلم النفس، وحاجته إلى علم النفس الأدبي .."^١

"إن ما استقر من تقدير صلة البلاغة بعلم النفس قد مهد السبيل إلى القول بالإعجاز النفسي للقرآن، كما كشف عن الحاجة إلى تفسير نفسي للقرآن يقوم على الإحاطة بما عرف العلم من أسرار النفس البشرية في الميادين التي تناولتها دعاوة القرآن الدينية وجدله الاعتقادي، ورياضته للوجدانات والقلوب، واستلاله لقديم ما اطمأنت إليه وتوارثته عن الأجيال والأسلاف، وتزيينها بما دعا إليه من إيمان ينقض ميرم هذا القديم ويهدم أصوله، وكيف تلطف القرآن لذلك كله، وماذا استخدم من حقائق نفسية، في هذه المطالب الوجدانية والمرامي القلبية؟ وماذا أجدت رعاية ذلك كله في إنجاح الدعوة وإعلاء الكلمة؟ فالتفسير النفسي يقوم على أساس وطيد من صلة الفن القولي بالنفس الإنسانية، وأن الفنون على اختلافها ومن بينها الأدب ليست إلا ترجمة لما تجده النفس .. ولا نقول الآن أكثر من أن اللمحة النفسية في المعنى القرآني ربما تكون أحسم لخلاف بعيد الغور، كثير الشعب بين المفسرين، قد تأثروا له البراهين النظرية والأقيسة المنطقية، وتلاقوا فيه بصنوف الأعراب، ومعقد الصناعة النحوية البعيدة عن روح الفن، أو بالمحاولات البيانية الجافة ... فالملاحظة النفسية حين تعلل نسج الآية وصياغتها، وتعرف بجو الآية وعالمها، ترفع المعنى الذي يفهم منها إلى أفق باهر السناء، وبدون هذه الملاحظة يرتد المعنى ضئيلاً ساذجاً، لا تكاد النفس تطمئن إليه، ولا هو خليق بأن يكون من مقاصد القرآن"^٢

"إن هذا القرآن إنما يعلل إيجازه وإطنابه، وتوكيده وإشارته، وإجماله وتفصيله، وتكراره وإطالته، وتقسيمه وتفصيله، وترتيبه ومناسباته يُعلل كل أولئك وما إليه بالأمور النفسية لا غير، وما قام من تعليل مثل هذا على الأصل النفسي فهو الدقيق المنضبط، وما جاوز ذلك فهو ادعاء وتمحّل، أو أشبه بذلك غالباً .."^٣

^١ مناهج تجديد، أمين الخولي، ٢٥٣.

^٢ مناهج تجديد، ٢٣٩-٢٤٠.

^٣ مناهج تجديد، ٢٥٤-٢٥٥.

بـ _ التفسير وعلم الاجتماع: النظر في أحوال البشر في أطوارهم ومناشئ اختلاف أحوالهم من قوة وضعف وجهل وعلم وكفر وإيمان.. لأن القرآن يتحدث إلى عقول الناس وقواهم العالمة عن مشكلات العالم وحقائق الوجود ودورة الحضارات وكيف أنه يساير حياتهم وأنه يستحق أن تحتم به الرسالات السماوية.

ـ أخيراً: على سبيل الخاتمة: تنبيه الخولي إلى مدى صعوبة تطبيق المنهج الأدبي في دراسة القرآن الكريم: يقول أمين الخولي: " .. وعلى كل حال فنحن إنما نعني بما يقوم به الفهم الأدبي للقرآن، وهو الفهم الذي يتقدم كل استفادة منه ثم تتلوه بعد ذلك المطالب الأخرى من هداية الخلق أو إصلاح حالهم أو التشريع لهم .. فكل هذا يجب أن يقوم على أساس وطيد من الدرس الأدبي الذي أسلفنا وصفه العام، ويتصل بالخبرة النفسية كما ذكرنا، وقد تتصل المطالب الأخرى بعد ذلك بعلم الاجتماع أو غيره. وبعد: فقد وصفت الذي وصفته من منهج التفسير الأدبي ومطالبه الجلية، وأنا ذاكر ما لا أنساه أبداً، كلما شرحت المنهج الدقيق لدراسة أدبية أو غيرها، فأقول للمستكثرين: مهما يكن لهذه المطالب من أثر يثقل خطانا، ويؤخر أثمار دراستنا، ويشعرنا بالنقص، ويعود علينا باللائمة فإن هذه هي الحقيقة، ولن نكذب على أنفسنا، وعلى الأجيال فنزعم الكفاية الكاملة، والقدرة الموفورة، ولنن لم يكن لنا من الكمال إلا الشعور بالنقص فذلك أجمل بنا من التزيد الزائف. وليس الذي نبغيه من هذا المنهج مستحيلاً ولا بعيد التحقيق، فقد شعر أسلافنا بجملمته، وقاموا ببعضه للقرآن، ثم قام المحدثون به كله لكتبهم الأدبية والدينية، ولن نكون نحن بين هؤلاء وأولئك الضائعين العاجزين"^١.



خامساً: عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطي): حياتها ومنهجها في التفسير:

ولدت بنت الشاطي في دمياط عام (١٩١٢م) لأب من العلماء من أساتذة المعهد الديني في طنطا الشيخ محمد علي عبد الرحمن، حفظت القرآن الكريم، وهي ابنة ست سنوات، وتلقت العلم على يدي والدها، ثم التحقت بصعوبة بالمدارس الحكومية، حتى التحقت في عام (١٩٣٥م) بالجامعة المصرية، وتخرجت منها على درجتي الماجستير عام (١٩٤١م)، والدكتوراه عام (١٩٥٥م)، وعملت، بالإضافة إلى عملها في الصحافة في جريدة الأهرام،

مُدّسة في جامعة القاهرة ثم في جامعة عين شمس، ودرّست في عدد من الجامعات الأخرى على رأسها جامعة القرويين، ودار الحديث الحسنية في المغرب، وجامعة الخرطوم، وجامعة الجزائر، بيروت العربية، جامعة الإمارات العربية، كلية التربية للبنات بالرياض. كانت عضواً في المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، وعضواً في المجلس الأعلى لثقافة. حصلت على جائزة الملك فيصل العالمية في الأدب العربي بالمشاركة مع الدكتورة وداد القاضي أستاذة الفكر الإسلامي في جامعة شيكاغو عام ١٩٩٤م.

^١ مناهج التجديد، ٢٤١

توفيت عام (١٩٩٨م)، رحمها الله رحمة واسعة.

من أبرز تلامذتها الدكتورة سلوى العوا صاحبة كتاب "الوجوه والنظائر في القرآن الكريم".

— لها أكثر من أربعين كتاباً، وخمسين بحثاً، منها: التفسير البياني للقرآن الكريم، الإعجاز البياني للقرآن ورسائل ابن الأوزق؛ القرآن والتفسير العصري، القرآن وقضايا الإنسان؛ الشخصية الإسلامية: دراسة قرآنية؛ مع المصطفى عليه الصلاة والسلام؛ تراجم سيدات بين النبوة؛ أرض المعجزات؛ تحقيق مقدمة ابن الصلاح، ورسالة الغفران لأبي العلاء المعري.

تبنت عائشة عبد الرحمن منهج شيخها أمين اخولي، واجتهدت في تطبيق أسسه المنهجية، ونجحت في ذلك إلى حدٍ كبير. وذلك من خلال كتابها "التفسير البياني للقرآن الكريم" الذي ظهر في ستينات القرن الماضي، حيث اختارت فيه تفسير عدة سور مكية قصيرة، تمتاز بوحدة الموضوع المتمثل بالأصول الكبرى للدعوة الإسلامية، وخالية في الوقت نفسه من التشريع والقصص القرآني المثيرين للنقاش والاجتهاد الذي يحتمل التنوع والاختلاف إلى درجة الصدام أحياناً، كما حدث مع محمد عبده من قبل، وبذلك اجتنبت الدخول في نقاش يُعدها عن غايتها الحقيقية المتمثلة بتطبيق منهج شيخها الخولي بأوضح وأيسر طريقة ممكنة، وركزت عملها على تحرير دلالة المفردة القرآنية، وبيان الخصائص الأسلوبية للبيان القرآني، وهو الهدف الأساسي للاتجاه الأدبي لتفسير القرآن الكريم. وقد تميّز تفسير بنت الشاطي بعناصر منهجية عدة، لعل أبرزها:

— تحقيق معاني المفردة القرآنية انطلاقاً من أمهات المعاجم العربية، والشعر العربي القديم، وأقوال المفسرين، مع متابعة التطور الدلالي للمفردة لمحاولة الوصول إلى المعنى الحسي الأول لها، ثم محاولة معرفة المعاني اللغوية المتداولة لها في عصر التنزيل، ثم جمع كل مواضع ورود الكلمة في القرآن الكريم مع تصاريفها واشتقاقاتها، واستنباط معانيها حسب سياقاتها المختلفة، وملح الدلالة المشتركة في شتى وجوه استعمالها في القرآن الكريم، ثم تقرير معناها المقصود والمراد بها حسب سياقها الخاص بها مع مراعاة التناسب والانسجام مع كل أجزاء النص المرتبطة بها. ونتيجةً لذلك وصلت بشكل حاسم إلى تقرير قاعدة تأويلية تقول بأنه لا يمكن أن يكون للمفردة القرآنية في سياق واحد أكثر من معنى واحد، ولذلك رفضت ما كان يقوم به كثير من المفسرين عندما يحشدون للكلمة القرآنية عدة معانٍ قد يقوم بينها شيء من التباين والتعارض دون أي نقد لها، أو ترجيح لأحدها. وبسبب هذه الصرامة العلمية وقفت بنت الشاطي موقفاً نقدياً بارزاً ضد كل المحاولات الإيديولوجية والعلمية التي تحاول صرف الدلالة القرآنية عن معجمها القرآني الخاص بها، وقطعها عن سياقها النصي الداخلي لصالح توظيفها خدمة لهذه القضية أو تلك.

— وبقدر اهتمام بنت الشاطي بالمفردة القرآنية أبدت اهتماماً واضحاً في تتبع ودراسة الأساليب الأدبية والظواهر الأسلوبية في كل سورة فسرتها (مثل أسلوب القسم، ومدى تواتر بعض الصور البلاغية، والصرفية والنحوية فيها)، وعملت على فهم خصائصها البيانية من خلال استيعاب نظائرها في عموم النص القرآني، وتدبر سياقها العام في عموم النص القرآني، ثم تدبر سياقها الخاص في السورة والآية التي وردت فيها، وحاولت إثبات وجود علاقة نوعية

بين هذه الظواهر وبين الموضوعات التي تكشف عنها، وبين موضوع السورة الرئيس، كما اجتهدت في تبين الآثار النفسية التي تركها هذه الظواهر في نفوس متلقيها وعقولهم.

— أكدت بنت الشاطي بكل وضوح أن المرجعية الأولى في حسم المعاني والدلالات القرآنية تتمثل في نص القرآن وسياقه، فهما المحدّد الأساسي في تقرير هذه الدلالات، والمعيّار المقدّم على أقوال المفسرين وقواعد علماء النحو والبلاغة، حيث تقول: "نحتكم إلى سياق النص في الكتاب المحكم ملتزمين ما يحتمله نصاً وروحاً، ونعرض عليه أقوال المفسرين فنقبل منها ما يقبله النص، ونتحاشى ما أُنحِم على كتب التفسير من مدسوس الإسرائيليات وشوائب الأهواء المذهبية، وبدع التأويل. كما نحتكم إلى الكتاب العربي المبين المحكم في التوجيه الإعرابي، والأسرار البيانية، نعرض عليه قواعد النحويين والبلاغيين ولا نعرضه عليها، ولا نأخذ فيه بتأويل لعلماء السلف على صريح نصه وسياقه" [التفسير البياني للقرآن الكريم، ١/١١].

وفي الحقيقة فقد نبع اهتمام بنت الشاطي بالسياق القرآني من قناعتها العلمية بوحدة النص القرآني بشكل عام، ووحدة نصه وانسجامه على مستوى سوره، لذلك دعت دون كلل أو ملل إلى تفعيل الأصل التأويلي المتفق عليه (القرآن يفسّر بعضه بعضاً).

— نموذج تطبيقي: أسلوب القسم في القرآن الكريم عند بنت الشاطي:

ترفض بنت الشاطي القبول بالقول السائد بأن "الأقسام" التي ترد في بدايات بعض السور، هي إشارات إلهية إلى عظمة المخلوقات التي وقع عليها القسم. هذا الرأي المقبول من قبل عدد من العلماء الكبار، مثل: ابن قيم الجوزية (ت ٧٥١ هـ)، ومحمد عبده (ت ١٩٠٥ م)، لا تقبل به بنت الشاطي، ولا تراه كافياً لتفسير أسلوب "القسم" في القرآن الكريم. وذلك لأنّ القرآن الكريم في نظر بنت الشاطي عندما يريد أن يشير إلى روعة وعظمة مخلوقات الله يفعل ذلك بطريقة مباشرة وواضحة ومجرّد الإشارة، في هذه "الأقسام" الغامضة، إلى المخلوقات (مع الإقرار بأنّ خلق أصغر الأشياء هو معجزة عظيمة) لا يساوي تلك المقاطع القرآنية الصريحة التي نستنبط منها عظمة رفعة الخالق من خلال روعة وعظمة مخلوقاته.

لذلك ذهبت بنت الشاطي إلى أنّ القسم في القرآن هو أداة أسلوبية لجذب انتباه المستمعين بأقوى طريقة ممكنة من حيث الجاذبية والتأثير، وذلك من خلال استخدام شيء يُدرك بسهولة عن طريق الحواس للإشارة به إلى شيء معنوي، يشتركان معاً في بعض الصفات الجامعة بينهما، ولكن هذا الشيء المعنوي نفسه غير متضمّن في داخل القسم^(١). فالقسم بالنهار والنور يشير إلى الوحي والهداية الربانية، والقسم بالليل والظلمة مرتبط بالضلال والوثنية حسب نظرية بنت الشاطي.

تقول بنت الشاطي: "والذي اطمأنت إليه، بعد طول تدبر وتأمل في السور المستهله بهذه الواو أي واو القسم هو أن القسم بها يمكن أن يكون - والله أعلم - قد خرج عن أصل الوضع اللغوي في القسم للتعظيم إلى معنى بياني، على نحو ما تخرج أساليب الأمر والنهي والاستفهام عن أصل معناها الذي وضعت له، لملاحظ بلاغي. فالواو في هذا الأسلوب تلفت لفتاً قوياً إلى حسيّات مدركة ليست موضع غرابة أو جدل، توطئة إيضاحية لبيان معنويات أو غيبيات لا تُدرك بالحس ... وحين نتبع أقسام القرآن... نجد أنها تأتي لافتة إلى صورة مادية مدركة وواقع مشهود، توطئة بيانية لصورة أخرى معنوية مماثلة غير مشهودة ولا مدركة يماري فيها من يماري: فالقرآن الكريم في قسّمه بالصبح إذا أسفر، وإذا تنفس، والنهار إذا تجلّى، والليل إذا عسعس، وإذا يغشى، وإذا أدبر، يجلو معاني من الهدى والحق، أو الضلال والباطل، بماديات من النور والظلمة، وهذا البيان للمعنوي بالحسي، هو الذي يمكن أن نعرضه على أقسام القرآن بالواو، فنقبلها دون تكلف أو قسر في التأويل... هذا هو ما نطمئن إليه في التفسير البياني للقسم... ولا أعرف فيما-قرأت أحداً من المفسرين التفت إلى هذا الملاحظ التفاتاً واضحاً متميزاً، وإن يكن بعضهم قد استشرف له من بعيد"^١.

بالنسبة إلى سورة الضحى، تشرح بنت الشاطي أن القرآن يشير، من خلال أول آيتين في هذه السورة، إلى ظاهرتين متعاقبتين "تألق الضوء في ضحوة النهار، ثم فتور الليل إذا سجا وسكن". وفي الآيات الثلاث التالية، يشير القرآن أيضاً إلى ظاهرتين متعاقبتين بالضرورة هما ظاهرة سكون الوحي، وظاهرة نزوله^(٢). وبالإضافة إلى ذلك، يشير القرآن، في الآيات رقم (٦ و ٧ و ٨) من هذه السورة إلى تقلّبات الأحوال المتعلقة بالإنسان^(٣). أمّا بالنسبة إلى سورة النازعات، فقد قدّمت بنت الشاطي، من خلال نظريتها في القسم حلاً رائعاً لمشكلة "الأقسام"، التي تثير التأمل، والمذكورة في أول هذه السورة: {والنازعات غرقا والناشطات نشطا والسابحات سبحاً} فالسابقات سبقا فالمدبرات أمرا يوم ترجف الراجفة { [سورة النازعات: ١-٦]، تتفق بنت الشاطي مع كلّ المفسرين الآخرين في أنّ هذه الآيات الكريمة تصف يوم الحساب، ولكنها ترى أن الآيات الخمس الأولى وصف لظاهرة حسية ملموسة، هي ظاهرة هدير قطع الخيل المغيرة التي تمهّد لأمر تتعلق بيوم القيامة. ونصّ الآيات

^١ التفسير البياني، بنت الشاطي، ٢٥/١-٢٦

(٢) تقول بنت الشاطي: "المقسم به في آيتي الضحى صورة مادية وواقع حسي يشهد به الناس في كل يوم، تألق الضوء في ضحوة النهار، ثم فتور الليل إذا سجا وسكن. دون أن يحتل نظام الكون، أو يكون في توارد الحالين عليه ما يبعث على إنكار؛ بل دون أن يخطر على بال أحد أن السماء قد تخلت عن الأرض وأسلمتها إلى الظلمة والوحشة، بعد تألق الضوء في ضحى النهار، فأى عجب في أن يجيء بعد أنس الوحي وتجلّي نوره على المصطفى صلى الله عليه وسلم، فترة سكون يفتر فيها الوحي على نحو ما نشهد من الليل الساجي يوافي بعد الضحى المتألق". بنت الشاطي، التفسير البياني، ١/٢٦.

(٣) أي إشارة القرآن إلى ظواهر اليتيم والرعاية والضلال والهداية، والفقر والغنى، المذكورة في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى وَوَجَدَكَ عَابِلًا فَأَغْنَى﴾ [الضحى ٨٦]، على غرار إشارته إلى تعاقب ظاهري النهار والليل في صدر السورة.

الذي جاء وفق صيغة جمع المؤنث وعلى وزن اسم الفاعل^(١)، يتجاوب مع هذا الفهم. وأنّ صوت قطع الأحصنة الهادر تشبيهه مناسب ليوم القيامة. ومن المحتمل أن يكون هذا التشبيه قد ترك تأثيراً على كُفَّار مكة الذين نزلت هذه السورة من أجل مخاطبتهم، أكثر من الأثر الذي كان يمكن أن يتركه وصف الملائكة، الذين رأى البيضاوي أنّهم الموصوفون هنا للتأثير في كفار قريش^(٢).

تقول بنت الشاطئ: "... إنما يتم لنا يتم بالمقطع الأول من السورة _ آياته الخمس - مشهد حسي وصورة مادية للخيال فيما تعاني من عنف النزاع، وقوة الجذب وشدة التجمع للإفلات والانطلاق، كي تحسم أمراً أُريدت له وتبت في مصير حشدت له قواها، وعانت في السبق إليه ما عانت من نزاع وجذب، ومن تجتمع وتقبض وتوثب، شأن النازع المغرق، والسابح في غير مجال. والقرآن في سورة (العاديات) قد لفت إلى انطلاق الخيل في غارتها المصباحة، المفاجئة، وهو هنا [أي في صدر سورة النازعات] يعرض المشهد من جانب حركة العدو، وما فيها من معاناة وتجمع وانطلاق. والواقع المادي لحركة العدو يوحي بما تهدر به صدور الخيل وهي تتجمع للمعركة، وما تضطرب به أعماقها وهي تتقبض وتوثب، مفلتة من العقال، ساجدة في الهواء، سابقة إلى حيث أُريد لها. فإذا ما بلغت من ذلك كله تدبير الأمر المراد، جاءت صورة أخرى غيبية، تصور حركة القيامة بما فيها من رجف، ووجف وما يصحبها من هزة عنيفة تغير الثابت من نظام الكون، وتدبر أمراً كان حتماً مقضياً"^(٣).

(١) تشير إلى: النزاعات الناشطات السابحات السابقات المدبرات، فهذه الكلمات، بهذه الصيغة، وهذا الوزن تقبل العربية أن تطلقها على الخيل.

(٢) ذهب البيضاوي، وغيره من المفسرين إلى أن الصفات المذكورة في صدر سورة النازعات تتعلق بالملائكة.

تقول بنت الشاطئ: "وأمام ذلك المؤلف من أسلوب القرآن في اللفت بالواو إلى مادي مُدرك، لا نطمئن إلى تفسير (النازعات) بما ذهب إليه أكثر المفسرين من أنها الملائكة تنزع الأرواح؛ إذ ليست الملائكة في نزاعها للأرواح، وسبقها إلى تدبير أمر الله مما يدخل في نطاق الحسيات المدركة. كما يبدو مستبعداً في فهمنا والله أعلم أن يلفت إليها القرآن للاستدلال على البعث من لا يؤمنون بملائكة تنزع الأرواح، وتدبر شؤون الكون بأمر الله؛ إذ لو كانوا مؤمنين بها لصدقوا بالبعث واليوم الآخر". التفسير البياني، ١/ ١٢٤.

٣ التفسير البياني، بنت الشاطئ، ١/ ١٢٩-١٣٠.

المبحث الرابع

الاتجاه الموضوعي في التفسير في العصر الحديث

يجمع هذا الاتجاه جهودَ عدد كبير من المفسرين منذ نهاية القرن التاسع عشر تقريباً، من الذين رأوا أن طريقة التفسير السائدة حتى عصرهم (طريقة تفسير القرآن وفق المنهج التجزيئي، أي تفسير القرآن آية بعد آية حسب الترتيب العثماني للمصحف الشريف)، على الرغم من أهميتها البالغة، فإنها لا تكفي لوحدها لإخراج كل الدلالات والمعاني، والأفكار والتصورات القرآنية المختلفة التي يحتاجها المسلم المعاصر وهو يواجه تحديات ومشكلات مختلفة، وأفاق وعلوم وأفكار جديدة. لذلك لا بدّ من بناء منهج تفسيري جديد يسعى إلى الفهم الكلي للقرآن الكريم على مستوى الموضوعات والقضايا القرآنية من جهة، وعلى مستوى السور من جهة أخرى، من أجل الارتفاع إلى مستوى التحديات، والتفاعل مع التطورات في ضوء الهدي القرآني الرشيد، ومن أجله.

إن فهم هذا الاتجاه، وفهم أبرز أفكار مثليه يتوقف، بعد التعرف على سياقه التاريخي والمعرفي الحديث الذي أدى إلى ظهوره، على فهم مفهوم التفسير الموضوعي والمقصود به وبالمقصود بالمفاهيم الأساسية المرتبطة به، ومحدداته العامة، وأنواعه، وأساسه المعرفية، والفرق بينه وبين التفسير التجزيئي، وأهميته ومدى الحاجة إليه في العصر الحديث، والشروط والمؤهلات العلمية للمشتغلين به.

أولاً: السياق التاريخي والمعرفي لولادة اتجاه "التفسير الموضوعي"

شهد العالم الإسلامي، في العصر الحديث، أي منذ نهاية القرن الثامن عشر إلى بداية السبعينيات من القرن العشرين تقريباً، ظهور أولى محاولات التجديد في ميدان تفسير القرآن الكريم، على مستوى المضمون والمنهج، بنسبٍ متفاوتة بحسب المفسرين وتكوينهم العلمي، وخلفياتهم المعرفية، واختياراتهم المنهجية، وذلك بسبب تغيّر السياق التاريخي للعالم الإسلامي في العصر الحديث بشكل كبير، وظهور مجموعة من المتغيرات التاريخية الحاسمة، التي نذكر منها: انهيار الدولة العثمانية، وتدفع الاستعمار الغربي في أنحاء العالم الإسلامي، وولادة المشروع الصهيوني في فلسطين، وبدء مرحلة التحرّر، والاستقلال السياسي، وظهور الدول الوطنية، ومحاولات تبني النماذج الليبرالية الغربية، أو الاشتراكية الماركسية، في الفكر، والسياسة، والمجتمع، وبناء الدولة.

والانفتاح على الغرب الثقافي والسياسي، وظهور حركات الإصلاح والتجديد الديني، والفكري، والاجتماعي، والسياسي، فضلاً عن تراكم الإنجازات والمكتسبات المعرفية في جميع ميادين العلم والفكر، ولاسيما في ميدان اللغويات والعلوم الإنسانية والاجتماعية، وظهور المذاهب الفلسفية (الوضعية، الماركسية، الوجودية..)، والإيديولوجية (الاشتراكية، الرأسمالية، الليبرالية..) والنظريات العلمية (مثل نظرية دارون..)، التي شكّلت في مجموعها، بالنسبة للمسلم في العصر الحديث، تحدياً كبيراً كاد يعصف بإيمانه بدينه، وبقدرة هذا الدين على مواكبة التطورات الحديثة، والإجابة عن كل الأسئلة والتحديات المطروحة.

كلُّ هذه المتغيرات التاريخية، والإنجازات والتطورات المعرفية تركت أثراً عميقاً، في بنية المجتمعات الإسلامية، وأحوالها، وهمومها، ومشكلاتها السياسية، والاجتماعية، والثقافية من جهة، وأرغمت النخب السياسية والعلمية فيها على التأثر بها، والتفاعل معها من جهة أخرى. في خضم هذا السياق التاريخي والمعرفي المعقّد تشوّف العديد من العلماء والمتقنين المسلمين إلى التفاعل مع المستجدات المعرفية والتاريخية، ومحاولة استكشاف إمكانات الاستفادة منها، وتطويرها في سبيل خدمة القرآن الكريم، ومناهج استمداد معانيه، حتى يكون القرآن الكريم، بوصفه المرجعية الكبرى للإسلام، قادراً على تلبية حاجات المسلمين المتجددة، وأشواقهم الحضارية المشروعة، وقادراً على مواجهة كلّ الأسئلة والتحديات، التي تفرضها الأزمنة الحديثة بكلِّ حمولتها التاريخية والمعرفية.

ولما كانت المقاربات القديمة للقرآن الكريم _ على الرغم من رسوخ مكانتها، واستمرار قيمتها المعرفية والدينية التي لا يمكن لأي باحث منصف أن ينتقص منها أو يتجاهل الثروة العلمية والمنهجية التي نتجت عنها _ لا تكفي لوحدها للاضطلاع بمهمة إعادة تفسير القرآن الكريم في هذا السياق التاريخي والمعرفي الحديث، نظراً لاعتمادها، في الغالب^١، على منهجية تقوم على تجزئة النص، وتحول دون رؤية كلية موحّدة لمعانيه دفعة واحدة، فضلاً عن جعله أسير التخصصات العلمية المتبحّرة للمفسرين، الأمر الذي قلّل، مع مؤثرات تاريخية ومعرفية أخرى عديدة، من تأثير القرآن الكريم في حياة المسلم وتفكيره، ومن ثمّ في كافة وجوه حياته، كان لا بدّ عندئذ من ظهور محاولات رائدة تسعى نحو تجديد العلاقة مع القرآن الكريم على مستوى الشكل والمضمون والمنهج.

^١ نشير هنا، على سبيل المثال، إلى الجهود العلمية الكبيرة التي بذلها علماء التفسير الذين عنوا بتفسير آيات الأحكام (مثل الجصاص الحنفي والقاضي ابن العربي المالكي)، حيث يمكن النظر إلى تفاسيرهم تلك

على أنّها خطوة علمية أساسية على طريق التفسير الموضوعي للقرآن الكريم. هذا فضلاً عن أن جهود الفقهاء العلمية كانت تسير وفق المنهجية الموضوعية الكلية، ولذلك يمكن النظر إلى مؤلفات هؤلاء الفقهاء بوصفها نموذجاً

علمياً استفاد منه رواد التفسير الموضوعي في العصر الحديث.

وفي هذا السياق التجديدي ظهرت أولى المحاولات المنهجية والمعرفية في "التفسير الموضوعي"^١ على أمل أن يتمكن المسلمون عن طريقه من تأسيس منهجية تسهم في إظهار الوحدة النصية والموضوعية للقرآن الكريم، وبذلك تجتهد قدر الإمكان في الوصول إلى مستوى علمي يكون أقرب إلى طبيعة النص القرآني وثرائه وشمول هديه وتكامله، وتجتهد في سبيل الوصول إلى المزيد من معانيه الحكيمة، وتقف في وجه التعسف الحديث في فهمه، وتوظفه في خدمة هذا المذهب أو المشروع أو ذاك؟ وتسهم قدر الإمكان، في تمكين المسلمين في العصر الحديث من استنباط المفاهيم، والمبادئ، والمقاصد، والأنساق الفكرية القرآنية الكلية التي يمكن أن تساعد المسلم في العصر الحديث على تعزيز صلته بدينه من خلال فهم علمي لحقائقه، ومفاهيمه، ومقاصده، وأنساقه الكلية الكبرى. وعلى أمل أن يساعد هذا التفسير المسلم على الإجابة على قضايا عصره، وأسئلته الفلسفية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية في ضوء هدي القرآن الكريم. وبذلك تعود للمسلم طمأنينته وثقته بدينه ومشروعه الحضاري، ويستأنف من جديد دوره التاريخي والحضاري في العالم الحديث.

ـ العوامل المساعدة على نمو وانتشار التفسير الموضوعي:

يمكن أن نذكر من بين العوامل الثانوية التي ساعدت على نمو التفسير الموضوعي و انتشاره، واشتداد الحاجة له، ما يلي:

- انتشار التعليم ومؤسساته الحديثة، ووسائل الإعلام، الأمر الذي أسهم في توسيع جمهور القادرين على القراءة، وتلقي العلم، ولكن في الوقت نفسه كان معظم هؤلاء القراء غير قادرين على التفاعل والاستفادة من كتب التفسير القديمة بسبب تبخرها العلمي، وتوسّعها في علوم كثيرة (علم الكلام، أصول الفقه،

^١ على يد رواد أعلام مثل: حميد الدين الفراهي، محمد عبد الله دراز، محمود شلتوت، أمين الخولي، بنت الشاطي، السيد محمد باقر الصدر، محمد عزة دروزة، محمد محمود حجازي، محمد الغزالي، فضل الرحمن.

^٢ يقوم "التفسير الموضوعي" بالتصدي لمحاولات التعسف في فهم القرآن وتأويله من خلال عناصره المنهجية، وبالتكامل والاستفادة بطبيعة الحال من الجهود العلمية والمنهجية القيمة التي بذلها كبار علماء التفسير قديماً وحديثاً من أصحاب المنهجية التحليلية في التفسير (مثل ابن جرير الطبري، الرازي، القرطبي، ومحمد رشيد رضا، ومحمد الطاهر ابن عاشور) على طريق استكشاف دلالات النص القرآني، وتحسينها بشكل منهجي من أن تمتد إليها يد العبث والتحريف والتأويل الفاسد. مع ضرورة الإشارة هنا إلى إمكانية توظيف التفسير الموضوعي ومنهجيته العلمية بطريقة سطحية وملتوية، وفاسدة أيضاً، شأنه في ذلك شأن أي منهج آخر، لأن استخدام أي منهج علمي يبقى ضمن حدود الطاقة البشرية، ويقبل التلون بألوان أصحابه وميولهم، ويمكن التلاعب به وتفريغه من مضمونه إذا قام به بعض أصحاب الأهواء والمصالح والعصبية المذهبية والإيديولوجية، أو أناس يفتقدون الكفاءة العلمية والشروط الأخلاقية اللازمة.

الفقه، علوم اللغة والبلاغة،...)، واستعمال أغلب أصحابها مصطلحات العلوم والفنون القديمة، التي لا يُحسن المتخَرِّجون من مؤسسات التعليم الحديثة استيعابها بشكل دقيق، فضلاً عن استخدام أغلب مؤلفي هذه الكتب أساليب لغوية وبلاغية، وأساليب في التصنيف صعبة الفهم بالنسبة لمعظم القراء في العصر الحديث الذي لا يملكون الوقت ولا العلم الكافي للوقوف على معانيها، والاستفادة منها بشكل مباشر.

● طبيعة العصر الثقافية التي اتسمت بالروح الفلسفية التي لا تكتفي بالنظرة التحليلية والتجزئية للظواهر المدروسة بل تسعى للفهم الكلي للظواهر والقضايا التي تعالجها، واكتشاف قوانين اشتغالها وتكوُّنها، وهذا السعي ينسجم مع الطبيعة الكلية للتفسير الموضوعي.

● ظهور مجموعة من الكتابات الاستشراقية التي اتهمت القرآن الكريم، ظلماً وزوراً، بالفوضى والغموض بسبب غياب الوحدة الموضوعية فيه، على حد زعمهم. وزعمت أن القرآن الكريم نصٌّ جامع لمواضيع مفككة غير متجانسة ولا متماسكة^١، الأمر الذي دفع بعضهم للقول بأن القرآن الكريم من تأليف رسول الله صلى الله عليه وسلم أو كُتب في مرحلة لاحقة من قبل أكثر من جهة، كما ذهب إلى ذلك جون وانسبرو، ومايكل كوك، وباتريشا كرونه، وغير ذلك من الافتراءات، فجاء التفسير الموضوعي، كما سنرى فيما بعد، للرد العلمي البناء على هذه المزاعم والافتراءات، واجتهد في استكشاف وبيان وبناء الوحدة النصية والموضوعية المتينة التي يمتلكها القرآن الكريم في كافة وحداته النصية (الآية، مجموعة آيات متجاورة، السورة الواحدة، مجموعة سور متجاورة، كامل النص القرآني)

● الاهتمام المبكر نسبياً للجامعات العربية بالتفسير الموضوعي^٢، وإدراج هذا النوع في برامجها التعليمية، وبشكل خاص في الدراسات العليا.

__ المحددات العامة للاتجاه الموضوعي في التفسير:

إن المحددات العامة للاتجاه الموضوعي للتفسير التي تضبط الصورة العامة له تتمثل في النقاط التالية:

__ يتبنى منهجاً حديث النشأة، له جذور تراثية (تتمثل بشكل رئيسي في جهود الرازي والشاطبي والبقاعي) استثمرها العلماء المعاصرون في بناء هذا العلم وتأصيله.

١ انظر على سبيل المثال، كتاب مستنصر مير: "التماسك في القرآن: دراسة مفهوم نظم القرآن في تفسير (تدبر القرآن) لأحسن إصلاحي".

Mustansir Mir, Coherence in the Quran: A Study of Islahi's Concept of Nazm in *Tadabbur-I Quran*, Indianapolis, American Trust Publications, 1986, p2.

٢ بدأت جامعة الأزهر بالاهتمام بهذا المنهج التفسيري منذ نهاية ستينات القرن الماضي، ويمكن الإشارة إلى أن أول رسالة جامعية تخصصت به، كانت رسالة الدكتور محمد محمود حجازي التي حملت عنوان "الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم".

— التسليم بأن المنهج الموضوعي في التفسير منهج حديث النشأة يعني فيما يعني أنه لم تستقر ملامحه العامة بشكل محسوم، وما زال حتى اليوم موضع اختلاف الأنظار والاجتهادات من قبل الباحثين المعنيين به من حيث المفاهيم ومناهج البحث على أقل تقدير. لذلك يمكن لنا أن نقول بأن هذا المنهج لم ينضج بعد، ولم يخرق بطبيعة الحال، وما زال ينتظر الكثير من الجهود العلمية، والكثير من الحوار والنقاش حول قضاياها النظرية والتطبيقية حتى يستوي على سوقه، وتتكامل شخصيته العلمية المستقلة.

— هو منهج عابر للمذاهب الإسلامية لأن علماء هذه المذاهب شاركوا جميعاً بنسب متقاربة في تشييد بنيان هذا المنهج الجديد.

— هو منهج عابر للتخصصات العلمية الضيقة، إذ هو على الرغم من انتمائه إلى علم التفسير، ورسوخ قدمه فيه، واحتياجه إلى كل العلوم الشرعية واللغوية التي يحتاجها هذا العلم، فإن التفسير الموضوعي يحتاج للوصول إلى غايته إلى معرفة الواقع المعاصر، فضلاً عن حاجته إلى بعض العلوم الإنسانية والاجتماعية الحديثة، وبخاصة علوم اللسانيات والنص، والتاريخ وتاريخ الأديان.

ثانياً: الإطار المفهومي "للتفسير الموضوعي":

لكل منهج مفاهيمه الأساسية التي تشكّل المدماك الرئيس في عملية تشييد هذا العلم، والتي تضبط بنيته المعرفية، وتفتح آفاق النمو والتطور أمامه.

وأياً خلل يصيب هذه المفاهيم يرتد أثره بالضرورة على المعمار المعرفي لهذا المنهج بهذه النسبة أو تلك، حسب الخلل الذي أصاب مفاهيمه. ومن أبرز جوانب الخلل التي يمكن أن تتسرب لهذه المفاهيم هو الغموض والإبهام، أو على الأقل غياب الوضوح الدلالي الدقيق الذي قد يكتنفها، والذي يؤدي في الغالب إلى اختلاط مدلولاتها فيما بينها، فيفقد كل مفهوم معناه الأساسي، ويتداخل هذا المعنى مع معاني المفاهيم الأخرى، وبالتالي تفقد المفاهيم قدرتها ودورها في ضبط المجال المنهجي في العلم الذي تنتمي إليه.

في ضوء ما تقدّم يمكن القول بأن المقاربة المنهجية لمفهوم "التفسير الموضوعي" تنطلق من مرحلة التحديد الدقيق للحدود الدلالية لأهم المفاهيم النازمة له، والتي تشكّل الإطار المفاهيمي الذي يعمل من خلاله، والضابطة

لآليات الاشتغال في البحث عن المعنى في القرآن الكريم بشكل عام. ولعل أهم هذه المفاهيم هو: علم التفسير، المنهج العلمي، مناهج المفسرين. ومن ثم ننتقل إلى تحديد مفهوم "التفسير الموضوعي" وما يتعلق به.

١. علم التفسير:

عرّفه الزركشي (ت ٧٩٤هـ) بقوله: "علمٌ يُفهم به كتابُ الله تعالى المنزل على نبيِّنا محمد صلى الله عليه وسلم، وبيانُ معانيه، واستخراجُ أحكامه وحِكَمه، واستمدادُ ذلك من علم اللغة والنحو والتصريف، وعلم البيان، وأصول الفقه، والقراءات، ومعرفة أسباب النزول، والناسخ والمنسوخ".^١

نلاحظ أن هذا التعريف يركز على أمرين، أولهما: جوهر عملية التفسير أي فهم مراد الله من كلامه في القرآن الكريم، وثانيهما: الإشارة إلى أهم الأدوات المعينة على القيام بعملية التفسير، من قبيل: اللغة والنحو والبلاغة، وعلوم القرآن.

وفي العصر الحديث عرّفه عبد العظيم الزرقاني (ت ١٩٤٨م) بقوله: "علمٌ يُبحث فيه عن القرآن الكريم، من حيث دلالته على مراد الله تعالى بقدر الطاقة البشرية".^٢

نلاحظ من هذا التعريف المعاصر أنه يقتصر على الإشارة إلى ماهية علم التفسير العامة المتمثلة بالبحث عن مراد الله تعالى من كلامه حسب الطاقة الإنسانية.

وفي ضوء ما سبق، وبعد الانتباه إلى أن مفهوم العلم لا يتحقق دون أصول وقواعد يتم التعامل معها بصورة منهجية، يمكن لنا أن نقترح التعريف التالي لعلم التفسير:

"جملة الأصول والقواعد التي يؤدي استثمارها بطريقة منهجية إلى الكشف عن مراد الله تعالى من كلامه في القرآن الكريم، حسب الطاقة الإنسانية".

أي هو علم يتمتع بكل ما تقوم به العلوم الأخرى من دقة وضبط وأصول وقواعد ومناهج خاصة للوصول إلى تحقيق غايته أي الكشف عن إرادة الله تعالى المودعة في معاني كلامه في القرآن الكريم. وقيد "حسب الطاقة

^١ البرهان في علوم القرآن، الزركشي، ١٣/١.

^٢ مناهل العرفان في علوم القرآن، محمد عبد العظيم الزرقاني، ط ٣، القاهرة، الناشر: مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، ٣/٢.

الإنسانية" ضروري جداً لأنه يشير إلى بشرية عمل المفسر، ومحدوديته المعرفية، التي لا يمكن له أن يتجاوزها، فضلاً عن أن هذا القيد ينسجم مع ثراء المعنى في القرآن الكريم، وتحدده المستمر.

وهذا يعني أن الكلمة الأخيرة في فهم مراد الله سبحانه تبقى رهاناً مفتوحاً أمام العقل البشري، كلما يجتهد أكثر، ويجدد أدواته المعرفية والمنهجية، يجد المزيد من المعاني القرآنية التي لا تنضب مصداقاً لقوله تعالى: {قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا} (الكهف، ١٠٩). وقوله سبحانه: {وَلَوْ أَنَّ فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} (لقمان، ٢٧).

٢. المنهج العلمي:

يتألف كل علم أو فرع علمي من مادة ومنهج، المادة هي الظواهر التي يتناولها العلم بالتحليل، أما المنهج فهو الخطوات والطريقة التي يعتمد عليها الباحث في عمله للتعرف على حقيقة الظواهر المدروسة، واكتشاف قوانينها الداخلية. وتوجد علاقة وثيقة بين المادة المدروسة ومنهج دراستها، إذ المادة هي التي تفرض نوعاً محدداً من المناهج العلمية التي تنسجم مع طبيعتها وكيونيتها وتساعد على معرفة الحقائق فيها. لذلك يمكن القول بوجود علوم طبيعية تتألف من ظواهر طبيعية ومناهج طبيعية، وعلوم اجتماعية، تتألف من ظواهر اجتماعية ومناهج اجتماعية، وعلوم لغوية تتألف من ظواهر لغوية ومناهج لغوية، وهكذا...

تعريف المنهج لغةً: يعني المنهج في اللغة: الطريق الواضح، ونهج الطريق بمعنى أبانه، وأوضحه، ونهجه بمعنى سلوكه بوضوح واستبانة^١.

وعليه فالمنهج هو: الطريق الواضح البين للوصول إلى الهدف المنشود. أو الطريق الأقصر والأسلم للوصول إلى هدف ما. أو الطريق الواضح والدقيق والأقصر الذي يوصل الإنسان من نقطة إلى أخرى.

— مفهوم المنهج في البحث العلمي:

في ضوء ما سبق يمكن اقتراح التعريف التالي لمفهوم المنهج:

^١ لسان العرب، ابن منظور، ٣٨٣/٢.

"الطريق الفكري المنظم المؤدي إلى الكشف إما عن حقيقة مدعومة بالأدلة والبراهين، أو إيجاد حلٍّ لمشكلة، أو تقديم تفسيرٍ لظاهرة، أو اكتشاف لقانون علمي في فرع من فروع المعرفة، بواسطة طائفة من الأصول والقواعد الكلية التي يلتزم بها الباحث في كل مراحل بحثه حتى يصل إلى هدفه النهائي"^١.

٣. مناهج المفسرين:

منهج التفسير يحتل المكانة المحورية في عملية التفسير، بل هو العمود الفقري لها إذ من دونه لا يوجد عمل تفسيري يستحق الوصف بأنه علمي، بل سيكون مجرد تأملات وملاحظات ذاتية مستوحاة من القرآن الكريم دون قواعد وأصول وضوابط تعصمه من الخطأ والانحراف، وتضمن له الصواب قدر الإمكان.

وللتأكيد على ضرورة المنهج رأينا رسول الله صلى الله عليه وسلم قد حذر المسلمين من التعامل مع القرآن الكريم دون استناد إلى منهج صحيح عندما قال: (من قال في القرآن برأيه وأصاب فقد أخطأ)^٢، أي من جعل ذاته وفكره وعقله فقط أساس العمل التفسيري، وجذب النص إلى منطقة مصالحه ومشاريعه الخاصة، وأصبح القرآن الكريم على يديه تابعاً لا متبوعاً كما ينبغي له أن يكون، حسب قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْقُذُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} (الحجرات، ١)، فقد أخطأ الطريق المطلوب لفهم القرآن الكريم، حتى لو أصاب في هذا الرأي أو ذاك، لأنه بعمله هذا لا يملك ضماناً ثابتة للوصول إلى الفهم السليم للقرآن الكريم بشكل دائم ومستمر، وهذا الأمر لا يمكن الوصول إليه إلا عن طريق استثمار مصادر وأدوات وأصول علمية ضرورية وفق خطوات علمية متدرجة للوصول إلى المعنى، وهذا ما ندعوه اليوم بالمنهج العلمي.

وهكذا فإنه في ضوء فهمنا لمفهوم التفسير، ومفهوم المنهج العلمي، يمكن القول بأن منهج التفسير هو:

"الخطوات العلمية المنظمة المتبعة للكشف عن مراد الله تعالى المودع في كلامه في القرآن الكريم باستثمار مصادر وأدوات وأصول^٣ علمية محددة، حسب الطاقة الإنسانية".

^١ قارن ب، في مناهج البحث العلمي وأساليبه، سامي عريفيج، خالد مصلح، مفيد حواشين، ط٢، عمان، دار مجدلاوي، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م،

٣٢-٣٤.

^٢ أخرجه الترمذي في سننه، في باب: ما جاء في الذي يفسر القرآن برأيه.

^٣ نقصد بمصادر التفسير، التي قد يستند إليها المفسر في عمله، من قبيل القرآن الكريم، السنة النبوية، السيرة النبوية، أقوال الصحابة والتابعين، اللغة والأدب العربي في عصر التنزيل. ونقصد بأدوات التفسير: العلوم التي قد يستخدمها المفسر في عمله، مثل: أسباب النزول، المكي والمدني، الناسخ والمنسوخ....، وقواعد التفسير التي يعتمد عليها كل مفسر (مثل العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، كل عام يبقى على عمومته حتى ما يأتي ما

هذا من حيث الشكل أما من حيث المضمون فكل منهج يتلون بحسب المصادر والأدوات والأصول التي يعتمد عليها المفسر، وبحسب طريقة تعامله مع كل مصدر، وبحسب ثقافة المفسر وتكوينه العلمي، وسياق عصره الذي يعيش فيه، وبحسب المذهب الذي ينتمي إليه، وأخيراً بحسب المقصد الرئيس الذي يتوخاه من وراء عمله التفسيري، لذلك فقد نجد منهجاً تفسيرياً واحداً يستخدمه عددٌ من المفسرين، ولكن مُخرجاته العلمية تختلف اختلافاً واضحاً بين هؤلاء المفسرين، على الرغم من اتفاقهم في اتباع الخطوات المنهجية نفسها. ومن هنا ظهر مصطلح **مناهج المفسرين** ليعبر لنا عن منهج كل مفسر، ومدى خصوصيته فيه. وبهذا يمكن القول بأن منهج المفسر هو: "المنهج التفسيري المصطبغ بصبغة معرفية وسياقية ومقصدية خاصة بالمفسر، تُكيّف عمله، وتحكم طريقة تعامله مع كل مصادره وأدواته وأصوله، وتؤثر في مخرجاته التفسيرية".

وهكذا يجب التذكير مجدداً بأن العمل التفسيري على الرغم من كل محدوداته الموضوعية والخارجية يبقى جهداً إنسانياً محدوداً بتكوين المفسر الديني والعلمي والفكري والمذهبي، وبسياق عصره الذي يعيش ويتفاعل مع أفقه المعرفي وقضاياه ومشكلاته التاريخية.

٤. مفهوم التفسير الموضوعي:

اجتهد بعض العلماء والباحثين في العصر الحديث في تقديم محاولات على طريق الضبط المفهومي لكل ما يتعلق بالتفسير الموضوعي، وفي هذا السياق قدّموا مجموعةً من التعاريف المتنوعة والمختلفة في اعتباراتها ومقاصدها، ومدى استيعابها لعناصر مفهوم التفسير الموضوعي^١ وأنواعه، مع تفاوت بينهم أيضاً في الدقة والاختصار والوضوح، وهي العناصر الضرورية لأي تعريف.

ويمكن لنا أن نصنف هذه التعاريف من حيث الجهة التي ركزت عليها، حيث نجد مجموعة منها تركز على الخطوات المتبعة في هذا التفسير، وعلى الغاية منه في الوقت نفسه، مثل:

يخصّصه..)، وتقصد بأصول التفسير أي الأصول المنهجية العامة التي يؤمن بها علمياً، ويلزم نفسه الأخذ بمقتضاياتها في أثناء عمله التفسيري، من قبيل: تفسير القرآن بالقرآن، وتفسير القرآن بالسنة وأقوال الصحابة، والأخذ بمبدأ وحدة السورة، والوحدة الموضوعية والنصية للسورة، ومراعاة المعهود اللغوي والثقافي العربي في عصر التنزيل، والأخذ بمبدأ الانسجام مع مقاصد القرآن الكلية والثابتة.

^١ قبل الحديث عن مفهوم "التفسير الموضوعي"، لا بد من الإشارة إلى أن المقصود بـ "الموضوع" في هذا المصطلح هو، حسب الدكتور عبد الستار فتح الله السعيد: "القضية التي تعددت أساليبها وأماكنها في القرآن الكريم، ولها جهة واحدة تجمعها، عن طريق المعنى الواحد، أو الغاية الواحدة". المدخل إلى التفسير الموضوعي، عبد الستار فتح الله السعيد، ٢٠. ويمكن القول بكلمة أخرى بأن الموضوع هو: الفكرة/القضية الكلية الواحدة التي يعرضها القرآن الكريم موزعةً بين دفتي مصحفه، سواء من خلال آيات سورة واحدة، أم من خلال آيات متفرقة في أكثر من سورة.

— عبد الستار فتح الله السعيد: "علمٌ يبحث في قضايا القرآن الكريم، المتحدة معنى أو غاية، عن طريق جمع آياتها المتفرقة، والنظر فيها، على هيئة مخصوصة، بشروط مخصوصة لبيان معناها، واستخراج عناصرها، وربطها برباط جامع"^١.

— محمد إقبال عروي: "التفسير الموضوعي منهجٌ في تناول الموضوع القرآني حسب مقاصده المعتمدة، من خلال استقراء الآيات الواردة فيه، وفي ما يتصل به، وجمعها وتحليلها من أجل بيان دلالاته المتكاملة"^٢.

وقامت بعض التعريفات بالتطرق إلى الإشارة إلى أنواع التفسير الموضوعي، مع بيان الغاية منه في بعض الأحيان حسب ما يرى أصحاب هذه التعاريف، مثل:

— أحمد رحمان: "منهجٌ مستحدث في دراسة القرآن، يستهدف سبر أغوار الموضوعات المختلفة من خلال تفسير آيات سور القرآن باعتبارها كلاً موحداً يعبر عن موضوع واحد، أو من خلال تفسير آيات جمعت لبناء موضوع تشكّل الآيات عناصره الأساسية، والغرض فيهما هو الخروج بتصور سليم حول الموضوع أو نظرية علمية فيه"^٣.

حيث أشار هذا التعريف بنسبة متفاوتة إلى النوعين الرئيسيين المكونين للتفسير الموضوعي، وهما تفسير موضوع واحد من خلال كامل القرآن الكريم، أو التفسير الموضوعي الكلي لسورة واحدة.

وقد ركّز بعض العلماء في تعريفهم على الغاية المقصودة من هذا النوع التفسيري. من هذه التعاريف نذكر تعريف هادي معرفة في كتابه المرجعي "التفسير والمفسرون في ثوبه القشيب" حيث ذهب إلى أنه يمكن تحديد التفسير الموضوعي بأنه "البحث وراء الحصول على نظريات قرآنية ذات محورية خاصة بمواضيع تمس جوانب الحياة الفكرية الثقافية والاجتماعية .. بحثاً من زاوية قرآنية للخروج بنظرية قرآنية بشأن تلك المواضيع"^٤.

^١ المدخل إلى التفسير الموضوعي، عبد الستار فتح الله السعيد، ط٢، القاهرة، دار التوزيع والنشر الإسلامية، ١٩٩١م، ٢٠.

^٢ المراكز المنهجية والأصولية للتفسير الموضوعي، محمد إقبال عروي، ص ٩، وهو بحث مقدم إلى مؤتمر "التفسير الموضوعي: واقع وآفاق" الذي عُقد في كلية الشريعة، جامعة الشارقة، عام ٢٠١٠م.

^٣ مصادر التفسير الموضوعي، أحمد رحمان، القاهرة، مكتبة وهبة، ١٩٩٨م، ٥٥.

^٤ التفسير والمفسرون في ثوبه القشيب، محمد هادي معرفة، ط٢، مشهد، الجامعة الرضوية للعلوم الإسلامية، ١٤٢٦هـ، ١٠٣٧/٢.

في ضوء التعاريف السابقة، وفي محاولة للاستفادة منها وتطويرها في الوقت نفسه حتى يكون التعريف أكثر وضوحاً وضبطاً وشولاً، فإنني أقترح التعريف التالي للتفسير الموضوعي:

"المنهج الذي يؤدي إلى الكشف الكلي عن مراد الله سبحانه في قضية قرآنية لمعرفة النسق الفكري الضابط لها، أو الذي يؤدي إلى اكتشاف الانسجام النصي والموضوعي في سورة قرآنية من أجل تفسيرها في ضوء هذه الانسجام حسب الطاقة الإنسانية".

لقد تم التركيز في هذا التعريف المقترح على ماهية التفسير الموضوعي وعلى قسميه الأساسيين بدقة ووضوح، حيث أشار إلى أنه منهج علمي يبتغي الكشف الكلي عن الموضوعات والصور القرآنية على السواء، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فقد أشار بإيجاز شديد إلى الغاية المقصودة من كل قسم منهما، حيث جعل القصد من القسم الأول هو الكشف عن النسق الكلي الضابط لكل جزئيات الموضوع القرآني وفروعه وأفراده، وهذا يعني تحصيل التصور القرآني الكلي المهيمن والحاكم لكل الآيات المرتبطة به، أي الرؤية والنظرية القرآنية في الموضوع المدروس. وأما ما يتعلق بالقسم الثاني فقد أشار إلى أن الغاية منه والثمره العملية المترتبة عليه تتجسد في تفسير آيات السورة القرآنية الواحدة في ضوء نتائج الكشف عن النسق والوحدة الكلية الضابطة لها.

وتجب الإشارة أيضاً إلى أن التفسير الموضوعي على مستوى المنهج، وعلى مستوى المضمون والنتائج هو أمر اجتهادي خاضع للمراجعة والنقد والتعديل وصولاً إلى المنهج والمعاني الأقرب إلى الصواب، وهذا الأمر يقتضي المثابرة في البحث العلمي الدؤوب على المستوى النظري والتطبيقي في كافة ميادين التفسير الموضوعي.

ثالثاً: الأسس والمنطلقات المعرفية للتفسير الموضوعي

١. الإيمان بأن القرآن الكريم كتاب هداية وتغيير نحو الأقوم، وقد نزل مواكباً لحركة تبليغ الرسالة الإسلامية على امتداد حياة الرسول صلى الله عليه وسلم، وقام بالاستجابة لكل حاجات ومتطلبات الدعوة الإسلامية، وحلّ المشكلات التي واجهتها بشكل كامل وناجز، فلم يترك قضية ولا موضوعاً إلا قام باستيفاء عناصره وربطه بالمقصد الأعلى للقرآن الكريم (الهداية وإخراج الناس من الظلمات إلى النور) في كافة المجالات، وعلى كافة الصعد. {قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} المائدة، ١٥-١٦.

٢. الإيمان بتكامل القضايا والموضوعات المعالجة على امتداد القرآن الكريم، أي الإيمان بالوحدة الموضوعية المتماسكة في كامل القرآن الكريم. {أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا} النساء، ٨٢.

٣. الإيمان بالوحدة النصية للقرآن الكريم في كل مستوياته، بناءً على أن ترتيب الآيات في داخل كل سورة، وكذلك ترتيب السور في المصحف الشريف هو ترتيب توقيفي، يجب استخراج حكمه ودلالاته^١.

رابعاً: أنواع التفسير الموضوعي:

يمكن تقسيم أنواع التفسير الموضوعي إلى قسمين رئيسين هما: التفسير الكلي للموضوعات القرآنية، والتفسير الكلي للسور القرآنية. ويندرج تحت كل قسم منهما أنواع جزئية عديدة.

١- أنواع التفسير الكلي للموضوعات القرآنية: يمكن تحديد أنواع التفسير الكلي للموضوعات في القرآن الكريم من حيث طبيعة الموضوع المدروس ومداه إلى الأنواع التالية:

— اقتصر بعض العلماء على نوعه الرئيس أي التفسير الذي يتناول موضوعاً قرآنياً واحداً سواء أكان موضوعاً قرآنياً منفرداً موجوداً في أكثر من سورة قرآنية^٢. أو موضوعاً ما في حدود سورة واحدة^٣.

— وتناول بعضهم موضوعاً قرآنياً مركباً من أكثر من موضوع واحد على مستوى كامل النص القرآني^٤.

— ودرس بعضهم مواضيع قرآنية مختلفة من حيث علاقاتها، وتفاعلها وتلاحمها مع بعض^٥.

— وأضاف بعضهم النوع الذي يعتني بدراسة المصطلحات والمفاهيم القرآنية^٦، كل على حدة^٦.

١ انظر، إمعان النظر في ترتيب الآي والسور، محمد عناية الله أسد سبحاني، عمّان، دار عمار، دون تاريخ نشر، ٦٧-٨١،
٢ مثل بحث "المكر في القرآن الكريم" في كتاب "منهجية البحث في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم" للدكتور زياد خليل الدغامين. وبحث الدكتور مصطفى مسلم، "الألوهية من خلال آيات القرآن الكريم" الذي أدرجه في كتابه "مباحث في التفسير الموضوعي".
٣ مثل كتاب "المجتمع الإسلامي كما تنظمه سورة النساء" للشيخ محمد محمد المدني. و"المعجزة والرسول من خلال سورة الفرقان"، للدكتور مصطفى مسلم.
٤ مثل الذي قعله السيد محمد باقر الصدر في بحثه "عناصر المجتمع في القرآن الكريم"، الذي أدرجه في كتابه "المدرسة القرآنية". وكتاب "السنن الإلهية في الأمم والأفراد في القرآن الكريم" للدكتور مجدي عاشور، وكتاب محمد عبد الله دراز "دستور الأخلاق في القرآن".
٥ انظر جهود الباحث الياباني توشيهيكو إيروتسو في كتابيه "الله والإنسان في القرآن: علم دلالة الرؤية القرآنية للعالم"، و"البنية الأخلاقية والدينية للقرآن". وقد ترجم الكتابين إلى العربية الدكتور عيسى علي العاكوب.

— وذهب بعضهم إلى دراسة بعض القضايا القرآنية ضمن شبكة دلالية ومفهومية موحدة تنتشر في كامل نسيج النص القرآني^٣.

— وقد حاول بعض المفسرين المعاصرين تقديم تفسير موضوعي كامل لكل القرآن الكريم بعد ضمّ المواضيع القرآنية الكبرى بعضها إلى بعض في محاور قرآنية كبرى حسب ما يرى المفسّر^٤.

— ويمكن أن نضيف إلى هذه الأنواع أيضاً، التفسير الذي يحافظ على الترتيب العثماني للآيات القرآنية ويفسرها وفق المنهج التحليلي، ولكن المفسّر عندما يرى، أثناء عمله التفسيري، موضوعاً يحتاج إلى بسط وتوضيح، يقوم بالتوقف عنده، وتفسيره وفق المنهج الموضوعي^٥.

٢— أما أنواع التفسير الكلي للسورة القرآنية فهي على الشكل الآتي:

— ذهب باحثون ومفسرون إلى دراسة الوحدة النصية والموضوعية في سورة واحدة، وتحديد علاقتها بما سبقها من سور، ومن ثمّ تفسير هذه السورة في ضوء هذه الوحدة والعلاقة^٦.

١ ذهب فريق من الباحثين المعاصرين إلى أن دراسة المصطلحات والمفاهيم القرآنية تشكل نوعاً ثالثاً مستقلاً بنفسه. نذكر من بين أسماء هؤلاء الباحثين الذين تنبوا هذا التقسيم الثلاثي، مصطفى مسلم في كتابه "مباحث في

التفسير الموضوعي"، وصلاح عبد الفتاح الخالدي في كتابه: التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق.

٢ انظر، التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق، صلاح الخالدي، ٥٢-٥٤، ٦٢-٦٨، وقد ناقش مصطلح "الجهل" في القرآن الكريم (٨٥-١٨٥). وانظر، كتاب "مصطلحات قرآنية" لصالح عزيمة. وفي هذا السياق نلفت الانتباه إلى الجهود العلمية الكبيرة التي يبذلها الدكتور الشاهد البوشيخي رائد الدراسات المصطلحية في العالم العربي، وصاحب الدعوة إلى "معجم تاريخي للمصطلحات القرآنية المعرّفة"، انظر كتابه الجامع لمشروعه المصطلحي "دراسات مصطلحية".

٣ مثل الذي فعله الشيخ محمد الغزالي في كتابه: "المحاور الخمسة في القرآن"، والباحث الباكستاني فضل الرحمن في كتابه: "القضايا الكبرى في القرآن"، (Major themes of the Quran). حيث ناقش القضايا التالية: "الله سبحانه، الإنسان بوصفه فرداً، الإنسان في المجتمع، الطبيعة، النبوة والوحي، الأخريات، الشيطان والشر، انبثاق الأمة الإسلامية".

٤ نذكر من بين هذه المحاولات، تفسير "نفحات القرآن: أسلوب جديد في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم" للشيخ ناصر مكارم الشيرازي بمعاونة مجموعة من العلماء والباحثين. وقد صدر هذا التفسير في مدينة قم، في عشرة أجزاء في عام ١٤٢٦ هـ. حيث وزع الشيخ الشيرازي كل آيات القرآن الكريم وفق المحاور التالية "العلم والمعرفة، معرفة الله (٢)، معرفة صفات وجمال الله سبحانه، المعاد (٢)، النبوة العامة، النبوة الخاصة، الولاية والإمامة، الحكومة"، ومن ثمّ قام بتفسيرها حسب مجموعة من المواضيع الجزئية التي تستوعب كل جزئيات هذه المحاور الكبرى.

٥ كما فعل رشيد رضا في تفسير "المنار"، ومحمد حسين الطباطبائي في تفسيره "الميزان".

٦ مثل الذي فعله العلامة حميد الدين الفراهي في تفسيره لعدة سورة قرآنية، وهي: الفاتحة، الذاريات، التحريم، القيامة، المرسلات، عبس، الشمس، التين، العصر، الفيل، الكوثر، الكافرون. وكذلك الباحث الهندي الدكتور محمد عناية الله أسد سبحاني في كتابه "البرهان في نظام القرآن". حيث درس الوحدة الموضوعية والنصية في سور الفاتحة والبقرة وآل عمران.

— في حين قام آخرون بدراسة الوحدة الموضوعية والنصية في كل سور القرآن دفعة واحدة مع تفسيرها في ضوء هذه الوحدة^١.

— وقام بعض المفسرين بتفسير القرآن الكريم بشكل كامل وفق المنهج التحليلي لكنهم أثناء عملهم اجتهدوا في الكشف عن الوحدة الموضوعية للسور القرآنية، واستفادوا من هذه الوحدة في تفاسيرهم بطرق تختلف من مفسر إلى آخر^٢.

وفي الحقيقة، فإنه يمكن لنا أن ندخل كل هذه الأنواع في حقل التفسير الموضوعي، وربما ندخل أنواعاً أخرى قد يصل إليها الباحثون في المستقبل، بشرط أن نضمن وجود المحدد والضابط الرئيس لمفهوم التفسير الموضوعي فيها، أي: أن يكون الهدف من العملية التفسيرية برمتها هو: الكشف عن الدلالات القرآنية الجزئية على مستوى الموضوع في كامل القرآن، أو في سورة واحدة منه أو أكثر لتركيبتها بصورة ما من أجل الوصول إلى النسق الفكري الكلي المهيمن على هذا الموضوع أو على هذه السورة أو السور. فإذا حققت هذه الأنواع هذا الهدف فهي تدخل في ماهية التفسير الموضوعي وإلا فلا.

خامساً: الفرق بين التفسير الموضوعي وبين التفسير التجزيئي

إذا أردنا أن ندقق النظر في العناصر المكونة للتفسير الذي يعتمد المنهج الموضوعي الكلي، والتفسير الذي يعتمد على المنهج التحليلي التجزيئي^٣، فإننا سنقف على الفرق الجوهرى التالي، وهو أنه إذا كان التفسير التجزيئي بكل أنواعه يسعى في جوهره للكشف عن مُرادات الله تعالى الجزئية المستمدة من الآيات القرآنية حسب ترتيبها في المصحف العثماني، فإن التفسير الموضوعي يسعى إلى الكشف عن مُراد الله الكلي في موضوع

^١ كما فعل المفسر الباكستاني أمين أحسن إصلاحي في تفسيره "تدبر القرآن" الذي صدر في ثمانية مجلدات باللغة الأوردية، وقد صدرت عدة أجزاء منه مترجمة إلى اللغة الإنكليزية منذ العقد الأخير في القرن الماضي. ويمكن أن ندرج في هذا السياق المشروع العلمي الكبير الذي تبنته جامعة الشارقة، وقام به مجموعة كبيرة من العلماء والباحثين بإشراف الأستاذ الدكتور مصطفى مسلم، وقد حمل عنوان "التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم" في عشرة مجلدات، وصدر عام ١٤٣١هـ/٢٠١٠م.

^٢ من هؤلاء المفسرين محمد عزة دروزة في تفسيره "التفسير الحديث"، ومحمد حسين الطباطبائي في تفسيره "الميزان في تفسير القرآن"، وسيد قطب في تفسيره "في ظلال القرآن".

^٣ يمكن تعريف منهج التفسير التحليلي التجزيئي بأنه "المنهج التفسيري الذي يسعى للكشف عن المعاني الجزئية المرادة من كلام الله تعالى في القرآن الكريم وفق ترتيب الآيات والسور في المصحف العثماني باستثمار مجموعة محددة من الأصول والأدوات التفسيرية حسب الطاقة الإنسانية".

قرآني واحد، في سورة قرآنية واحدة، أو أكثر ليصل إلى اكتشاف المركب النظري الشامل لهذا الموضوع^١؛ أو يسعى للكشف عن الوحدة النصية والموضوعية في سورة واحدة أو في عدة سور، وتفسيرها في ضوءها. ويترتب على هذا الفرق الجوهرى بعض الاختلاف في بعض أدوات وأصول التفسير في كل منهج.

من حيث الأصول، تزيد في التفسير التجزيي نسبة الاعتماد على السنة النبوية، وأقوال الصحابة والتابعين على نسبة التعويل عليهم في التفسير الموضوعي الذي يعتمد أساساً على النسيج النصي والموضوعي الداخلي للنص القرآني دون التفريط بالاستفادة العلمية من السنة النبوية، وأقوال الصحابة بشكل رئيس في بيان السياق والمقام الذي نزل في ضوءه القرآن الكريم، فضلاً عن دورهما في تحديد دلالات المفردات، والتراكيب القرآنية والمراد منها.

وأما من حيث الأدوات فإن التفسير الموضوعي يستخدم أداة السياق النصي والخارجي، وعلاقات السبك المعجمي والنحوي، وعلاقات التماسك والانسجام الموضوعي بين الآيات والمعاني القرآنية، أكثر من استخدامهم في التفسير التجزيي الذي يعتني بدوره أكثر بأسباب النزول، والإعراب، والقراءات .. من اعتناء التفسير الموضوعي بهم^٢.

هذا فضلاً عن حاجة المفسر الموضوعي للاطلاع على العصر وعلومه وثقافته أكثر من حاجة المفسر التجزيي الذي قد يُقبل منه أن يفسّر النصّ القرآني دون العودة المباشرة إلى العصر الحديث وثقافته وهمومه التاريخية ومشاغله المعرفية، في حين أن المفسّر الموضوعي إذا أقدم على عمله التفسيري دون الاطلاع الكافي على سياقه التاريخي والمعرفي فلن يستطيع القيام بتحقيق أحد أهم أهدافه الكبرى، أي معالجة مشاكل العصر في ضوء القرآن الكريم وهدية الرباني.

على الرغم من وجود وجوه الاختلاف السابقة إلا أننا نؤكد تقاطع هذين المنهجين التفسيريين في بعض الأصول والأدوات، وخصوصاً على مستوى الأخذ بقاعدة (القرآن يفسّر بعضه بعضاً)، وبهذا نبه إلى عدم إمكانية الاستغناء عن أحدهما لصالح الآخر بل يجب السعي إلى تكاملهما، وإثراء أحدهما من خلال الآخر.

١ ١ يقول محمد باقر الصدر: "إن التفسير الموضوعي يتجاوز التفسير التجزيي خطوة، لأن التفسير التجزيي يكتفي بإبراز المدلولات التفصيلية للآيات القرآنية الكريمة، بينما التفسير الموضوعي يتطلع إلى ما هو أوسع من ذلك، حيث نجده يحاول أن يصل إلى مركب نظري يحتل في إطاره كل واحد من تلك المدلولات التفصيلية موقعه المناسب، وهذا ما نسميه بلغة اليوم بالنظرية"، السنن التاريخية في القرآن، محمد باقر الصدر، بعناية محمد جعفر شمس الدين، ٣٦.

٢ قارن ب: مباحث في التفسير الموضوعي، مصطفى مسلم، ٥٢-٥٤.

سادساً: أهمية التفسير الموضوعي، ومدى الحاجة إليه في العصر الحديث

١. لعل أهم فائدة للتفسير الموضوعي هي رفع ما يتبادر من علامات التعارض الظاهري بين آيات تتناول قضية أو موضوعاً واحداً مثل (الجبر والاختيار، الضلال والهداية، الشفاعة، الجهاد والقتال)^١، وذلك لأننا عندما نقوم باستقراء وجمع كل الآيات المتعلقة بمثل هذه القضايا، وتحليلها ودراستها وفق منهج التفسير الموضوعي فإن المفسر سيتمكن من تفسير وإزالة كل أشكال الاختلاف الظاهري بينها من خلال تفسيره لكل آية في ضوء سياقها الخاص، وفي ضوء النسق الكلي الذي تنتمي إليه آخذاً بعين الاعتبار قاعدة "وجوب رد الآيات المتشابهة إلى الآيات المحكمة"^٢، وفهم القضايا الجزئية والفرعية في ضوء القضايا الكلية.

ويترتب على حلّ هذه القضايا الإشكالية في ضوء هذا المنهج رفع الخلاف بين الفرق والمذاهب الإسلامية التي رفعت الحواجز بينها بسبب فهمها الخاصة لهذه الآيات. وبهذه الطريقة يتم فتح الطريق أمام استعادة العقل الإسلامي وحدته الداخلية، التي تتوقف عليها وحدة المجتمعات الإسلامية .

٢. مواجهة التفهيمات المتعمد للخطاب القرآني للقيام بعملية إعطاء المشروع الدينية للمشاريع الإيديولوجية والمذهبية التي تهدف للسيطرة على الأفراد والجماعات والمؤسسات في المجتمعات الإسلامية، من خلال الاستدلال بآيات مفردة مقطوعة عن شبكتها الدلالية المتكاملة، وتوظيفها لدعم هذا المذهب أو ذاك، ولدعم هذه الإيديولوجية في وجه منافسيها.

٣. معرفة الأنساق الفكرية الكلية الحاكمة لكل المفاهيم القرآنية التي تشكّل شبكة مفهومية متواشجة تعمل على صياغة العقل الإسلامي، وتزوده بكل الأدوات المعرفية والمنهجية الهادية للمسلم في مفاصل علاقاته الفردية والاجتماعية، ودوائر عمله في كل طيات وجوده. والوصول إلى شبكة المفاهيم والنظريات والمبادئ الكلية للقرآن الكريم التي يجب اعتمادها بوصفها معايير نقدية ضابطة لكل الأفكار والأحكام الفرعية والجزئية المنضوية تحتها، بل يمكن أيضاً أن تشكّل معياراً لكل الفهوم والتوجهات الكلية المتعلقة بهذه القضية أو تلك من قضايا العقل والواقع الإسلامي المعاصر (قضايا المرأة، الحكم، العنف، الديمقراطية، حقوق الإنسان، البيئة، العدل الاجتماعي...).

١ انظر، القرآن المجيد تنزيهه وأسلوبه .. والطريقة المثلى لفهمه وتفسيره، محمد عزة دروزة، ٢٥٩-٢٥٩.

٢ هذه القاعدة مستمدة من قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ { آل عمران، ٧.}

٤. تقديم الإجابة القرآنية النظرية الصريحة والمتكاملة لكل تساؤلات المجتمعات الإسلامية، ومشاكل الفكر الإسلامي الحديث، بل وأسئلة العقل الإنساني المعاصر، وتقديم الحلول الناجعة لكل همومه الفردية والمجتمعية والعالمية في كافة صُعد عمله.

٥. يمكن لهذا النوع من الدراسات القرآنية بسبب طبيعته النظرية الكلية، ذات الأبعاد الفلسفية العميقة، والمكتوب بلغة وأسلوب منهجي حديث، أن يخاطب أكبر شريحة ممكنة من المسلمين وغير المسلمين، من المتخصصين وغير المتخصصين بالعلوم الإسلامية. وكذلك يمكن للمثقفين الذين لا يملكون الاطلاع المسبق على الإسلام أن يتعاملوا مع هذا النوع من الدراسات القرآنية، وبخاصة إذا تمَّ ترجمتها إلى اللغات العالمية، وبشكل خاص إلى اللغة الإنكليزية.

٦. تساعد دراسة موضوع قرآني واحد، بعد استقراءه بشكل تام أو شبه تام، في فهم نشأته وتطوره ونضجه وامتداداته وهذا الأمر يساعد المؤرخين على إعادة تقييم محاولاتهم في الترتيب التاريخي لسور القرآن الكريم وآياته، وبالتالي يساعدنا أكثر على فهم مسار الدعوة الإسلامية، وكل هذا يصبُّ في نهاية المطاف في فهم القرآن الكريم أكثر فأكثر.

٧. تساعد دراسة الوحدة النصية والموضوعية للسور القرآنية على استمداد المزيد من المعاني القرآنية التي لا يمكن الوصول إليها إلا عن طريق دراسات العلاقات النصية الموضوعية النازمة للسور القرآنية، فضلاً عن أن اكتشاف وحدة السورة، وتحديد عمودها الموضوعي الذي تدور حوله كل آياتها، يسهم في توفير معيار علمي دقيق للترجيح بين المعاني المحتملة لآيات السور، وتحديد المعنى الأرجح الذي ينسجم مع عمودها الكلي الخاص بها^١.

٨. يؤدي تفسير السورة في ضوء وحدتها النصية والموضوعية إلى رد الشبهات والالتزامات الباطلة التي يوجهها الذين يرون أن القرآن الكريم نص مفكك، غير منسجم الأجزاء، وبالتالي هو مستعص على الفهم التحليل والتفسير.

سابعاً: شروط ومؤهلات المفسر المشتغل بالتفسير الموضوعي

لكل نوع تفسيري شروط ومتطلبات ومؤهلات معرفية خاصة يقتضيها منهجه وغايته. ولما كان التفسير الموضوعي من حيث المنهج يهدف إلى معرفة أنساق ومقاصد القرآن الكلية في السور، وفي كافة القضايا العقدية والتشريعية والروحية والأخلاقية والاجتماعية والفكرية التي خاطب الله تعالى بها الإنسان لإخراجه من الظلمات إلى النور في كافة وجوه ومستويات حياته في الدنيا والآخرة. ومن حيث الغاية فهو في قسمه الأول

^١ انظر، دلائل النظام، حميد الدين الفراهي، ١٦ وما بعدها.

يسعى إلى التعرف على المنهج والعطاء القرآني في حلّ مشكلات الإنسان المعاصر، والإجابة عن أسئلته المعرفية والتاريخية. ويجتهد في قسمه الثاني على اكتشاف الوحدة النصية والموضوعية في السور القرآنية من أجل محاولة تفسيرها في ضوء هذه الوحدة، والوصول إلى معانٍ جديدة لا يمكن الوصول إليها إلا بعد اكتشاف هذه الوحدة، فإن على المفسر الموضوعي أن يمتلك، بالإضافة إلى المؤهلات المطلوبة في المفسر التجزيئي^١، مؤهلاتٍ ضرورية لا يستطيع من دونها الوفاء بمقتضيات منهجه، ولا بالغاية التي يسعى إليها من خلال اختياره للعمل في هذا النوع التفسيري.

لعل أهم هذه الشروط والمؤهلات العلمية^٢، ما يلي:

١. الاطلاع العميق على كل العلوم الإسلامية التي انبثقت أساساً من مظلة القرآن الكريم، وتسعى لفهمه واستثمار معانيه وعلى رأسها (علوم القرآن، وعلوم الحديث، وعلوم اللغة والبلاغة، وعلم الكلام، وعلم أصول الفقه، وعلم الأخلاق).
٢. القدرة على الاستفادة من العلوم التي تساعدنا على فهم الموضوعات التي عالجها القرآن الكريم في عصر التنزيل (السيرة النبوية، علم التاريخ، تاريخ الأديان، علم النفس، علم الاجتماع، الأنثروبولوجيا).
٣. الاطلاع على حاضر العالم الإسلامي في كل وجوهه التاريخية والمعرفية والسياسية والاجتماعية. والاطلاع على تاريخ الفكر الإسلامي الحديث وقضاياه الدينية والسياسية والاجتماعية.
٤. الاطلاع على تاريخ العالم الحديث والمعاصر، وفهم واقعه وأبرز قضايا ومشكلاته السياسية والاجتماعية. والاطلاع على تاريخ الفكر الحديث، ومكتسباته المنهجية والمفهومية والمعرفية، بطريقة علمية نقدية.
٥. الاطلاع الكافي على الثقافة الفلسفية، وقضايا المنهجية في البحث العلمي التي تساعد المفسر على الفهم العميق والصياغة الدقيقة للمشكلات والقضايا التي يريد معالجتها في ضوء التفسير الموضوعي.
٦. الاطلاع الكافي على العلوم اللغوية الحديثة التي تتعامل مع النص بوصفه خطاباً متجانساً موحداً، وأشير هنا بشكل خاص إلى علوم الدلالة^٣، والتخاطب^٤، والحجاج^٥، ولسانيات النص^٦ من أجل توظيفها في

^١ من أجل الوقوف على الشروط والمؤهلات العلمية المطلوبة في المفسر التجزيئي، والتي يحتاجها أيضاً المفسر الموضوعي، ولا يمكنه الاستغناء عنها بأي حال من الأحوال؛ انظر، الإنتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي، تحقيق مصطفى ديب البغا، ١٢٠٩/٢-١٢١٢.

^٢ يجب تحصيل المؤهلات العلمية بعد استكمال المؤهلات الدينية والنفسية والأخلاقية التي يقف على رأسها: الإخلاص لله والإسلام والعلم والحقيقة، النزاهة، الموضوعية، الثبات والاستمرارية، الملكة النقدية، والتطوير المستمر للذات.

^٣ علم الدلالة (semantics): هو العلم الذي يعتني في الأصل بتحليل المعنى الحرفي للألفاظ اللغوية ووصفها، ولكن مباحته لا تقتصر الآن على الجوانب المعجمية من معاني الكلمات فقط، بل تشمل أيضاً معاني الجمل والجوانب القواعدية. انظر، مقدمة في علمي الدلالة والتخاطب، محمد محمد يونس علي، ط١، بيروت، دار الكتاب الجديد المتحدة، ٢٠٠٤م، ١١-١٣.

فهم الوحد النصية والموضوعية للخطاب القرآني، فضلاً عن مساعدتها في فهم السياق اللغوي والتاريخي والثقافي له.

والحمد لله رب العالمين

^١ علم التخاطب/التداولية (Pragmatics): دراسة كيف يكون للقول، (التي هي عبارة عن تجليات فعلية وتحققات وتجسّدات عملية للجمل اللغوية المجردة في الكلام الفعلي)، معانٍ في المقامات التخاطبية (المخاطب، المخاطب، ظروف الخطاب وسياقه الخارجي، المقاصد والأهداف). أي إن دراسة المعنى على المستوى الدلالي تتم مع الأخذ بعين الاعتبار أثر العناصر التخاطبية الخارجة عن البنية اللغوية للقول في إنتاج المعنى. والفرق بين علم الدلالة وعلم التخاطب على الرغم من اشتراكهما في دراسة المعنى أن الأول يدرس المعاني اللغوية (التي هي معانٍ وضعية تُفهم من مفردات اللغة وتراكيبها) وفقاً للوضع فقط، وبمعزل عن السياق، والمقامات التخاطبية الأخرى، والثاني يدرس المعنى في سياق الاستعمال الفعلي والمقامات التخاطبية التي يُنجز فيها الخطاب، وبشكل خاص مقاصد المتخاطبين. انظر، مقدمة في علمي الدلالة والتخاطب، محمد محمد يونس علي، ١٣-١٦.

^٢ يعني علم الحجاج في سياق الدراسات اللغوية الحديثة: دراسة مجمل التقنيات البيانية الباعثة على إذعان السامع أو القارئ، أو تغيير فكره وسلوكه حسب مقتضى الخطاب الذي يسمعه أو يقرؤه. وهذا العلم مستقلٌّ عن المجدل والخطابة، وهو بعيد عن تهمة الدعاية والمغالطة والتلاعب بعقل المخاطب، وهي العيوب التي يمكن أن تتصل بمفهوم الخطابة من الناحية الفلسفية. وهذا النوع من الدراسات اللغوية يمكن أن نستفيد منه في دراسة نص القرآن الكريم بوصفه خطاباً لأن الخطاب في أعم مفاهيمه هو: "كل قول يفترض متكلاً وسامعاً مع توافر مقصد التأثير بوجه من الوجوه في هذا السامع"، والقرآن الكريم كما معلوم هو خطابٌ من الله تعالى لعباده يأمرهم وينهاهم فيه صراحةً وضمناً، ويتفاعل معهم بصور شتى، ويسعى في نهاية الأمر إلى تغيير تصوراتهم وسلوكهم كما نص القرآن الكريم على ذلك بقوله: ﴿الرَّءِ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ إبراهيم، ١.

يجب التنبيه إلى أن الحجاج، بوصفه عملاً غرضه دائماً أن يغير وضعاً قائماً، هو البديل عن العنف، وذلك لأن البشر عندما يسعون إلى تحقيق أهدافهم ومقاصدهم فهم يقومون باعتماد إحدى وسيلتين لا ثالث لهما: العنف أو الخطاب. والقرآن اختار الخطاب ذا الطاقة الحجاجية على حساب العنف بل رفض استخدام العنف لحمل الناس على عقائدهم وسلوكهم عندما نص على رفض الإكراه الديني بقول الله سبحانه: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ۚ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ۚ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انْفِصَامَ لَهَا ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ البقرة، ٢٥٦.. انظر، الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، عبد الله صولة، ط٢، بيروت، دار الفارابي، ٢٠٠٧م، ٨-٤٨.

^٣ لسانيات النص: هو العلم الذي يدرس النص اللغوي بوصفه وحدة لغوية متماسكة على مستوى البنية اللغوية الخارجية المعجمية والنحوية، وعلى مستوى البنية الدلالية الداخلية، أي مستوى الترابط المفاهيمي بين أجزاء النص مع الأخذ بعين الاعتبار أثر المقام الخارجي في إنتاج المعنى. انظر، بلاغة النص: مدخل نظري ودراسة تطبيقية، جميل عبد المجيد، ط١، القاهرة، دار غريب، ١٩٩٩م، ١٥-١٨.